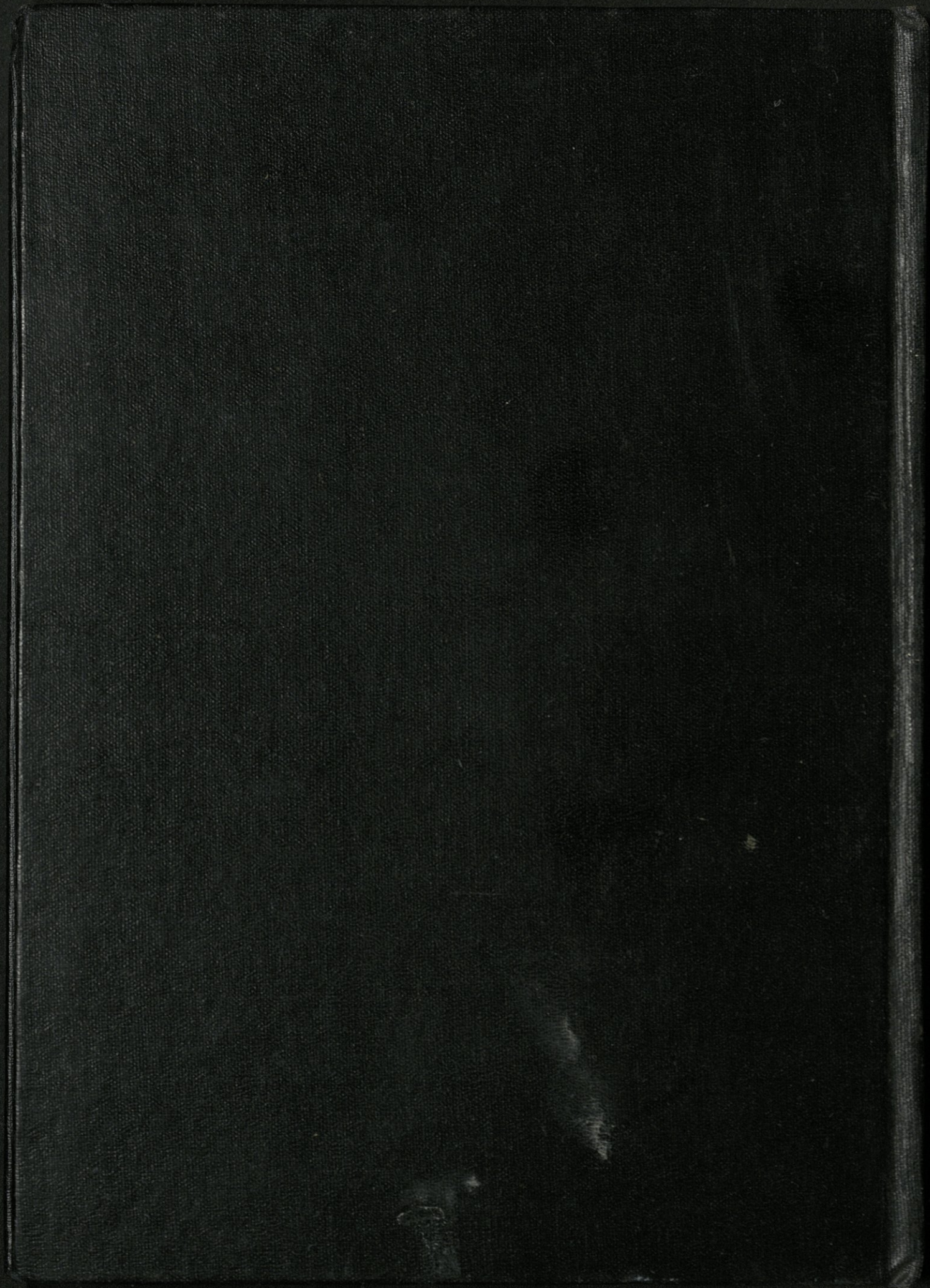
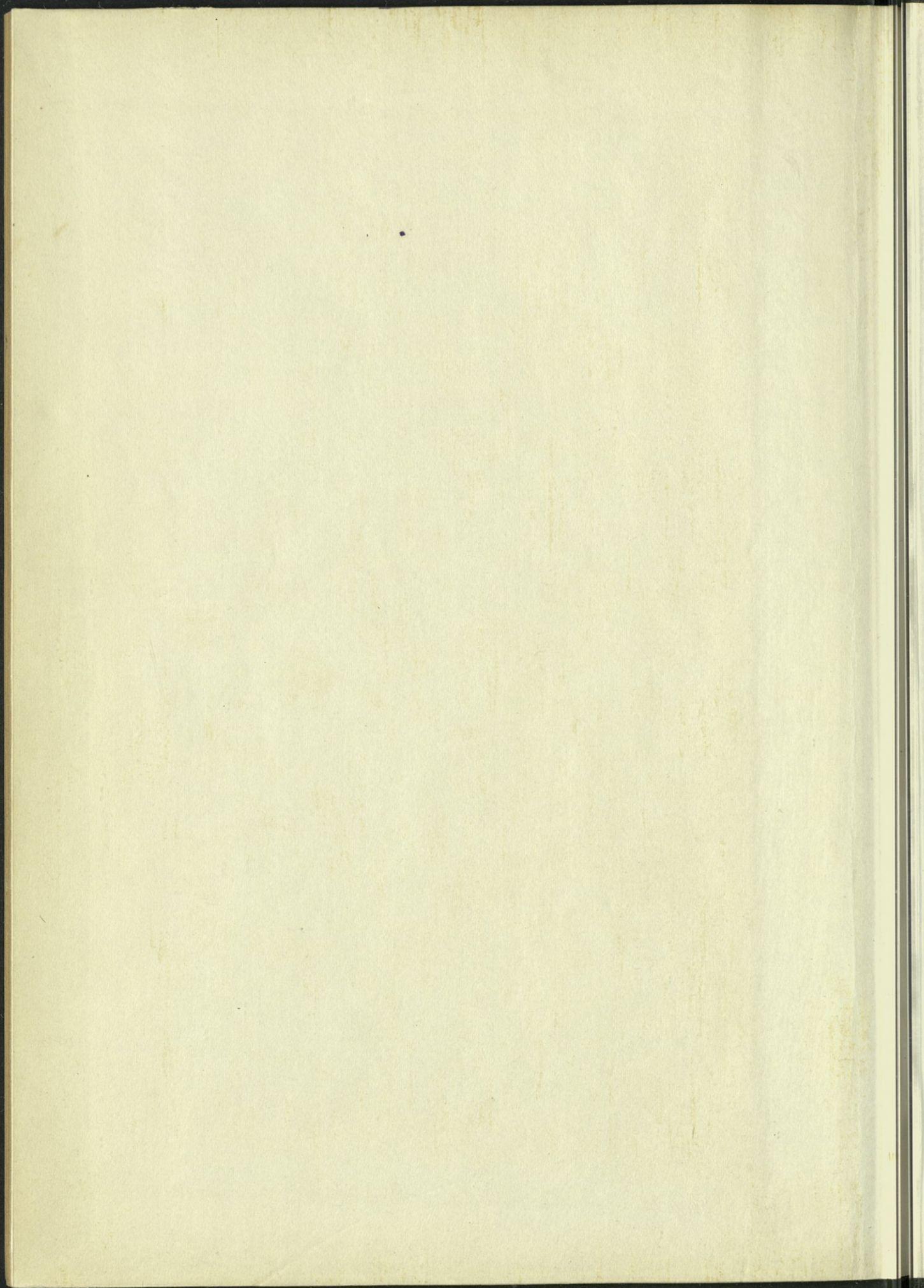
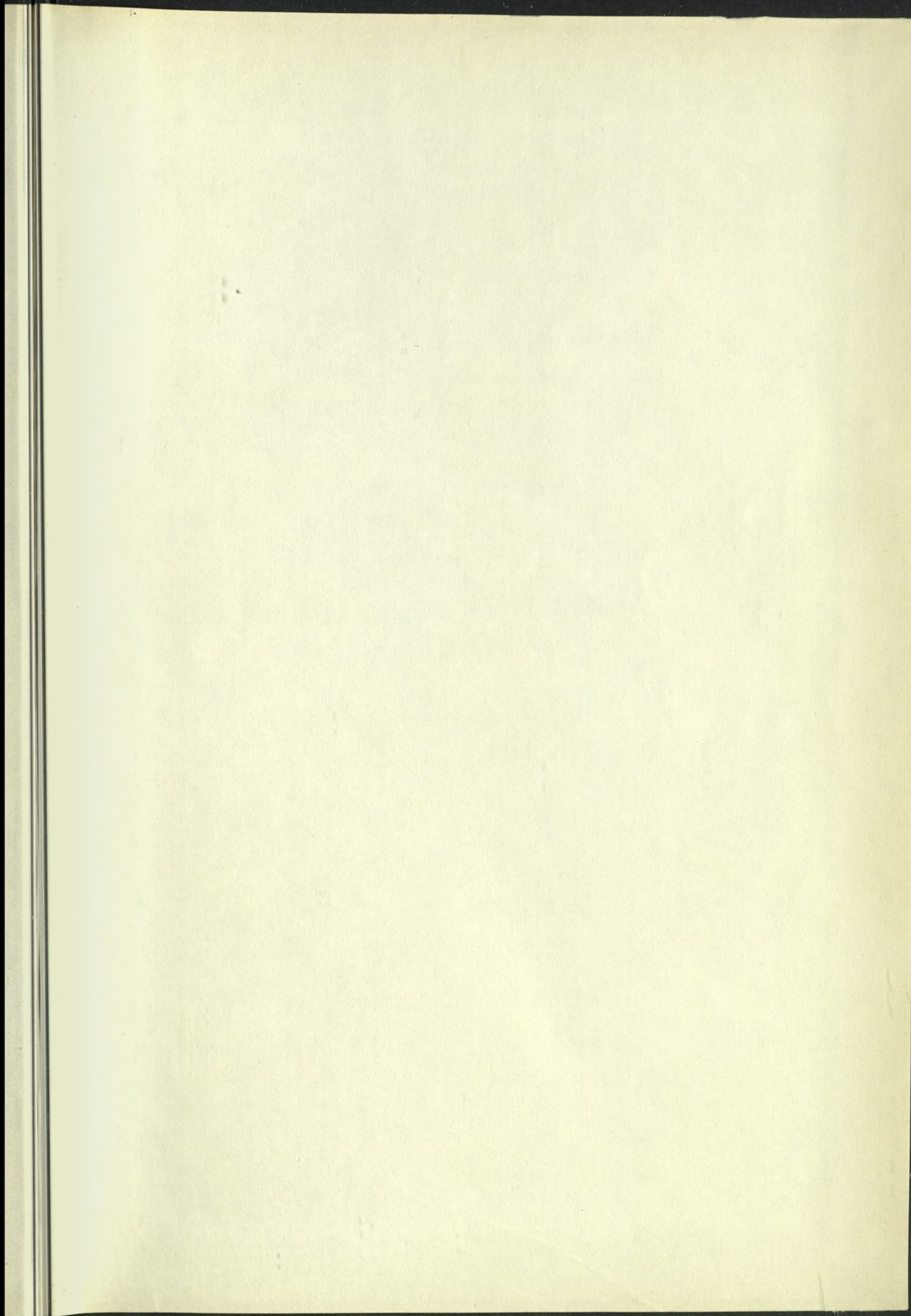
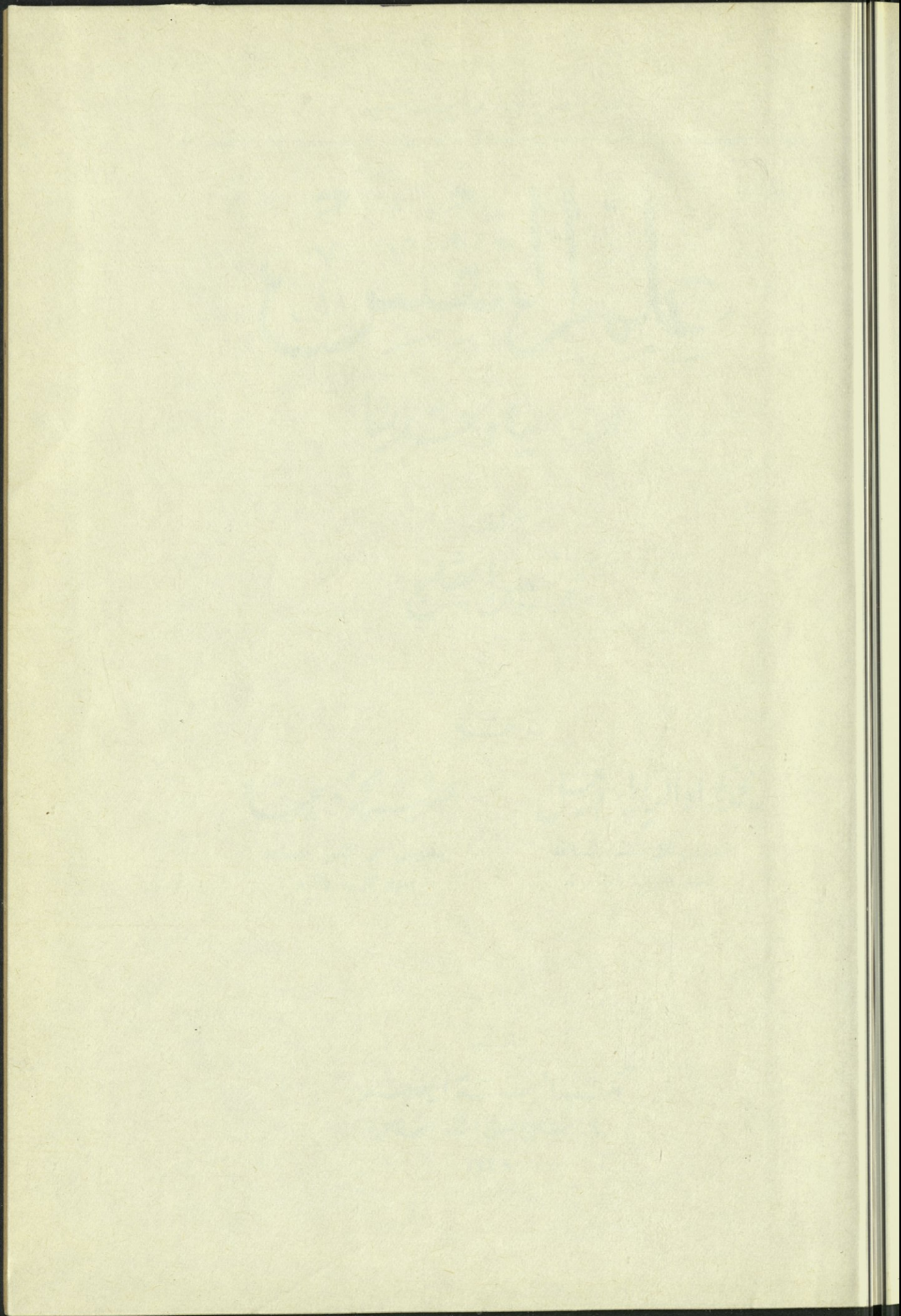


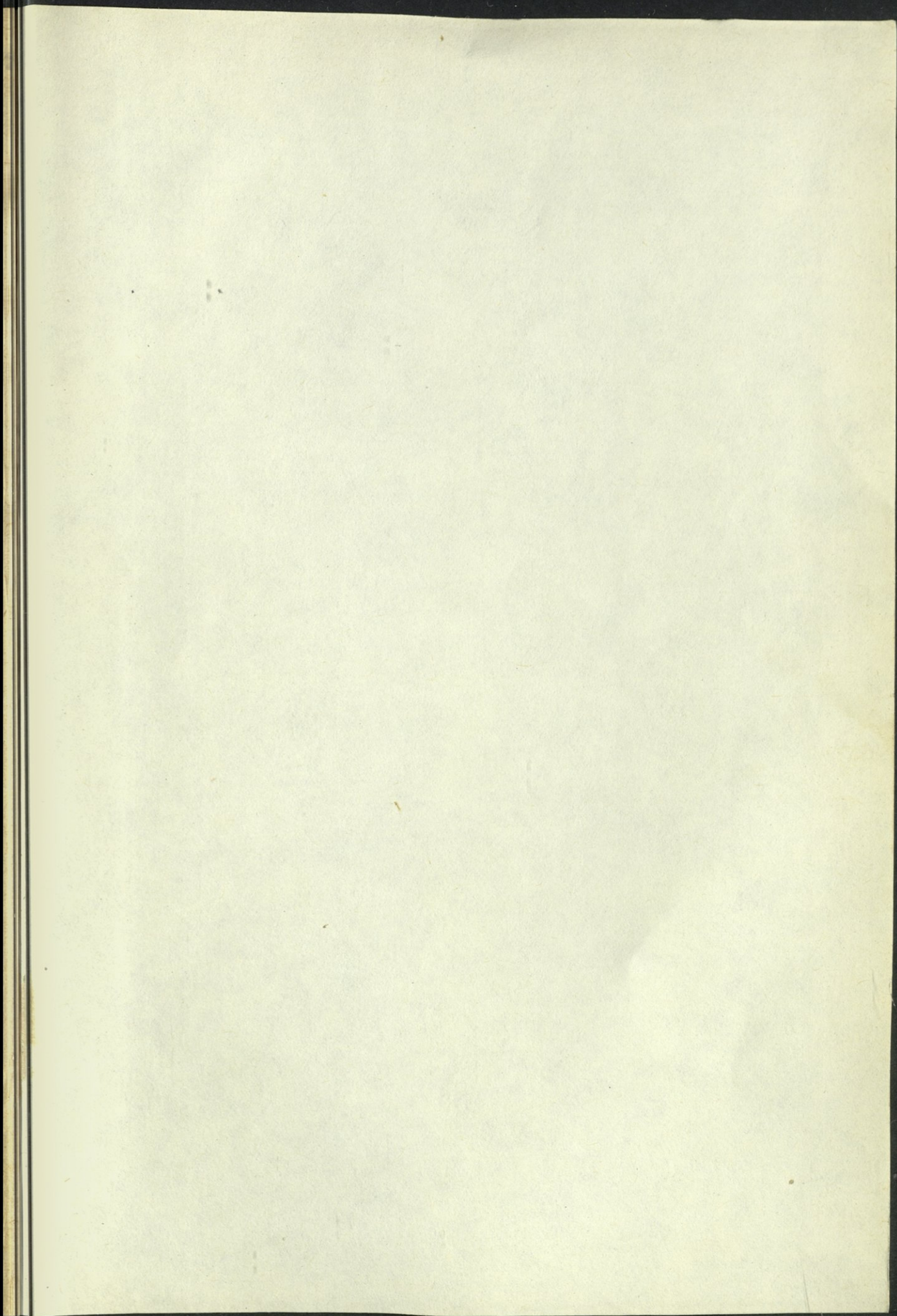


A U. B. LIBRARY









الجمعية المصرية للدراسات النفسية

150
A94pA

علم النفس

تدريماً وحديثاً

تأليف
فرنسيس إيتلنج

ترجمة

عطيّة محمود هيتا

مدرس علم النفس المساعد
بمعهد التربية بالقاهرة

محمد عماد الدين اسماعيل

مدرس علم النفس المساعد
بمعهد التربية بالقاهرة

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

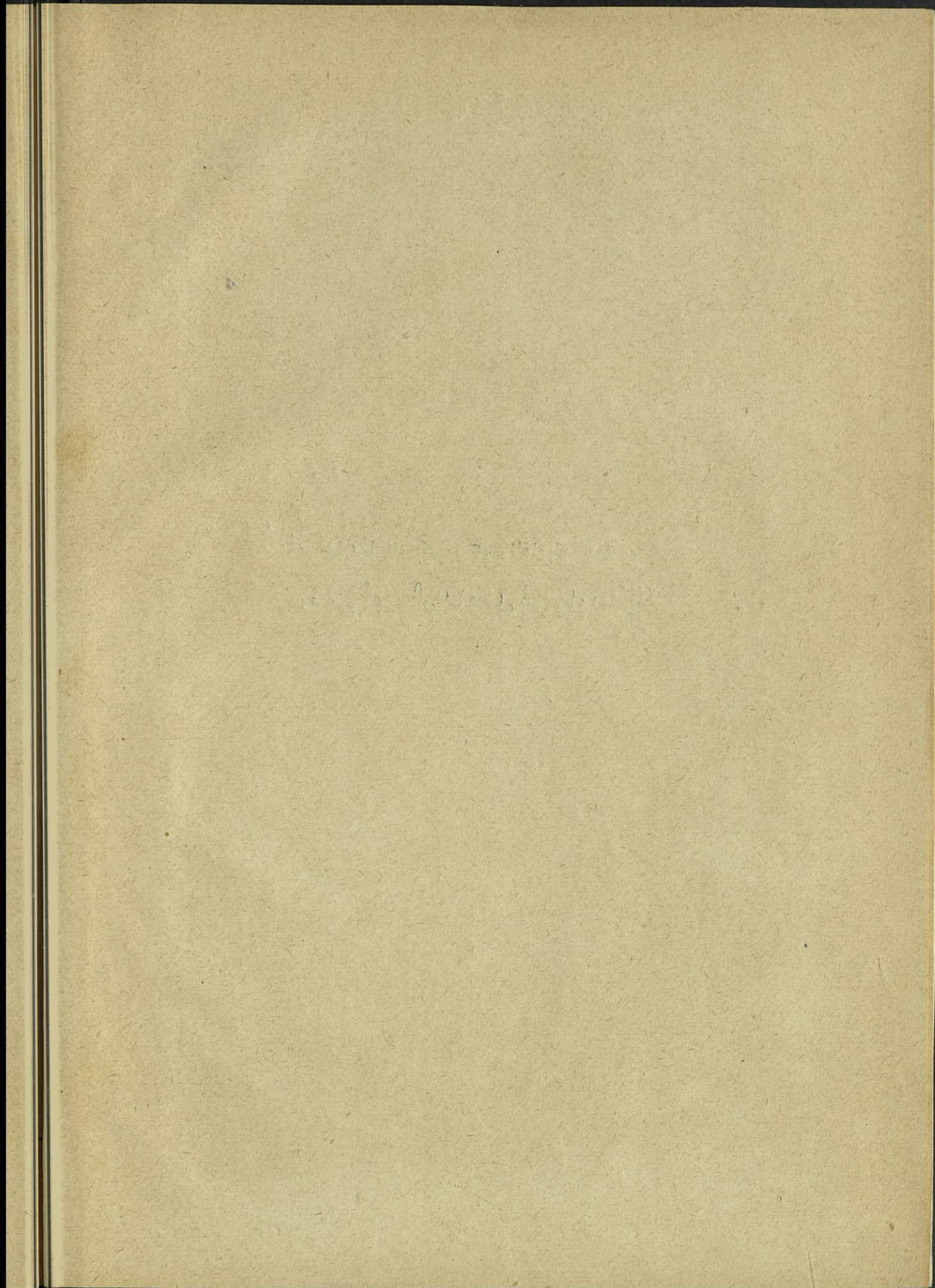
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

١٩٤٩

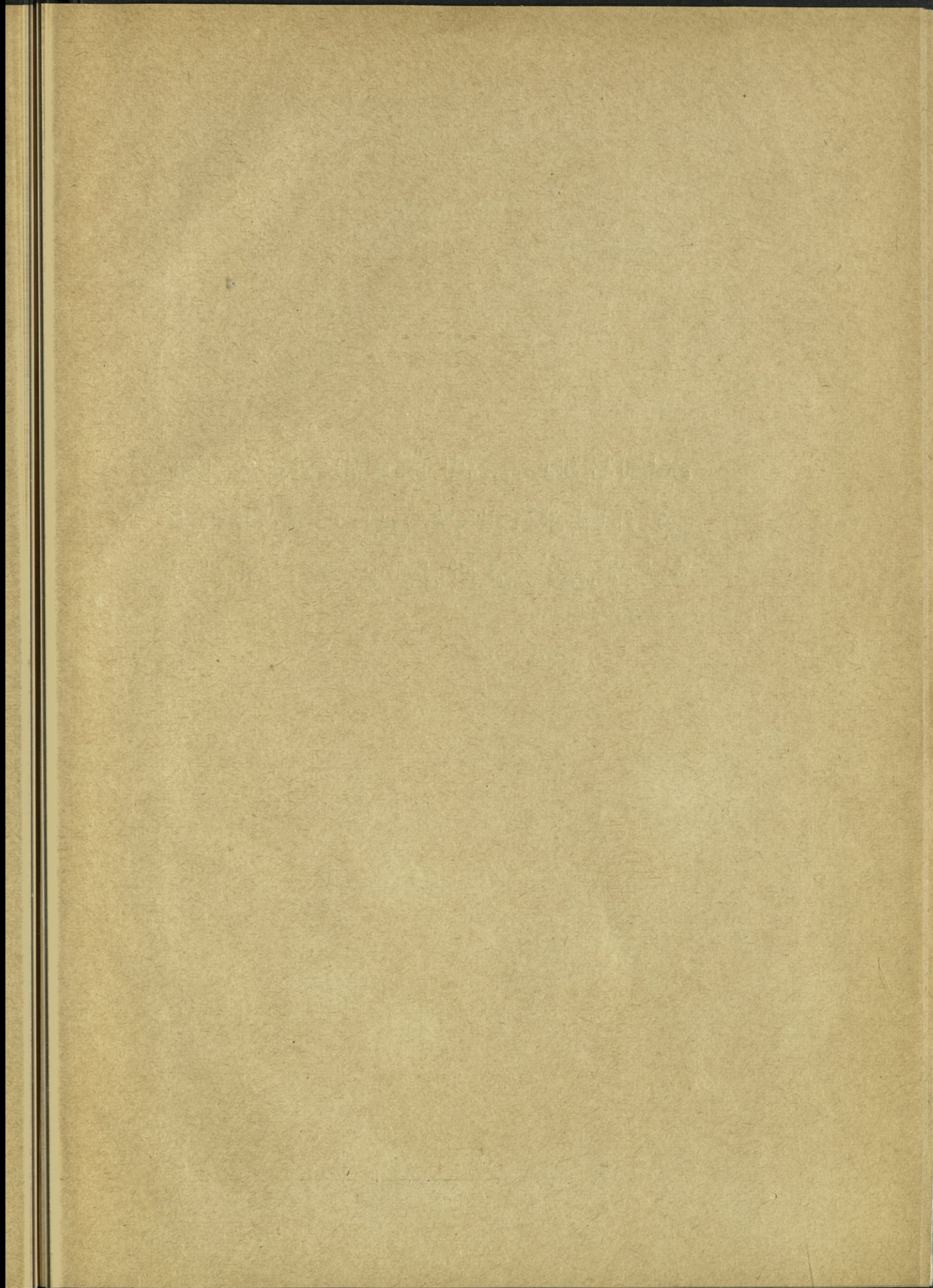


100
100
100

الى أستاذنا الدكتور عبد العزيز القوصي
نمرة من شجرة طاه له فضل غرسها وانماها



تفضل حضرة الأستاذ أحمد على المدرس بمعهد التربية للمعلمين
فقرأ هذا الكتاب وأبدى ملاحظات كان لها أثر كبير
في إخراجه ، فله منا أجمل الشكر وأطيب الشاء ؟
المرحمان



تقديم

إنه لمن دواعي السعادة أن تقدم الجمعية المصرية للدراسات النفسية كتابها الثالث ، واسمه « علم النفس قديماً وحديثاً » .

أما الكتاب الأول ، فقد كان عن الذكاء ومقاييسه ، وقد قدّمه لمكتبة الجمعية حضرة الأستاذ عطية محمود هنا . وهو كتاب جمع كل ما يراد معرفته في موضوع الذكاء ، من حيث فهم مجهوله ومختلف نظرياته ، ومن حيث طرائق قياسه . وقد جمع فوق هذا خلاصة أحدث البحوث العلمية في هذا الموضوع الهام . وقد دل الأستاذ عطية محمود هنا باختياره هذا الكتاب ، وبحسن ترجمته له على إلمام بالموضوع ودقة في فهم دقائقه ، كما دل على نظرة اجتماعية ، فاختر الموضوع الذي يجد تطبيقاً مباشراً في التوجيه الاجتماعي بصفة عامة ، وفي التوجيهين التعليمي والمهني بصفة خاصة .

أما الكتاب الثاني ، فقد قدّمه للجمعية حضرة الأستاذ أحمد زكي محمد وسماه « مبادئ علم النفس التعليمي » . وقد عرض فيه الأسس النفسية التي يمكن المدرس أن يبني عمله عليها ، وقد عرض لها في سهولة ويسر وإحكام مما يجعل الكتاب سهل التناول عظيم الفائدة .

أما الكتاب الثالث ، فهو كتاب عزيز على نفسي حقاً ، وقد قدّمه الأستاذ عطية محمود هنا ، والأستاذ محمد عماد الدين اسماعيل ، واسم الكتاب « علم النفس قديماً وحديثاً » . والكتاب عزيز على نفسي ، لأن مؤلفه المرحوم

الأستاذ « ايقلنج » ، كان أستاذاً في جامعة لندن ، وكنت أستمع لمحاضراته في كلية الملك . ولم يكن « ايقلنج » من الأساتذة الذين يميل كسالى الطلاب إلى الاستماع لهم ، ذلك لأنه كان غزيراً في علمه ، مركزاً في مادته ، عميقاً في تأملاته ، دقيقاً في منطقته . وكان فوق هذا شديداً في معاملته نفسه ، وفي معاملته تلاميذه . فترى من هذا أن « ايقلنج » كانت له شخصية رهيبية تملئ عليك احترامها وتقديرها . وكانت محاضراته صورة من شخصيته .

غير أن الكتاب الذي بين أيدينا يمثل جانباً مما لمسناه من شخصية « ايقلنج » ولا يمثل الجانب الآخر . فالكتاب على شموله وعمقه ودقته تجده قليل الصفحات ، سلس الأسلوب ، ينساب فيه المؤلف من فكرة إلى أخرى انسياباً المتمكن من نفسه تمكناً منقطع النظير . فتجد المؤلف يبدأ نظريته إلى الموضوع من أقدم عهود الفلسفة : فبدأ بالمشكلات التي قابلت قدامى فلاسفة اليونان ، وانتقل من هذه العهود السحيقة إنتقالاً ماهراً حتى وصل إلى الوقت الحاضر . وما كاد يصل إلى النظريات الحديثة ، حتى عاجلها جميعاً علاجاً يتميز بالسهولة وشمول العرض بصورة منقطعة النظير . فعرض لمذهب الجشتالات ، ومذهب التحليل النفسي ، والمذهب الغرضي ، ومذهب السلوكيين ، ثم وقف من هذه المذاهب جميعاً موقف من يريد التوفيق بينها ، ثم انتقل بعد ذلك إلى تطبيق علم النفس كما يراه في المستقبل . وبهذا أمكنه أن ينظر إلى علم النفس في ضوء ماضيه ، وأن ما يتنبأ له بمستقبله في ضوء كل من الحاضر والماضي .

وإني لا يسعني إلا أن أسوق تهنئة وتقديراً لحضرتي الأستاذين اللذين قاما باختيار هذا المؤلف ، ثم قاما بترجمته ترجمة تدل على ثقة شديدة بأنفسهم . فان عملاً كهذا لا يقبل عليه إلا الراسخون في العلم ، المتمكنون من أنفسهم أيما

تمكن . وقد أعجبني أن جاءت ترجمة هذا الكتاب ، ولا يمكن أن تشعر معها بأنها ترجمة . فقد جاءت عبارات الكتاب سهلة سلسلة تناسب انسياها طبيعيا رشيقا . وإن دل هذا على شيء فاعلم يدل على بصيرة بعلم النفس ، وعلى حسن تقدير وتميز بين غشه وثمينه . وهذه نقطة أحب أن أؤكد لها ، لأن هذا العلم بماله من جاذبية وحدائث ، قد وفد عليه الوافدون من كل مكان يحاضرون ويؤلفون فيه . وامتزج في هذا الكثير من الغث بالقليل من الثمين . وكانت النتيجة أن امتلأت السوق بال مؤلفات في هذا العلم ، وبينها غث كثير ، وقد أدى هذا إلى صعوبة التمييز بين القيم وغير القيم من المكتوب في علم النفس ، وبهذا أصبح ذلك النوع من التمييز مقدرة يتمتع بها القليلون . ويسرني أن أقول أن الأستاذين من أولئك القليلين الذين يتمتعون بهذه المقدرة النادرة .

وكلمة أخيرة بشأن هذا الكتاب ، هي أنني طالما اشتقت إلى ترجمته ، ولكن كثرة مشاغلي أجلت القيام بهذا العمل . وكان من أسعد أوقاتي أن أراه مترجما على يدي حضرتي الأستاذين ، وأن أراه ضمن مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات النفسية . وكان اختيار عنوان هذا الكتاب اختياراً موفقاً ، كان من حظي أن أساهم فيه ، وأشعر أن العنوان « علم النفس قديماً وحديثاً » يجمع بين دقة المعنى ، وجمال الجرس .

والأستاذان المترجمان يتمتعان بخبرة عملية ونظرية تتصف بالعمق والاتساع ، فبالإضافة إلى مايقومان به من تدريس ، فإن لهما خبرة واسعة في العيادة السيكولوجية ، وفي مكتب الخدمة الاجتماعية ، وفي معمل علم النفس ، ولهما فوق ذلك بحوث أصيلة في الأسس السيكولوجية للتوجيه التعليمي في مختلف بواحيه . وبذلك نأمل أن يؤديا خدمة جليلة للتعليم في مصر بحسب تنظيمه الجديد .

وأختم هذه الكلمة بأن أشكر للأستاذين تدعيمهما للمكتبة العربية
في علم النفس بصفة عامة ، وتدعيمهما لمكتبة الجمعية المصرية للدراسات النفسية
بصفة خاصة .

وأسأل الله أن ينفع الأمة العربية بمؤلفاتهما ومؤلفات هذه الجمعية .

معهد التربية في أول يونية سنة ١٩٤٩

عبد العزيز القوصي

رئيس الجمعية المصرية

للدراسات النفسية

المـدخـل

إن من أهم الصعوبات التي تواجه من يضع كتاباً مختصراً من هذا النوع ، صعوبة اختيار موضوعات قليلة ، من مادة غزيرة جداً ، يمكن أن تقدم للقارىء مع تعريفه في الوقت نفسه بمرکز علم النفس في الوقت الحاضر . ولا يزعم المؤلف أنه قد قدم أكثر من موجز عام ، مازل في حاجة إلى تفصيل أكبر . ويستطيع القارىء أن يجد هذا التفصيل في المؤلفات المطولة التي كتبها العلماء الذين وضعوا النظريات السيكلوجية ، وطبقوها على المشكلات العملية .

ولكن إذا لم يكن كتاب « علم النفس قديماً وحديثاً »^(١) سوى موجز عام ، فإنني آمل أن يبين ، على الأقل ، الأوجه المتعددة للنشاط العظيم الذي يعم الآن جميع نواحي هذا العلم ، وأن يوضح أيضاً مدى الجهود التي يبذلها الآن أصحاب وجهات النظر المختلفة في علم النفس ، في مواجهة المشكلات السيكلوجية ، ومتابعة حلولهم لها . وسيرى القارىء - حتى من هذا العرض الموجز - أن هناك شيئاً غير قليل من التداخل والخلط أحياناً ، وشيئاً من التناقض أحياناً أخرى ، بين النظريات التي اتجهت كل منها وجهة مختلفة .

ولم يحاول المؤلف أن ينقد هذه النظريات بالتفصيل ، كما أنه لم يحاول أن يبين ما بينها من أوجه الاتفاق إلا بصورة بسيطة ، قليلة التعمق . ولا بد أن نذكر أن علم النفس بحسب المقاييس العلمية ، لا يزال في مرحلة الانتقال ، ولم تثبت قدمه بعد ، وعلى ذلك فإنه من التعجل وسبق الحوادث أن نحاول التنبؤ بصورة نهائية عما يمكن أن يصل إليه هذا العلم الناشئ . ومن ناحية أخرى ، نرى لزوماً

(١) العنوان الأصلي للكتاب هو Psychology: The Changing Outlook

علينا أن نذكر أن بعض نظرياته ، قد صمد لكل نقد ، وثبت أنه صحيح .
أما البعض الآخر ، فقد نجح تطبيقه - كما سنرى - في نواح عملية أو نفعية
معينة ؛ إذ أن تطبيقات علم النفس النظرى على مشكلات التربية ، والطب ،
والصناعة بوجه خاص ، قد نجحت نجاحاً كبيراً في كثير من الحالات . وإذا
كان النجاح في التطبيق محكاً لصدق النظريات العلمية ، فإن بعض هذه
النظريات سيثبت جدارته بالبقاء في أى علم نفس متكامل متمسك الأجزاء
في المستقبل .

المؤلف

نظرة الى الماضي

ORILLAS

الفصل الأول

الدراسات النفسية القديمة - ١

بدأ علم النفس يجتذب إليه انتباه جمهرة الناس بشكل واضح ، في السنوات الأخيرة فقط . ولم يكن اهتمامهم هذا ناشئاً عن ازدهاره السريع كعلم من علوم الحياة ، بقدر ما كان نتيجة لظهور بعض نظرياته التي كانت شديدة الجاذبية ، أو لما قام به بشكل مشير للحساس ، في ميدان الطب وميدان الشواذ . هذا إلى أنه قد ظهر في هذه السنوات الأخيرة ، من الاكتشافات العلمية ، أكثر مما ظهر في أى وقت مضى ؛ وقد مكن ذلك علم النفس من أن يشق طريقه قدماً ، فيصبح علماً يمكن أن يطبق تطبيقاً عملياً ، على كثير من مشكلات الحياة الواقعية الهامة ، بدلاً من أن يظل تابعاً للفلسفة النظرية كواحد من فصولها .

ورغم أن علم النفس لم يخط خطواته الواسعة إلا في السنوات الأخيرة ، فهو علم قديم جداً . إذ أن له تاريخاً يرجع إلى بداية التفكير الفلسفي تقريباً . فهناك شواهد تدل على أن الناس حتى فيما قبل التاريخ ، قد اعتقدوا معتقدات تتعلق بأنفسهم وبمصائرهم مما لا يمكن أن نلتمس له إلا أصلاً سيكولوجياً . ذلك هو علم النفس القديم الذى أفسح الطريق الآن لعلم النفس الحديث . أو تلك بمعنى أوضح هى الدراسات النفسية القديمة التى تتابعت على مر القرون ، والتى تركت مكانها الآن ، لا ليحتله علم واحد جديد متفق عليه ، بل ليحل فيه عدد من المحاولات التى ترمى إلى وضع علم جديد قائم بذاته .

وقد يكون من المستحسن — لكي نفهم مكانة الدراسات السيكولوجية في الوقت الحاضر، وتطبيقها على الأمور العملية في الحياة اليومية — أن نلقى نظرة إلى الوراء على ذلك الطريق الطويل الذي قطعته هذه الدراسات في أثناء تحولها من فرع من فروع الفلسفة النظرية، إلى أن أصبحت علماً تجريبياً مستقلاً من علوم الحياة. وليس من الضروري أن نذرع الطريق كله من أوله إلى آخره، بل يكفي أن نمر على أهم معالمه، وأن نسجل في ضوءها ما حدث من تقدم.

الأصول الأولى لعلم النفس

بدأ علم النفس — باعتباره جزءاً من الفلسفة — وسط خليط من التخمينات والتأملات التي كانت تتجه لفهم طبيعة الوجود والإنسان. ومن هذا الخليط، أخذت بعض المشكلات تتحدد شيئاً فشيئاً على يد المفكرين الأقدمين.

فلقد عنى الفلاسفة أولاً بتفسير العالم الذي حولهم أكثر من عنايتهم بفهم أنفسهم، أو بكيفية معرفتهم لهذا العالم، أو بقيمة هذه المعرفة، أو بالطرق التي يتبعونها في التفكير والشعور والعمل. فمثل هذه المشكلات النفسية لم تلاحظ أو توضع على بساط البحث إلا في مرحلة متأخرة. ولكنها كانت على أية حال آخذة في الظهور في ذلك الوقت. ذلك أن المشكلات التي تتعلق بالعالم المادي كانت تتضمن أسئلة عن الطرق التي تدرك بها هذه الأشياء، فمن الواضح أننا ندرك هذه الأشياء بحواسنا. ولكنهم لاحظوا قديماً أن ما ندركه بهذه الطريقة يكون في الواقع في حالة تغير وحركة باستمرار، فهو يتحول من حال إلى أخرى حتى في أثناء اللحظة التي تدركه فيها. إلا أننا مع ذلك نعرف هذه الأشياء كما لو كانت ثابتة غير متغيرة، وإلا

لما استطعنا البتة أن نميزها ونصنفها. فالرجل مثلاً يولد، وينمو، ويعيش مدة من الزمن، ثم يموت. ولكن ما ندركه من المعنى لكلمة «رجل» لا يتغير في جوهره، ولا يتأثر بظروف الزمان والمكان. فهو دائماً. وما يصدق هنا يصدق أيضاً على جميع الأشياء الأخرى التي لا تقابل في الطبيعة إلا صوراً عابرة لها. هل هناك إذن عالمان أحدهما متغير وموجود في زمن محدد وغير دائم والآخر ثابت دائم؟ أم أن هناك طريقتين لمعرفة عالم واحد بالذات؟ إن هناك مشكلة أمام عالم النفس على أية حال وهي: كيف نعرف الأشياء التي لا تقع في مجال حواسنا؟ وكيف نكون فكرة ثابتة غير متغيرة من عالم تتغير فيه الأشياء تغيراً مستمراً.

ثم إن الفلاسفة الأقدمين لم يعنوا فقط بمشكلات العالم المادى. فلم يمر وقت طويل حتى شغفوا أيضاً بالمشكلات الأخلاقية. وقد أدى بهم ذلك إلى دراسة الأفعال الإنسانية، والدوافع التي تدفع الناس إلى السبل التي يسلكونها. وكما أن مشكلة المعرفة التي أدت إلى إثارة مشكلة القوى الإدراكية عند الإنسان قد نشأت عند محاولة تفسير طبيعة الأشياء المادية، فإن مشكلة الأفعال الأخلاقية التي أثارت في نهاية الأمر مشكلات تتعلق بقوى الفعل عند الإنسان قد نشأت كذلك في سياق مناقشة ما للقوانين من قوة إلزامية. فكما تساءل الناس عما إذا كان هناك شيء ثابت دائم تمكن معرفته وسط هذه التغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي، كذلك تساءلوا عما إذا كان هناك قانون أخلاقى ثابت غير متغير ينبغي الخضوع له في ذاته دون غيره من القوانين الوضعية المختلفة للدول المختلفة، ودون غيره من قوانين الدولة الواحدة التي تتغير من وقت لآخر.

وحيث أن القوانين التي هي من عمل الإنسان تتغير تبعاً لحاجاتنا الطارئة المتغيرة، فمن شأنها أن تشير التساؤل عما إذا كان لها الحق في أن تلزمنا

الخضوع لها. وإذا كان لها مثل هذا الحق ، فإن السؤال التالي يكون : من أين لها هذا الحق ؟ . وعلى أى شىء يستند ؟ . ومثل هذه الأسئلة تتضمن مشكلة الارادة الانسانية ، فى جبرها أو حريتها ، فى طاعة القوانين أو مخالفتها . هاتان المشكلتان الرئيسيتان اللتان تتعلقان بالطبيعة والقانون تتضمنان بالفعل مجموعة كبيرة جدا من المسائل السيكلوجية . منها : مسائل الاحساس ، والادراك الحسى ، والفهم ، والشعور ، والانفعال ، والارادة . تلك المسائل التى بدأ يناقشها الفلاسفة أول الأمر كما لو كانوا يفعلون ذلك بطريقة عرضية ، وعن طريق المصادفة ، ثم ناقشوها بعد ذلك مناقشة صريحة مقصودة .

أرسطو (١)

وفى أيام أرسطو نجد مذهباً يكاد يكون تاماً فى علم النفس ، وذلك فى فى الكتب الخنامية ، من مجموعة كتبه عن العالم الطبيعى ، وفى ما كتبه عن

(١) يعتبر أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) أعظم فلاسفة العصور القديمة على الإطلاق ، وتعتبر مؤلفاته دائرة معارف تمتاز بغزارة المادة العلمية ودقة التحليل وموضوعية الأحكام . أما كتبه التى تبحث فى علم النفس فهى : « فى النفس » ، و « الطبيعيات الصغرى » . والأخير منها مكون من ثمانية كتب صغيرة هى : الحس والمحسوس ، والتذكر والتذكر ، والنوم واليقظة ، وتعبير الرؤيا فى الأحلام ، وطول العمر وقصره ، والحياة والموت ، والتنفس ، والشباب والهرم .

ويجب علينا أن نشير إلى أن أرسطو سبق الكثير من المحدثين فى آرائهم فى علم النفس ونذكر من آرائه على سبيل المثال ، رأيه فى الانفعال ، وأنه لا يصدر عن النفس وحدها أو الجسم وحده ، بل يصدر عن الكائن الحى بأكمله . ونظراته هذه أصدق مما اتجهت له نظرية جيمس ولانج . ومما اتجهت إليه مدرسة السلوكيين .

(المترجمان)

الموضوعات الأخلاقية . ومن الأمور التي يجدر الالتفات إليها بوجه خاص ، إدماج علم النفس في علم الطبيعة ، إذ أن هذا يشير إلى نظرية فلسفية عامة طبقها أرسطو على كل من العمليات الطبيعية والعقلية ^(١) . وقد قال بهذه النظرية لتفسير إمكان حدوث التغير ، أيا كان في الأشياء الطبيعية ، وكذلك لتفسير اختلاف الأنواع المتعددة من الأشياء ، بعضها عن بعض ، في طبيعتها ، وفي خواصها ، وقد تتضح هذه النظرية أكثر من ذلك عن طريق الأمثلة .

المادة والصورة

إذا فرضنا أن خزافاً أخذ قطعة من الصلصال ، وصاغها على شكل آنية أو مصباح ، فإن هذا لا يتأتى إلا إذا توفر له الصلصال والصورة التي سيحولها إليها . وإذا غرضنا النظر عن كل من الخراف الذي يصنع الآنية ، وعن الهدف الذي يرمى إليه ، فإن الصلصال والصورة معاً يكونان الاناء أو المصباح . والصلصال نفسه قابل لأن يتشكل بشكل المصباح أو الاناء ، لأن من الممكن أن يأخذ شكل كل منهما بدوره . كما أن الشكل أو الصورة هي التي تجعل من الصلصال مصباحاً أو إناء ، بالرغم من أنه لا يمكن أن يوجد الصلصال وحده دون شكل أو صورة ما . وبالمثل لا يمكن أن توجد الصورة وحدها قائمة بذاتها ، إذ يجب أن تتحقق في جزء من المادة . أي في قطعة من الصلصال ، أو البرونز أو الزجاج بحسب الظروف . ومع هذا فإن من الواضح أنه بصرف النظر عن الخصائص التي تتعلق بطبيعة المادة المستعملة في صنع الشيء فإن جميع خصائص

(١) انظر فصل الجشتالت ، فقرة علم الطبيعة وعلم الحياة وعلم النفس .

الإناء كإناء ، والمصباح كمصباح تستمد من الصورة التي صاغه فيها الخراف .
حتى إننا إذا ما عرفنا حقيقة صور مثل هذه الأشياء من قبل ، كما يعرف
المهندس تصميم البناء ، فإننا نستطيع أن نستنتج من هذه الحقيقة خصائص
الأشياء .

والمثل الذي أتينا به مثل بسيط جدا . فتحليل المصباح أو الاناء إلى مادة
اعتبارية عامة ، وإلى شكل معين محدود في كل حالة أمر واضح للغاية . ومعروف
أن عمل الخراف ليس إلا عملا فنيا ، وأنه إنما يجريه على مادة موجودة بالفعل
من قبل .

إلا أن كلا من المثل والتحليل يمكن أن يستخدم عن طريق التمثيل لشرح
الفروق الجوهرية الملحوظة بين الأشياء الطبيعية في العالم الطبيعي . فإذا ما تصورنا
مادة أصلية غير معينة إطلاقا ، ولا شكل لها ألبتة ، وفكرة شكلية ، أو صورة
تعين لهذه المادة أن تكون شيئا من نوع معين ، فإننا نصل إلى فكرة الصورة
التي تحدد طبيعة هذا الشيء وتكونها . وإذا ما تعمقنا بمعرفتنا إلى الدرجة التي
نصل بها إلى حقيقة الصورة نفسها ، فإننا نستطيع حينئذ أن نستنتج
ونستخرج خصائص وصفات الشيء الطبيعي منها . ومن الواضح على كل
حال ، أننا لا نعرف طبيعة هذه الصورة معرفة مباشرة ، بل إننا نستنتجها
من ملاحظة أنواع النشاط الذي تقوم به الأشياء الطبيعية المتعددة التي تشترك
في صورة واحدة .

الحياة والنفس

وتتضمن هذه الأشياء الطبيعية ، الكائنات الحية من نبات وحيوان

وإنسان . وفيما يتعلق بهذه الكائنات ، فإن الصورة التي تجعل منها ما هي عليه تسمى النفس . وهذه الصورة النفسية هي التي تفسر لنا جميع الوظائف الحيوية لتلك الكائنات . ونستطيع عن طريق دراسة أنواع النشاط المختلفة التي نلاحظها في المستويات المختلفة من الحياة النباتية والحيوانية والانسانية أن نصل إلى معرفة طبائع النفس في درجاتها المختلفة . وبالرغم من أن هذه النظرة نظرة ميتافيزيقية ، إلا أنه يلاحظ أن طريقة الدراسة طريقة تجريبية ، أي طريقة العلوم الطبيعية . وأنها تعتمد كلية على ملاحظة التشابه والاختلاف والتغير .

و باتباع هذه الطريقة قسم أرسطو الصور النفسية إلى نامية وحاسة وناطقة ، وتستطيع كل منها بدورها أن تقوم بالوظائف التي لسابقتها إلى جانب وظائفها الخاصة . فبفضل النفس النامية يستطيع الكائن الحي أن يتمثل الغذاء وينمو ويتوالد . ويقوم الحيوان الذي يتمتع بالنفس الحاسة بهذه الوظائف إلى جانب وظائف الإحساس والإدراك الحسي والتخيل والأحكام القائمة على الحس والتذكر والرغبة والقدرة على الحركة . وإن كان من الواجب ألا نفترض أن جميع الحيوانات تتمتع بأنصبة متساوية في امتلاك هذه المقدرات من حيث المدى أو من حيث الدرجة . أما النفس الإنسانية فإنها تقوم بجميع الوظائف السابقة ، وزيادة على ذلك فإن الإنسان عنده القدرة على التفكير ، أي التفكير التصوري الذي يجعل من الممكن أن تنشأ رغبة عن ترو وتفكير ، أو عن ميل عقلي ، أو عن إرادة إنسانية حقة .

ويرمى أرسطو — كما رأينا — إلى كشف طبائع النفوس على أساس القوى المختلفة أو العمليات المختلفة للكائنات الحية « ذات النفوس » . وبما أن هذه النفوس ليست سوى صور تجعل من مقدار معين من المادة الأولى ما هي عليه ، لذلك ينعدم الوجود الواقعي للنفس تمام الانعدام ، عند موت الكائن الحي ،

وذلك كما ينعدم شكل الإناء عندما يقع فينكسر. إلا أن هناك استثناء واحداً
ممكناً ، بالرغم من أن أرسطو في هذه النقطة غامض كل الغموض ، و بالرغم من أن
الذين حاولوا أن يفسروه مختلفون فيما بينهم . هذا الاستثناء هو النفس الانسانية
في مظهرها الفريد باعتبارها نشاطاً فكرياً خالصاً . فكما أننا نتقبل في المعرفة
الحسية صور الأشياء أو أشكالها دون مادتها (كما يتقبل الشمع شكل الختم أو
ينطبع به دون مادته نفسها) ، كذلك نجد أن العقل المنفعل يتقبل الصور
المجردة الكلية التي هي موضوعات العقل الأصلية . ولكن بينما توجد
الأشياء الجزئية في الـكون الذي حولنا ، وتؤثر فينا ، نجد أن الأفكار المجردة
الكلية لا توجد . فكيف إذن يتأثر بها العقل ؟ يجيب أرسطو على هذا السؤال
بأن يفترض وجود قوة فعالة للعقل تعمل في الآثار الحسية أو الصور ، لكي تنتج
صورة معقولة أو مؤثراً عقلياً . وهذه القوة الفعالة تطبع العقل ^(١) الذي يستجيب
بأن يدرك المجرد والكل . ولكن ماهو ذلك العقل الفعال ؟ هل هو ملكة
للنفس الفردية أم هو شيء خارجي قائم بذاته يشترك فيه جميع الناس ؟ إن أرسطو
يجعل العقل الفعال مستقلاً عن الجسم ذا وجود سابق للولادة ، وخالد بعد الموت ،
بينما يعتبر أن قوى الحس والذاكرة بل والعقل المنفعل — كل هذه — تولد
وتفنى مع الجسم . ولكن هل يعتبر هذا الخلود جزئياً أو كلياً ؟ الواقع أن ذلك
لا يزال مجالاً للمناقشة .

(١) من الطريف أن نذكر أن نظرية أرسطو فيما يتعلق بالعقل والطريقة التي
يعمل بها قد ظلت تنتقل خلال العصور المتعاقبة في أساليب اللغة العادية . (المؤلف)
المقصود هنا اللغة الانجليزية بالطبع ، وإن كان هذا يتفق أيضاً مع ماهو موجود
في اللغة العربية كما في قولنا « انطبع هذا في ذهني » . (المترجمان)

توما الاقوينى (١)

يمكن أن يقال إن علم النفس على الصورة الفلسفية اليونانية قد وصل إلى أوج كماله على يد أرسطو . ولقد انتشرت معظم تعاليمه أثناء العصور الوسطى وتداولها العلماء في الفلسفة الإسلامية والمدرسية . وقد ظل المسلمون ، وكذلك المدرسيون يعنون بالمشكلات الميتافيزيقية ، وطبيعة النفس الإنسانية ، ومصير الإنسان ، كما نثر الفريقان بالتيارات الفكرية — كالأفلاطونية — التي كانت تستمد من مصادر أخرى غير كتابات أرسطو . وإن ما ظهر في الفلسفة المدرسية في القرن الثالث عشر ، وصل إلى أوجه في فلسفة «توما الاقوينى» الذي تشكلت على يديه نظريات أرسطو السيكلوجية بصورة فذة . ويسترعى انتباهنا في هذا المجال نقط عدة : أولها أن توما إذ طبق نظرية أرسطو في أنه لا يوجد في الطبيعة سوى الأشياء الجزئية ، فقد استنتج أن الفرد ليس شيئاً واحداً . أى أنه ليس نفساً مضافة إلى جسم ، بل هو « كائن نفسى » من نوع خاص . وكذلك سلم مع أرسطو بأن التفكير يتضمن عملية من طبيعة غير مادية لا يشترك فيها الجسم ، من حيث هو جسم ، إلا إلى الحد الذى يوفر فيه مادة التفكير . وبالتالي فقد استنتج أن ذلك يتضمن الخلود بعد الموت . إلا أنه يقرر الخلود الشخصى بوضوح ، ذلك أنه يعتبر العقل الفعال كالعقل المنفصل قوة ذاتية للنفس . ومن ذلك يستنتج أن النفس الفردية ذاتها هي التى تخلد بعد موت الجسم .

(١) Thomas Aquinas ولد سنة ١٢٢٥ م بالقرب من نابلى وتعلم فى جامعتهما وفى جامعة باريس حيث تتلمذ للقديس البرتس الأكبر ثم قام بالتدريس فى جامعة باريس وروما ثم انقطع عن التعليم والكتابة وتفرغ للعبادة ومات سنة ١٢٧٤ م .
(المترجمان)

وبينما كان الاهتمام — كما رأينا — في علم النفس خلال هذه القرون العديدة مركزاً حول مشكلات معينة كمشكلة ماهية الإنسان وتكوينه ونفسه ومصيره في المستقبل ، فإن الفلسفة التي بنيت حول هذه المشكلات كانت تعتمد على الملاحظات التجريبية ، وتحليل عمليات عقلية من النوع الذي يصعب مناله . ولقد كان ذلك نتيجة طبيعية للمبدأ القائل بأن معرفة طبيعة الشيء لا يمكن أن تكتسب إلا عن طريق دراسة نشاطه عن كثب . وقد اكتشف كل من أرسطو وتوما في دراستهما للنشاط النفسى والنشاط الجسمى للإنسان مجموعة كبيرة من الحقائق السيكلوجية ، ووضعاً لها تفسيرات لا تزال موجودة ضمن الدراسات العلمية في علم النفس الحالى .

مراجع (١)

- Windleband, A History of Philosophy, London, 1907.
M. de Wulf, History of Mediaeval Philosophy (tr. Coffey), London, 1909.
G.S. Brett, A History of Psychology, London, 1902.

- (١) ويمكننا أن نضيف مراجع أخرى باللغة العربية وهى :
تاريخ الفلسفة اليونانية تأليف يوسف كرم (لجنة التأليف والترجمة والنشر
سنة ١٩٣٦)
وتاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط تأليف يوسف كرم (دار الكاتب
المصرى سنة ١٩٤٦)
وسلسلة كتب الفكر اليونانى تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوى (مكتبة
النهضة المصرية سنة ١٩٤٣)
وقصة الفلسفة اليونانية تأليف أحمد أمين وزكى نجيب محمود (لجنة التأليف
والترجمة والنشر سنة ١٩٣٥)
(المترجمان)

الفصل الثاني

الدراسات النفسية القديمة - ٢

ديكارت والمذهب العقلي

والخطوة التالية التي علينا أن نلاحظها هي تعاليم الفيلسوف « رينيه ديكارت »^(١) في القرن السابع عشر . فلقد عارض « ديكارت » التقاليد الأرسطية والمدرسية القديمة ، فاعضاً بعلم النفس إلى درجة أرقى . وذلك عن طريق البحث في نقد قيمة المعرفة . وكانت نقطة البدء عنده هي الشك المنهجي العام . فقد تساءل : أليس من الأفضل أن نشك في كل شيء ، لنكشف عما إذا كان هناك شيء لا يمكن بحق أن نشك فيه ، مادام أن الكثير من الأفكار غير يقيني وأن الكثير مما نعتقد في صحته يتضح فسادها فيما بعد ؟ . وقد اكتشف فيلسوفنا ،

(١) René Descartes فيلسوف فرنسي مشهور ولد سنة ١٥٩٦ ومات سنة ١٦٥٠ . يعرف بأبي الفلسفة الحديثة . تعلم في كلية لافليش اليسوعية وقضى جزءاً من حياته في الجيش والرحلات ثم كرس حياته للفلسفة والكتابة ، ومات في السويد وكان قد ذهب إلى هناك بناء على دعوة الملكة كريستينا التي أرادت أن تتلمذ على يديه .
أهم كتبه :

مقال عن المنهج (ترجمه محمود محمد الحضيرى) وتأملات في الفلسفة الأولى ،
مبادئ الفلسفة ، رسالة في انفعالات النفس .

(المترجمان)

باتباعه هذا المنهج في الشك ، ما اعتبره بعيداً عن متناول أى شك . وقد عبر عن ذلك بقضيته المشهورة «أنا أفكر ، إذن فأنا موجود» . وقد اعتبر هذه القضية واضحة بذاتها لا تحتاج إل تدليل . ويمكن إدراكها بدرجة من الوضوح والتميز بحيث لا يعترىها الشك بأى حال . ومن هذه الحقيقة الأولى انتقل «ديكارت» إلى استنتاج المبدأ بأن كل شىء يكون صادقاً إذا ما كان فى مثل درجة الوضوح والتميز التى نجدها فى إدراك الشعور بالذات . وزيادة على ذلك فقد أقام على هذا المبدأ — عن طريق ما يسميه بالبرهان الهندسى — أحد أدلته على وجود الله . فقد قال : إنا إذا ما امتحننا فكرتنا عن الله لوجدنا أنها فكرة عن أكمل الكائنات ولا بد أن كماله هذا يتضمن وجوداً بالفعل . وعلى ذلك فالله موجود . ومن كماله وحكمته نستمد الثقة بالعقل الإنسانى . وقد توصل «ديكارت» عن طريق هذه الحلقة المفرغة من الاستدلال إلى إثبات وجوب الثقة بحواسنا إذا ما أنبأنا بوجود العالم الخارجى الذى يظهر أن جوهره هو الامتداد .

الجسم والنفس

لقد كان من الضرورى أن نورد هذا العرض الموجز لمذهب «ديكارت» حتى نفهم سيكولوجيته ، إذ أن ذلك يقودنا إلى نظريته الشنائية التى تقول بوجود النفس ، أو الذات التى تدرك إدراكاً مباشراً بالبداهة كشىء مفكر ، والمادة ، التى نعرفها بالاستنتاج كشىء ممتد . وجوهر الأولى هو التفكير فى حين أن جوهر الثانية هو الامتداد . وعلى ذلك فالنفس والمادة ليستا متضادتين فقط ، بل إن التقابل بينهما بحيث يجعلهما لا يشتركان فى شىء . وهذا التقابل يفصل علم النفس عن علم وظائف الأعضاء فصلاً نهائياً . فبدلاً من أن نعتبر الكائن النفسى

- أى الإنسان - وحدة نفسية مادية ، أو عقلية جسمية ، لا بد من دراسة جميع أنواع نشاطه وأفعاله ، أصبح من الواجب أن نعتبره كائناً ثنائياً . وبذلك تنشأ مشكلة العلاقة بين النفس والجسم ، وهى المشكلة العويصة التى أعضل حلها الفلاسفة إلى اليوم .

وقد حل ديكارت هذه المشكلة ، بأن بين أن العلاقة بين النفس والجسم علاقة تفاعل من نوع آلى ، مركزة فى الغدة الصنوبرية فى المخ . فالجسم الخى يعمل على نحو آلى محض ، فننتقل الآثار الحسية بوساطة سائل خفيف جداً (وهو الذى يسمى بالأرواح الحيوانية) إلى هذه الغدة ، ومنها تنتقل كمحركات إلى العضلات فتخرج فى شكل حركة . وفيما يتعلق بالحيوانات الدنيا فإن هذا هو التفسير الكامل الوحيد لحركتها ، فليس لدى الحيوانات وعى باحساساتها ، بل إنها تستجيب فقط تلك الاستجابة الآلية الشبيهة باستجابة الآلة للمؤثر . أما فى حالة الإنسان فإن حركات الأرواح الحيوانية تثير عند دخولها الغدة الصنوبرية شعوراً أو انفعالا . كما أن نشاط النفس الذى يسبب حركات الجسم عن طريق نفس نقطة الاتصال ، يحدث فى صورة أفعال نفسية . وتدخل هذه الأفعال والانفعالات تحت ما نسميه بالأفكار التى تتضمن الإحساس والتخيل والتفكير والانفعال والارادة .

وقد كان أثر هذه النعاليك الديكارتية عميقا ، ليس فقط فى التفكير الفلسفى فى عصره وفى العصور التالية ، بل كذلك فى تفكير العامة . وكما أن كثيراً من اصطلاحات أرسطو والفلسفة المدرسية قد دخل فى لغة الثقافة العامية واستمر باقيا إلى اليوم ، كذلك اندمجت هذه الثنائيات من العقل والجسم فى مجموعة الأفكار التى يتقبلها الإدراك العادى . وبالرغم من الأبحاث الجديدة المعترف بها والتى

أدخلها « ديكارت » على العلوم الطبيعية والرياضية فان طريقته القياسية قد حالت بينه وبين معالجة علم النفس إلا كفرع من فروع الفلسفة ، مما دعا إلى تأخر هذا العلم في طريقه للوصول إلى مصاف العلوم الطبيعية .

جون لوك والمذهب التجريبي

وفي نفس الوقت الذي كان ديكارت يضع فيه نظريته ، كان « جون لوك »^(١) زعيم المدرسة الإنجليزية في علم النفس يؤسس حركة تجريبية شاملة فقد أخذ « لوك » على عاتقه أثناء اشتغاله بوضع نظريته في المعرفة ، أن يقوم بتحليل خبرتنا تحليلًا نقديًا ، أرجع فيه كل معرفة إلى أصولها من الإحساسات - أي إدراك الظواهر الخارجية - من ناحية ، والتفكير - أي إدراك الأفعال الداخلية للعقل نفسه - من ناحية أخرى . وتعتمد الأفكار المركبة التي تتكون عن طريق الفهم أثناء عملية التكرار والمقارنة والربط ، على الأفكار البسيطة التي يقدمها الإحساس والتفكير إلى العقل الذي يتقبلها بطريقة سلبية .

وأهمية لوك بالنسبة لعلم النفس ترجع إلى أنه أخرج نظريته هذه على أساس

(١) John Locke (١٦٣٢ - ١٧١٤) فيلسوف إنجليزي درس في أكسفورد اللاهوت والفلسفة المدرسية ثم العلوم الطبيعية وسافر إلى القارة الأوروبية حيث اطلع على الفلسفة الديكارتية وأخيراً استقر في وطنه .
أهم كتبه : مقال في العقل البشري ، أفكار في التربية ، خطاب في التسامح الديني ، رسالتان في الحكومة المدنية .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أنه في آرائه التربوية يدعو إلى تحرير الطفل من سلطان الكنيسة والحكومة ، وإلى إحلال اللغات الحديثه محل اللغات القديمة (المترجمان)

تجريبي . وزيادة على ذلك فانه بالرغم من تأكيده الوجود المستقل للتجارب الداخلية كمصدر للأفكار ، أى معالجته للنشاط الفكرى للعقل ، بأضيق معانيه ، باعتبار أنه شىء غير مادى ومستقل عن الجسم ، نقول بالرغم من ذلك فانه اعتبر أن هذه الأنواع من النشاط لا بد وأن تعتمد على الإحساسات التى تعتمد بدورها على نشاط أعضاء الجسم . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تحول علم النفس على يد أتباعه إلى مذهب حسى كامل أصبح فيه العقل أو الوعى مجموعة إحساسات تتجمع بأشكال مختلفة.

ومنذ ذلك الوقت أخذ علم النفس العلمى ينفصل عن علم النفس الفلسفى ويتخذ أهمية خاصة ، ولو أنه كان فى معظمه وصفيًا أكثر منه تفسيريًا . ويمكن أن نقول باختصار : إن طريقى الفكر المشتقين من المذهب العقلى عند ديكارت والمذهب التجريبي عند لوك قد تطورا فى اتجاهين مختلفين ، أحدهما يحاول أن يحل مشكلة العقل والجسم بأن يرجع المادة إلى العقل ، والآخر على العكس يحاول أن يحلها بأن يرجع العقل إلى المادة .

دافيد هيوم والمذهب الحسى والمذهب الترابطى

إلا أن « هيوم »^(١) فى القرن الثامن عشر وضع المشكلة حلاً جديداً . فأنكر

(١) David Hume (١٧١١ — ١٧٧٦) فيلسوف انجليزى درس فى إحدى جامعات فرنسا ، والتحق بالسلك السياسى واتصل بجان جاك روسو ، وكتب فى الفلسفة والسياسة والتاريخ والقانون والأخلاق والاقتصاد .
أهم كتبه : بحث فى العقل البشرى ، مبادئ الأخلاق ، محاورات فى الديانة الطبيعية .
(الترجمان)

7

الوجود الحقيقي لكل من المادة والعقل بكل بساطة . فالعقل عنده مكون من آثار (وهى الإحساسات والأفكار عند لوك ، أى ما نشعر به عندما نرى ونسمع ونرغب ونحب وما إلى ذلك) ، ومن أفكاره عبارة عن صور ضعيفة لهذه الآثار وزيادة على ذلك فإن القوانين التى تتصل على أساسها أفكارنا هى قوانين الترابط عن طريق التشابه ، والتلازم فى المكان والزمان ، والعلمية . وجميع هذه الأنواع من الترابط مشتقة من الآثار الأولية ذاتها . وعلى ذلك لم يعد العقل شيئاً « أكثر من مجموعة من الإدراكات المختلفة متحدة معاً عن طريق علاقات معينة نظن خطأ أنها بسيطة لا تتغير » .

ولقد كان إنكار هيوم لأى وجود للعقل خلاف ما قال به ، وكذلك كان مذهب معاصره « هارتلى »^(١) ، الذى فسر جميع العمليات العقلية بأنها ترجع إلى « ذبذبات » فى الجهاز العصبى ، كان هذا كله أساساً للمذهب الحسى - أو الترابطى ، أى علم النفس التقليدى الذى ذاع فى الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر . وقد وضّح هذا المنهج السيكلوجى الذى لم يعترف بمكونات للشعور سوى الإحساسات والأفكار والترابط بينها ككتاب آخرون

(١) David Hartley (١٧٠٥ - ١٧٥٧) يعتبر مؤسس علم النفس

الترابطى ، وقد كان له تأثير كبير على المدرسة النفعية فى الأخلاق ومن أشهر أتباعها بنتام ، وجيمس ميل ، وجون ستيوارت ميل .

ومن مؤلفاته : ملاحظات عن الانسان (نشر سنة ١٧٤٩) .

(المترجمان)

مثل « بين »^(١) في هذه البلاد (انجلترا) و « تين »^(٢) في فرنسا . وبقي حتى بداية القرن الحالى حين قامت ضده ثورة عامة من جميع علماء النفس ، وذلك لعقمه المطلق ، وعدم كفايته في تفسير الظواهر النفسية .

علم النفس التجريبي

وبينا كانت المدرسة الارتباطية التي بدأها هيوم وهارتلى تنمو وتزدهر ، إذا بالتفكير يتخذ طريقة أخرى أخذت تظهر معالمها وتوضح حتى أدت أخيراً إلى تدعيم علم النفس باعتباره علماً تجريبياً . فقد ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر رغبة « هربارت »^(٣) في تطبيق الرياضيات على الحقائق السيكلوجية . فحاول أن يشرح

(١) Alexander Bain (١٨١٨ - ١٩٠٣) فيلسوف انجليزي تجريبي تخصص في دراسة علم النفس واهتم بدراسة الناحية الفسيولوجية منه ، وهو من أنصار نظرية الموازنة بين الظواهر النفسية والظواهر الجسمية . أكد الناحية النزوعية من النفس أكثر من غيرها .

وأهم كتبه : الحواس والعقل ، الانفعالات والارادة . (المترجمان)

(٢) Taine (١٨٢٨ - ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ وناقد فرنسي .

أهم كتبه : في الذكاء (المترجمان)

(٣) Johann Friedrich Herbart (١٧٧٦ - ١٨٤١) فيلسوف وعالم من علماء النفس والتربية الألمان . أقام نظريته التربوية على أساس علم النفس ، وقد أنكر وجود قوى عقلية فطرية وذهب إلى أن العقل ليس سوى مجموعة صور ذهنية ارتبطت فيما بينها . وأدى هذا إلى أن أصبحت مهمة التربية =

ستاتيكية وديناميكية الأفكار داخل إطار المذهب الارتباطي . وعلى الرغم من أن محاولته كانت فاشلة إلا أنه كان على كل حال ممهداً « لقبر »^(١) و « فشنر »^(٢) و « فونت » الذين لقي تطبيق الرياضيات على علم النفس نجاحاً كبيراً على أيديهم . فقد أقام « فبر » مثلاً علاقة بين الاحساسات التي هي من نوع واحد ، والتي يمكن تمييز الواحد منها عن الآخر باعتباره أقوى أو أضعف ، وبين قوة المنير الذي يشيرها . وقد تمكن فشنر بمتابعته لأبحاثه أن يصوغ القانون القائل بأن نسبة هذه الاحساسات إلى مؤثراتها كنسبة متوالية حسابية إلى متوالية هندسية .

== هي تقديم مواد مختارة يعمل المربون على ربطها فيما بينها بطريقة واحدة هي الطريقة التي عرفت باسمه والتي تتضمن خطوات خمس هي التمهيد والعرض والاستنتاج والربط والتطبيق .

وأهم مؤلفاته : مختصر علم النفس Textbook of Psychology

وعلم النفس باعتباره علماً Psychology as Science . (المترجمان)

(١) Weber (١٧٩٥ - ١٨٧٨) من علماء النفس الذين أقاموه على أساس تجريبي وقد اهتم بدراسة حاسة اللمس وأثبت أنها تتضمن عدة حواس مختلفة مثل الضغط والحرارة والألم ، ووضع قانونه المشهور عن إدراك الفروق بين المدركات الحسية وأنها لا تتوقف على الفرق المطلق بل على النسبة بين المدركين الحسيين ، وأن إدراك هذه الفروق يختلف من فرد إلى آخر .

وأهم مؤلفاته : في اللمس De Tactu (المترجمان)

(٢) Fechner (١٨٠١ - ١٨٨٧) اهتم بمتابعة أبحاث فبر وصاغ قانونه

في صورته الرياضية المشهورة وهي أن شدة الاحساس تتناسب مع لوغاريتم المؤثر .

وأهم مؤلفاته : أصول علم النفس الفسيولوجي The Elements of Psychophysics

(المترجمان)

(أى إذا فرضنا أن شدة الاحساسات تزداد كمتوالية حسابية فان شدة مؤثراتها على التوالى تزداد كمتوالية هندسية). وهذه محاولة لقياس الظواهر السيكولوجية بالرجوع إلى تدرج فيزيقي ، وإقامة علاقة رياضية بين علم النفس وعلم الطبيعة . إلا أن ذلك القياس النفسى لم يكن يحقق أى غرض عملى هام كما كان يزعم ، وإن المحاولة نفسها مثيرة للاهتمام من الناحية النظرية . ولم تطبق الرياضيات فى صورة المنهج الاحصائى تطبيقاً مضمراً على المشكلات السيكولوجية إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إذا استثنينا من ذلك قياس العتبات^(١) .

٢) عتبات

وأخر معالم الطريق الموصلة من علم النفس الفلسفى إلى علم النفس العلمى ، هو

(١) هناك نوعان من العتبات :

أ - العتبة المطلقة Absolute Threshold وهى الدرجة التى إذا قل عنها المؤثر الحسى ينعدم تأثيره على المدرك .

ب - العتبة الفارقة Differential Threshold وهى المقدار الذى يجب أن يزيده المؤثر الحسى حتى يشعر المدرك بوجود اختلاف فى الإحساس . (المترجمان)

(٢) Wundt (١٨٣٢ - ١٩٢٠) عالم المانى درس الطب والفلسفة فى ليبزج وبرلين وعين أستاذاً فى جامعة ليبزج ١٨٧٤ حيث أنشأ أول معمل لعلم النفس سنة ١٨٧٩ - وقد كان هذا المعمل كعبة حج إليه الكثير من علماء النفس ومنهم كاتل Cattell الذى نقل الفكرة إلى أمريكا ومنهم كذلك ستانلى هول وتتشير وسيرمان .

أهم مؤلفاته : مبادئ علم النفس الفسيولوجى Principles of Physiological Psychology ، المنطق Logic ، الاخلاق Ethics .

تأسيس أول معمل لعلم النفس التجريبي سنة ١٨٩٧ على يدي ولهم ثونت .
حقا لقد كان يجري الكثير من العمل المتعلق بالمشكلات النفسية حينئذ في
معامل الطبيعة والفسولوجيا ، إلا أن الاهتمام فيه كان منصبا على الناحية الجسمية
والفسولوجية لا على الناحية النفسية . ولكن منذ هذا التاريخ أصبح علم النفس
لأول مرة علما تجريبيا مستقلا بكل ما في الكلمة من معنى .

ومما هو جدير بالملاحظة زيادة على ذلك ، آراء ثونت فيما يتعلق بمجال
العلم وطريقته بوجه عام . ففي رأيه أن علم النفس يقوم على التجارب ، ولكن هذه
التجارب لا تنقسم كما يرى لوك إلى داخلية وخارجية ، بل تؤخذ بقيمتها الظاهرية .
وليس من الضروري أن تكون إما جسمية أو عقلية ، إذ ليس لدينا من الطرق
ما نستطيع به أن نقرر ما إذا كان أساسها فسيولوجيا أم مستقلا عن الظروف
الفسولوجية . وعلى ذلك فإن العالم النفسى قد يستعمل أى وسيلة ، بل كل وسيلة
ممكنة لدراسة التجارب دون تمييز لآى رأى سابق في المنهج . فقد يستخدم التأمل
الباطنى في بعض الحالات ، وقد يدرس الظروف الفسيولوجية في حالات أخرى ،
وعليه أن يلاحظ السلوك ويفسره ، كما أن عليه أن يفحص حياة الأطفال والحيوان ،
بل قد لا يكون أمامه طرقا أخرى للبحث في بعض النواحي سوى طريقة دراسة المنتجات
العقلية في اللغة والخرافات والفن والدين وما إليها . ففي رأى ثونت إذن أن
طريقة دراسة علم النفس في الواقع طريقة مركبة ، وهى عبارة عن اتباع أية خطة
للبحث يرجى من ورائها الوصول إلى نتائج .

ولقد كان أثر ثونت عظيما في تقدم علم النفس الحالى ، فقد تبع تأسيس
معمله بسرعة تأسيس معامل أخرى حينما كان علم النفس يدرس دراسة علمية ،
أو كان في طريقه إلى ذلك . ولقد كان محصول هذه المعامل عظيما منذ ذلك الحين .

وزيادة على ذلك فإن تأكيده لعدم التحيز بالنسبة لطريقة بالذات ، فتح مجالات عدة للبحث . ولقد غزا علماء النفس هذه المجالات بسرعة يشهد بها اليوم ما لعلم النفس من ثراء . ولو أن هذا كان سبباً في زيادة التخصص زيادة كبيرة ، وكذلك في مظهر الخلاف بين المتخصصين ، إلا أنه كان ذا فائدة عظيمة لذلك العلم الفتي الذي لا يزال ينمو . إذ أنه بالرغم من أن الكثير من النتائج التي توصلوا إليها محتاج دون شك إلى مراجعة ، بل وقد لا تستحق إلا الرفض ، فإن نتائج أخرى كثيرة قد دعمت تدعياً قوياً وصمدت للامتحار العملي أى لا يمكن تطبيقها على الشؤون العملية للحياة اليومية الواقعية .

مراجع (١)

- G. S. Brett, A History of Psychology. London, 1912.
G. Murphy, An Historical Introduction to Modern Psychology.
London, 1929.
J. C. Flugel, A Hundred Years of Psychology, London, 1933.

(١) ويمكننا أن نضيف إلى هذه المراجع الكتب العربية الآتية :

«ديكارت» تأليف الدكتور عثمان أمين ، القاهرة سنة ١٩٤٢

و«مقال عن المنهج» تأليف ديكارت وترجمة محمود محمد الحفيري سنة ١٩٣٠

(الترجمين)

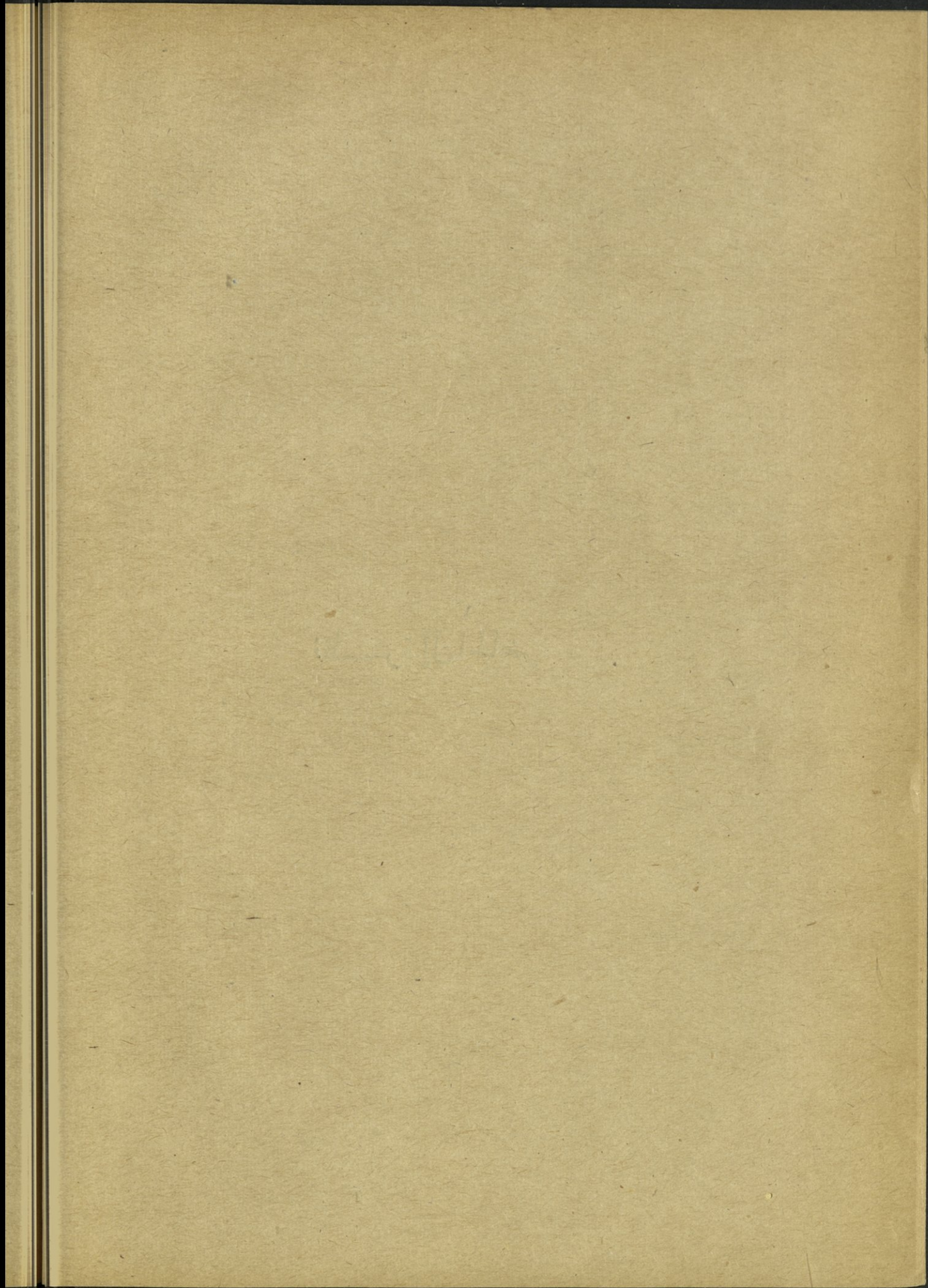
1870
The first of the year
was a very dry one
and the crops were
very poor. The
winter was also very
dry and the crops
were very poor.

The second of the year
was a very wet one
and the crops were
very good. The
winter was also very
wet and the crops
were very good.

The third of the year
was a very dry one
and the crops were
very poor. The
winter was also very
dry and the crops
were very poor.

(1870)

نظرة إلى الحاضر



الفصل الثالث

نشأة المعرفة (١)

إن من ينظر إلى التغيرات التي اعترت علم النفس خلال القرن الحالى ، يرى الانحلال التدريجى الذى أصاب المذهب القديم ، وهو المذهب الحسى ، أو مذهب العناصر ، أو المذهب الترابطى . ويرى إنكار ذلك المذهب إنكاراً تاماً يدل عليه انقسام علماء النفس إلى جماعات أخذت على عاتقها البحث عن طرق ونظريات أجدى وأحدث . فقد بدأ بعض علماء النفس المبرزين ، بعد أن تحققوا من نقص النظريات القديمة التى تشرح السلوك الإنسانى على أساس الإحساسات والأفكار والمشاعر ونزعتها إلى الظهور على شكل أفعال ، بدءوا يدخلون نظريات جديدة وتفسيرات أخرى . ولكن التقاليد الأكاديمية كانت لاتزال قوية جداً بالنسبة للذين تربوا فى حماها . فاستمرت نظرياتها تدير جنباً إلى جنب مع النظريات الجديدة . وعلى ذلك كانت « الأشياء المدركة بالعقل » وكذلك « الذات المدركة » لاتزال تفسر على أنها ليست أكثر من مركبات من الإحساسات الأولية ، والأفكار التى تثيرها هذه الإحساسات . كما أن نظرية « الفعل الشئىء عن الفكرة المحركة » (أى أن الأفكار تميل إلى

(١) Noegenesis كلمة اصطنعها سييرمان لتدل على نظريته الجديدة ، وهى مأخوذة من كلمتين يونانيتين الأولى بمعنى أعرف ، والثانية بمعنى نشأة أو أصل . وهو يعبر بهذه الكلمة عن العملية التى تنشأ بها المعرفة الجديدة فى عقل الانسان . وفى هذا الفصل شرح كامل للنظرية . (المترجمان)

إلى إحداث الحركات) ، كانت لا تزال تفسر اعتقادنا الوهمي في الإرادة الإنسانية ،
والعملية في مجال النفسية . وإذا كنا سننظر إلى النفس على أنها ليست أكثر من
مجموعة ما تحتويه (أى مجموعة من الآثار والأفكار) ، وإذا كان القانون الوحيد
للمعاملات الظواهر النفسية هو قانون الترابط ، فإن هذا المنهج في علم النفس لا يصبح له أى
معنى بدون الرجوع إلى العمليات الفسيولوجية في الجسم ، وبخاصة العصبية منها .
أى أن هذا المنهج كان فى الأصل تابعا « لمذهب الظواهر العرضية » (١) أو
النظرية التى تقول إن الأفعال النفسية ليست سوى نتائج عارضة للأفعال الجسمية
وذلك على أساس ميكانيكى مادي صرف . وزيادة على ذلك فإن علم
النفس المبني على المذهب الترابطى لم يكن من الممكن تطبيقه على المشكلات
العادية فى الحياة اليومية ، إذا استثنينا من ذلك الفائدة العملية التى يمكن اكتسابها

(١) Epiphenomenalism وهو أحد المذاهب التى تفسر العلاقة بين النفس
والجسم ، ومنها أيضا :

أ - « مذهب الموازنة بين الظواهر النفسية والظواهر الجسمية » - Psycho-physi-
cal Parallelism وهو مذهب يرى أنصاره أن كلا من هذه الظواهر يختلف عن
الآخر ولا يسببه ولا ينشأ عنه . بل سيران متوازيين متواقيين دون أى تفاعل بينهما .
ب - « مذهب الموازنة العرضية بين الظواهر النفسية والجسمية » - Phenomena-
listic parallelism ويفترض وجود حقيقة غير معروفة وراء كل من الظواهر
النفسية والظواهر الجسمية ، هى السبب فى حدوثهما ، أى أنهما مظاهر لحقيقة واحدة
ج - « مذهب الوحدة الروحية » Psychological Monism يرى أن الظواهر الجسمية
تنشأ عن الظواهر النفسية .

د - « مذهب التفاعل بين الظواهر النفسية والظواهر الجسمية » - Psycho-physi-
cal Interactionism ويفترض وجود تفاعل متبادل بين الظواهر النفسية الجسمية
بحيث يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به .
(المترجمان)

عند تطبيقه على التذكر واكتساب المهارات الجسمية . ولذا كان هذا المذهب
عقياً ولم يؤد إلى شيء . بل إن هذه النظريات القديمة نفسها قد عاقت تقدم
النظريات التي وضعت حديثاً لتفسير الظواهر . أما إذا كن علم النفس قد أفاد
حينئذ من الناحية العملية فقد اتضح أخيراً أن ذلك كان على الرغم من النظريات
القديمة إلى حد كبير . ومع ذلك ، فإننا نجد قبيل أواخر القرن التاسع عشر أن
تطور الطريقة الاستبطانية (التجريبية) ^(١) إلى أسسها قوت ، قد ساعد
على إلقاء ضوء جديد قوى على الطريقة التي تعمل بها النفس بالفعل في العمليات
العليا في التفكير والحكم والارادة . فلقد كشف هذا العمل عن وجود « التفكير
الخالي من الصور » و « النزعات الإيجابية الموجهة » و « الاتجاهات العقلية » التي
كانت تفسر ما يحدث بشكل يفوق ما كان يفعله مذهب العناصر والمذهب
الترابطي ، بالرغم من أن هذه الظواهر ليست من عناصر الشعور بالمعنى الذي
كانت تفهم به الآثار والأفكار القديمة . ومع هذا فإن نتائج هذا التقدم لم تظهر
مرة واحدة في علم النفس المنظم ، بل إنها على العكس من ذلك قوبلت بمعارضة
شديدة . فعلى الرغم من الهجوم الذي وجه إلى المذهب الترابطي التقليدي ، والذي
هدم الجزء الأكبر منه بالفعل ، فإن هذا المذهب قد بقي قائماً ^(٢) مع أنه لم يكن
قابلاً للتطبيق المثمر على المشكلات الحيوية كما سبق القول .

(١) قامت بذلك مدرسة فورتزبورج Wurzburg

(٢) سنعالج هذا التطور في فصل قادم عند الكلام على المذهب السلوكي وذلك

حتى يكون العرض منسجماً .

المشكلات العملية

ولما كانت المشكلات العملية الملحة التي لا يمكن معالجتها إلا بمساعدة علم النفس قد أخذت في الظهور في نواح عدة ، فلذا أخذت النظرية السائدة في الاضمحلال شيئا فشيئا ، وأخذ العلماء في اكتشاف طرق تجريبية لمواجهة مثل هذه المشكلات . وقد حدث هذا أولا في ميادين التربية والطب على الأخص ، ولكن الحركة سرعان ما امتدت إلى الميادين الأخرى ، كميداني الصناعة والتجارة ، كما بدأنا نشعر بأهميتها كذلك في ميادين القانون والإجرام، والاقتصاد والسياسة ، إذ أن الطرق التجريبية أمدت العلماء بمادة لنظريات يمكن تطبيقها تطبيقا عاما . وأن ما تم بالفعل في هذه الاتجاهات يبين أن هذا العلم يمكن أن يطبق بنجاح في أى مشكلة تكون النفس الإنسانية عاملا من عواملها . وستكون الفرصة سانحة لنا في هذا الفصل والفصول التالية . لبحث بعض الأمثلة التي تتعلق بحل المشكلات العملية بوساطة هذه الطرق مع الإشارة في الوقت نفسه إلى بعض النظريات الهامة التي ظهرت مرتبطة بها . ومن هذه الأمثلة البارزة اكتشاف طريقة لقياس الذكاء **كان** لها نتائج بعيدة المدى في اتجاهات عدة ^(١) .

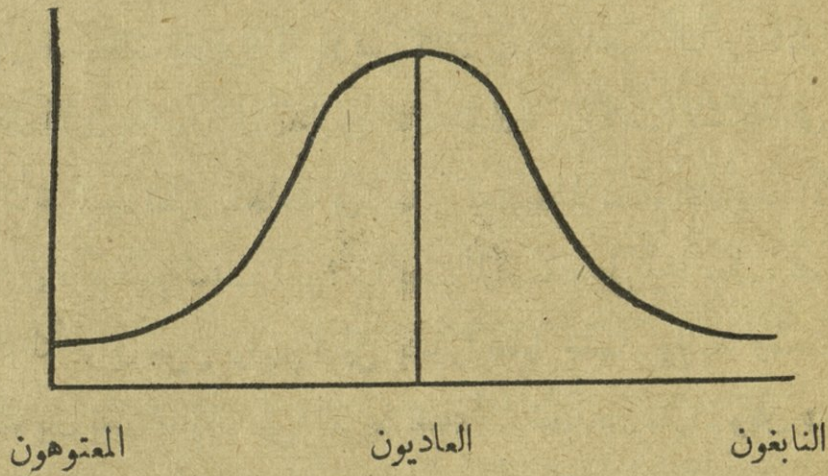
قياس الذكاء

أيقن الناس منذ زمن بعيد أن الأفراد يختلفون الواحد عن الآخر إلى حد

(١) انظر فيما يتعلق باختبارات الذكاء كتاب The Nations Intelligence

تأليف J.L. Gray.

كبير في المقدرة العقلية . ولقد وضع « سير فرانسس جولتن »^(١) في كتابه :
« العبقرية الوراثية » سلماً يشمل جميع درجات الذكاء موزعة ابتداء من العته إلى
النبوغ الفذ . وقد افترض وجود « منحنى للتوزيع العياري »^(٢) تكون فيه درجات
الذكاء متصلة . فيقع القليل من الأفراد في النهايات في حين تتجمع الأغلبية حول
القمة الوسطى كما هو مبين في الرسم التالي :



(١) Francis Galton ١٨٢٢-١٩١١ ويشتهر في تاريخ علم النفس بالمنهج
التي وضعها للبحث في مختلف الظواهر النفسية وبأنه من أوائل من استخدموا القياس
في علم النفس وابتدع الكثير من الطرق الاحصائية كمعامل الارتباط ، وطريقة
استخدام الأوساط ، وغير ذلك .

أهم كتبه : العبقرية الوراثية Hereditary Genius

والوراثة الطبيعية Natural Inheritance

وابحاث في الملكة الانسانية Inquiries into Human Faculty

(٢) Normal Distributive Curve وهو الشكل الذي يشبه الناقوس ولهذا

يسمى أحيانا بالمنحنى الناقوسي Bell shaped Curve ويمثل توزيع الصفات الموجودة
في عالم الاحياء، فإذا أخذنا أطوال الناس مثلاً، أو أوزانهم، أو ذكاءهم، فإن كل صفة من =

وفضلاً عن هذا فإن العلماء قد بذلوا كثيراً من الجهد في العيادات
السيكلوجية وغيرها لاختبار القدرات العقلية الخاصة بسرعة الرجوع ، ودقة
الاحساس ، والذاكرة .

ولكن في بداية هذا القرن فقط قامت محاولة مقصودة لقياس القدرة العقلية
العامة ، وكانت هذه المحاولة نتيجة لمشكلة عملية وضعها المربون أمام علم النفس ،
ذلك أن السلطات التربوية في باريس كانت مهتمة بظاهرة التأخر عند بعض
الأطفال الذين يذهبون إلى المدارس التابعة للبلدية . وكانت المشكلة هي : هل
هذا التأخر نتيجة للطرق الخاطئة في التعليم ، أم نتيجة لانعدام القدرة عند الأطفال
التأخرين ، أم نتيجة لسبب آخر ؟ . اتجهت الرغبة ، على أية حال ، نحو عزل
أولئك المتأخرين عن إخوانهم لكي يتعلموا تعليماً خاصاً . ولقد وضعت هذه
المشكلة بين يدي العالم النفسى «الفريد بنيه»^(١) بقصد دراستها ، وكان «بينيه»

= هذه الصفات تتوزع حسب هذا المنحنى ، أى أن يكون المتوسطون في هذه الصفة
حوالى ٠/٠٠٠ من المجموعة ، والمتفوقون حوالى ٠/٠٢٠ ، والمتأخرون حوالى ٠/٠٢٠ .
ويشترط لكي نحصل على هذا المنحنى أن نقيس عدداً كبيراً من الأشخاص يمثلون
مجموعة متجانسة إلى حد ما .
(المترجمان)

(١) Alfred Binet ولد في نيس سنة ١٨٥٧ ، ودرس العلوم في باريس ، ونال درجة
الدكتوراه عام ١٨٩٤ ، واشتغل في معمل علم النفس الفسيولوجى في السوربون .
أهم أعماله وضعه مقياس الذكاء بالاشتراك مع الدكتور سيمون Simon ، وهو
المقياس الذى اشتهر في العالم أجمع والذي ترجم إلى كثير من اللغات وأدخلت عليه
تعديلات مختلفة . وأصدر مجلة « السنة السيكلوجية L'Année Psychologique »
سنة ١٨٩٥ =

قد ألف قياس القدرات الخاصة من قبل ، فقد سبق أن وضع مثل هذه الاختبارات لقياس القدرات الخاصة واستمر في تطبيقها فترة من الزمن . فلما عهد إليه جيفنثد بوضع اختبارات لقياس القدرة العامة ، افترض أن الأطفال العاديين في أى سن معينة لا بد وأن يصلوا إلى مستوى خاص من النمو العقلي ، بصرف النظر عن المعلومات التي يتلقونها في المدرسة . فوضع عددا من الاختبارات البسيطة لقياس هذه المستويات . في كل سن وجربها على عدد من المختبرين . وبذلك أمكنه أن يقنن اختبارات ، إذا ما طبقها على أى طفل ، أمكنه أن يحدد بها عمره العقلي ، بصرف النظر عن عمره الزمني . ولم تكن هذه الاختبارات من نوع الامتحانات الشككية ، إذ أنها لم تعتمد على ما تعلمه الطفل في المدرسة ، بل على ما ينتظر أن يكون قد التقطه أثناء حياته اليومية فقط . وعلى هذا لم تكن هذه الاختبارات لامتحان المعلومات ، بقدر ما كانت لامتحان القدرة على استخدام هذه المعلومات . ولقد كان بينيه ممن يسمون « بعلماء نفس الملاكات »^(١) أى أنه كان يسلم بأن العقل يستخدم الملاكات في عملياته ، وأن هذه الملاكات العقلية قد تختلف الواحدة منها عن الأخرى في القوة ، وعلى هذا فقد نجد رجلا ذا ذكاء جيد ، ولكن ذا كرتة ضعيفة ، أو ذا كرتة ضعيفة ، ولكن خياله قوى وهكذا .

== أهم مؤلفاته :

La Psychologie du Raisonnement .

ميكولوجية التفكير

Les Alterations de la Personnalité

وتغيرات الشخصية

La Suggestibilité

والقابلية للاستهواء

Etude Experimentale de l'Entelligence

ودراسة تجريبية للذكاء

(المترجمان)

Faculty Psychologists (١)

ولكن بالرغم من رأى (بينيه) فى الملكات ، فقد جمع اختبارات لكل سن تتضمن ملكات مختلفة (ذاكرة ، استدلال . . . الخ) دون الرجوع إلى مبدأ عام . وبذلك حصل على نتائج اعتقد أنها تبين المستوى العام للقدرة العقلية . ومع أن طريقته كانت من الناحية النظرية خاطئة وغير منطقية إلا أنها نجحت فى التطبيق . وكان لهذا النجاح الباهر فى القياس العقلى عن طريق الاختبار من النتائج ، ما حقق فائدة هذه الاختبارات ، بل وتجاوز هذه الفائدة .

طبيعة الذكاء

وإذا ما تساءلنا عن السبب فى نجاح هذه الاختبارات رغم قيامها على أسس نظرية خاطئة ، كان من الواجب أن نرجع إلى طريق آخر من البحث بدأ فعلاً قبل أن تستخدم اختبارات « بينيه » استخداماً واسعاً . ذلك أن « تشارلز سبيرمان ^(١) » كان قد رأى أن نتائج خليط أو مجموعة من الاختبارات التى

(١) Charles Spearman (١٨٦٣ - ١٩٤٥) درس علم النفس فى إنجلترا والمانيا على يد فونت وغيره من العلماء أمثال كولبة وإينجهوس وشرن ، وأصبح استاذاً فى جامعة لندن . زار مصر سنة ١٩٣٩ بدعوة من جامعة فؤاد الأول ليحاضر طلبتها فى علم النفس .

وهو صاحب نظرية هامة ومدرسة كبيرة وتضم مصر الآن طائفة من الباحثين الذين يوالون البحث على طريقته .
ومن أشهر مؤلفاته :

قدرات الانسان The Abilities of Man

وطبيعة الذكاء ومبادئ المعرفة The Nature of Intelligence and the Principles of Cognition

والعقل المبدع = Creative Mind

تقيس مختلف أنواع النشاط العقلي يمكن أن تعالج رياضياً بطريقة معينة ، بحيث تظهر كيف يعمل العقل بالفعل في أى نشاط له يعتمد على الذكاء . فقد أثبت أنه إذا ما اختلفت أى قدرتين عقليتين في السك (كالقدرة على الحكم على طول الخطوط بالبصر والقدرة على التمييز بين النغمات الموسيقية المختلفة بالسمع) فإن كل واحدة منها تتضمن عاملاً مشتركاً بينهما ، وعاملاً آخر خاصاً بكل واحدة منها . ثم إنه برهن زيادة على ذلك ، على أنه إذا أخذ زوجان من هذه القدرات الخاصة وأجريت عليهما الإحصائيات اللازمة مع توفر شروط خاصة ، فنانا نجد أن العامل العام في الزوج الأول هو نفسه العامل العام في الزوج الثاني ^(١) . والبراهين على هذه القضايا براهين رياضية وفنية جداً ولا حاجة بنا إلى ذكرها هنا . ولكن النتائج الهامة المستخرجة منها يمكن أن نلخصها كما يأتي : هناك قدرة عقلية واحدة عامة يمكن أن نعبر عنها بشكل أوضح أنها طاقة عقلية ، وهذه القدرة تميل إلى أن تكون ثابتة في السك عند

== وعلم النفس خلال العصور . Psychology down the Ages .

وسوف يظهر له كتاب قدرة الانسان Human Ability بالاشتراك مع الاستاذ

(المترجمان)

« ون جونز » . Wynn Jones .

(١) توصل سيرمان إلى اكتشاف هذه الحقيقة عن طريق ما يسمى بالمعادلة الرباعية Tetrad Equation فقد اكتشف أننا إذا قسنا أربع قدرات عقلية مختلفة وحسبنا معاملات إرتباطها فإن هذه المعاملات تميل إلى أن تأخذ شكلاً خاصاً . فإذا رمزنا مثلاً لكل قدرة بالأحرف الآتية ا ، ب ، ج ، د ، فإن المعادلة تأخذ الشكل الآتي $ا \times ب - ج \times د = ا \times د - ب \times ج$ صفراً . حيث $ا = ب = ج = د$ معاملات الارتباط وقد برهن سيرمان بأدلة رياضية مطولة على أن وجود هذه المعادلة يستلزم وجود عاملين : عامل عام ، وعامل خاص .

(المترجمان)

الفرد الواحد ، ولكنها تختلف من فرد إلى آخر . وتدخل هذه القدرة العامة في كل نوع من أنواع المعرفة ، ولكن النسب التي تدخل بها في العمليات المختلفة ليست واحدة دائماً . إذ أنها تعمل في كل حالة مع عامل آخر خاص ، ويعتمد النجاح في أية عملية عقلية عليهما معاً . يزداد على هذا أن الدور النسبي الذي تلعبه كل من هذه العوامل العامة والخاصة يتغير في العمليات العقلية المختلفة . ففي بعض الأحيان تحتاج العملية إلى قدر كبير من العامل العام ، وقدر قليل من العامل الخاص ، وفي أحيان أخرى يحدث العكس . وسنرى أن هذه القدرة العامة هي خير ما يمكن أن نسميه «بالذكاء» . وإذا كان لنا أن نحصل على اختبارات جيدة للذكاء ، فإنه يجب علينا أن نضعها في صورة بحيث تتضمن القدرة العامة في أنقى صورها ، وفي الحالة التي تعمل فيها دون شريك . (وقد تحتاج بالطبع إلى أن نقيس قدرة خاصة أيضاً ، وفي هذه الحال نستخدم اختبارات ملائمة لها) . إلا أننا إلى الآن وقد لخصنا نظرية العاملين ، لم نقل شيئاً عن الطريقة التي نجعل بها الاختبارات مشبعة بالعامل العام (أي نجعلها تختبره في أنقى صورته) . والواقع أننا إذا ما اتبعنا نفس طريقة معامل الارتباط لا يصبح من الصعب علينا أن نكتشف ذلك إذ من الممكن بعد قياس عدد من العمليات العقلية أن نخضع النتائج للعمليات الإحصائية الملائمة ، وأن نحسب الارتباطات بينها ، ومن معاملات الارتباط هذه يمكن الحصول على درجة قرب أي واحد من هذه الاختبارات من المقياس الصحيح للعامل العام ^(١) ، وعلى هذا نحصل على درجة

(١) نحصل على مقدار تشبع اختبار ما بالعامل العام عن طريق التحليل العاملي

Factor Analysis وتعتبر الآن طريقة سبيل ما في التحليل العاملي ، وهي طريقة الفروق =

التشبع في الاختبار المذكور .

ولقد طبقت هذه الطرق الرياضية على عدد كبير جداً من العمليات العقلية المختلفة واستخلصت نتائج غاية في الأهمية . وقد تلاقت هذه النتائج مع نتائج طريق آخر اتبعه سبيرمان أيضاً في البحث ، وهو طريق التحليل الاستبطاني ، وما يظهر عنه بشكل مباشر . ومع أن هذه النتائج الأخيرة من البساطة والوضوح بحيث لا تبدو مطلقاً في حاجة إلى أن تصاغ في كلمات ، فإنها لم ترتق إلى درجة القوانين السيكلوجية التي يمكن أن نفسر بها أساس تفكيرنا أيأ كان ، ونطبقها على أي شكل يمكن أن تتخذ المعرفة ، إلا في السنوات الأخيرة فقط . فعن طريق التأمل الباطني ، نستطيع أن نعرف الحقائق التالية :

(١) أننا ندرك على الأقل جزءاً من خبرتنا الذاتية ، وبعضاً من صفاتها ، كما أننا ندرك أننا نقوم بهذه العملية .

(٢) أننا نلاحظ العلاقات المختلفة التي توجد بين موضوعات خبرتنا المختلفة .

(٣) أننا نخلق موضوعات فكرية لم تقع في مجال خبرتنا من قبل في أية مناسبة واقعية .

(٤) أننا ننسى ما سبق أن عرفناه .

(٥) أننا نتذكر ما سبق أن نسيناه .

(٦) أننا نجد الأشياء التي ندركها مختلفة في الوضوح والتميز .

= الرباعية ، طريقة مطولة جداً ولداً فإنها قليلة الاستخدام . وقد ابتدع ثurstone وبرت Burt وغيرهما طرقاً أخرى أكثر تبسيطاً يجدها القارئ معروضة في كتب الإحصاء .
(المترجم)

هذه العمليات العقلية الست يقال إنها تشمل ، مجتمعة أو متفرقة ، جميع العمليات العقلية مهما كانت ، بمعنى أنه يمكننا أن نرجع إليها كل عملية من عمليات المعرفة دون استثناء . فتبين الثلاث الأولى منها كيف تنشأ المعرفة في عقولنا أيا كان نوع هذه المعرفة ، أما الثلاث الأخرى فتتصرف ما قد يحدث لعناصر المعرفة بعد أن تنشأ على هذا النحو . ثم إن هذه العمليات لا تقتصر على تفسير المعرفة في صورتها التأملية فحسب ، بل إنها تفسر لنا أيضا أى نوع من أنواع السلوك الشعورى والأفعال الخلقية . إذ أنه بالرغم من أن عمليات المعرفة قد لا تكون وحدها تفسيراً نهائياً للسبب الذى من أجله نسلك سلوكا ما ، فإنها تبين كيف تنطلق الدوافع — التى هى مصادر الفعل — من عقولها ، وكذلك كيف يحدث توجيه الحركات العصبية العضلية التى يتأثر بها السلوك .

ولننظر الآن في حالة بسيطة جدا لنوضح هذه النظرية : طفل صغير يدير رأسه في اتجاه صوت يسمعه ، فالصوت لا يدير الرأس ولكن سماع الصوت يثير دافعا للحركة . كما أن الصوت ليس هو الذى يوجه الحركة نحوه ، بل إن التوجه يتأثر بالإحساسات الآتية من الأجزاء المتحركة . ويتغير التوجه كلما استمرت الحركة حتى يتساوى المؤثر على كلا الجانبين . وهناك حالات أكثر تعقيدا تتضمن جميع العمليات السابق ذكرها ، وهى تتمثل في كتابة خطاب أو تأليف كتاب . ففكرة الإنتاج المنتهى أو فكرة التعبير عن الذات في كتابة الخطاب أو الكتاب قد تثير رغبة أو دافعا إلى العمل فيه ، ولكن الكتابة نفسها يوجهها عدد لا يحصى من العمليات الموجهة : منها الإحساسات الصادرة من الأصابع والعينين ، وهى الإحساسات التى يتأزر بعضها مع بعض بطريقة دقيقة ، وبذلك يمكنها أن تترجم الأفكار بدقة إلى كلمات مكتوبة . ومنها كذلك صياغة العقل للمادة التى سوف

يتضمنها النص ، وكذلك الأفكار التي تغدو وتروح ، ويزيد وضوحها أو يقل ،
والتي تنظم في فيض الشعور المبدع ، كل ذلك في وحدة تربطها علاقات متماسكة
وواضحة .

قوانين الذكاء

ولكي نفسر عملية الإدراك والتفكير ، التي تشير وتوجه الدوافع والرغبات
وضروب الاهتمام التي تظهر بدورها في شكل سلوك ، يجب أن نرجع إلى قوانين أو مبادئ
معينة ، وقد وضع لنا سبيرمان هذه القوانين في مجموعتين : المجموعة الأولى تتميز بأنها
شكلية أو وصفية ، تحدد لنا طبيعة العمليات نفسها كما تبين نوع الأشياء التي يمكن أن
نعرفها . ولما كانت هذه المجموعة من القوانين تصف لنا كيف تنشأ المعرفة أيا كانت ،
فقد سميت « بالقوانين الابتكارية »^(١) . إلا أنها لا تبين لنا كيف أومتى أو إلى أي حد
تحدث العمليات العقلية بالفعل ، ولذا أمدنا سبيرمان بمجموعة أخرى من القوانين
التي تتميز بأنها كمية . وهي لا تقتصر على تفسير ظهور العمليات الابتكارية ، بل
تفسر كذلك التغير الذي يتناول عناصر معرفتنا منذ بداية ظهورها . ويجب أن
نلاحظ أن نتائج العمليات الابتكارية الثلاثة التي تعبر عنها هذه القوانين ليست
هي ظهور عناصر معرفية جديدة فحسب ، بل عناصر واضحة بذاتها أيضا . ويظهر
هذا في مثل قولنا « أنا غضبان » ، « الحار لا يشبه البارد » ، « مربع ثلاثة هو تسعة » .
ففي هذه الحالات تكون المعرفة الناشئة هي معرفة « النفس الغاضبة » و « عدم
التشابه » و « تسعة » . ونحن ندرك وضوحها في كل حالة بالبداهة ، ولا يمكن أن
يكون هناك أدنى شك في صحتها ، إذ لا يوجد فيها أي احتمال للخطأ . وعلى هذا

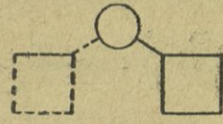
الاعتبار فإن المعرفة التي نحن بصدددها قد تختلف عن المعرفة المبينة على الحفظ أو على عملية التفكير التي تفسر بالحفظ و « الابتكار » معاً . ففي هذا النوع الأخير من المعرفة يكون هناك احتمال لظهور الخطأ ، إذ أن العمليات غير الابتكارية وما ينتج عنها ، أي العمليات التي تحدث على أساس عناصر المعرفة التي سبق أن حصلنا عليها والتي تفسرها القوانين الكمية ، لا تعتمد - كما سنرى - على البصيرة اعتماداً تاماً ، وعلى هذا فقد تضللنا . أما القوانين الابتكارية الثلاثة فإنها تعبر عن ميول ، ويمكن أن توضع في صيغة تعبر عن العمليات الثلاثة التي سبق أن ذكرناها . وهذه القوانين هي :

(١) إننا نميل إلى معرفة عناصر خبرتنا وذلك كما يحدث مثلاً حينما ندرك لوناً ما أوراثة أوصوتا ، وندرك أيضاً أننا ندرك هذه الأشياء .

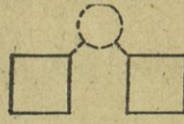
(٢) إننا نميل إلى إدراك العلاقات المختلفة بين أمثال هذه العناصر كما يحدث مثلاً حين نرى أن «لونا أحمر» يشبه «لونا أحمر آخر» ، أو حين نحكم على «رائحة» بأنها تبعث على الارتياح أكثر من «رائحة أخرى» ، أو على «صوت» بأنه أعلى من «صوت آخر» الخ .

(٣) إننا نميل إلى أن نفكر في عنصر له علاقة معينة بعنصر آخر إذا ما حصلنا على العنصر الثاني والعلاقة بينه وبين الأول كما يحدث مثلاً حين نشير فكرة « قصير » مع علاقة التضاد فكرة « طويل » أو نشير فكرة «الموجود» مع نفس العلاقة فكرة « اللاموجود » .

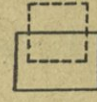
ويمكن أن نوضح هذه القوانين الابتكارية الثلاثة بالرسوم الآتية . وهي رسوم معدلة تعديلاً طفيفاً عن الرسوم الأصلية التي وضعها سبيرمان في كتابه « العقل المبدع » .



قانون إدراك
المتعلقات



قانون إدراك
العلاقات



قانون إدراك
الخبرة الذاتية

في هذه الرسوم تعبر الخطوط المتصلة عن الحدوث والخطوط المتقطعة عن
الميل . فالشكل الأول يوضح حدوث الخبرة ، والميل إلى معرفتها . والشكل الثاني
يوضح حدوث العناصر المعروفة في الخبرة ، والميل إلى إدراك العلاقة بينها . والشكل
الثالث يوضح حدوث عنصر معروف مع علاقة معينة ، والميل إلى التفكير في العنصر
المتعلق به .

ويمكن أن نقول إن العمليات التي ترجع إلى هذه القوانين وبخاصة القانون
الثالث تمثل عمليات عقلية إبداعية صرفة . فمن طريق هذه العمليات وتبعاً لهذه
القوانين نستطيع أن نفكر في موضوعات كاللانهاية ، والسرمدية ، والخلود ، والكمال ،
والجذر التربيعي لناقص واحد ، والله ، والهيدرا (حيوان مائي ذي رؤوس متعددة) ،
وأمثالها . ومن المؤكد أن هذه الموضوعات بصرف النظر عن وجودها بالفعل أو
عدم وجودها ، فهي موضوعات نفكر فيها ، مادام لها معنى عندنا ، وما دمننا
نستطيع أن نعبر عنها بالفاظ . على أن واحداً من هذه الأشياء لم يكن قط
ضمن خبرات أي فرد من الأفراد ، بل وربما لن يكون ، ولا يمكن أن يكون .
وعن طريق هذه العمليات أيضاً ينتج الفنانون أعمالهم الخيالية في الفن سواء كان
فناً مجسماً أم أدباً أم موسيقى أم تصويراً أو ما شابه ذلك . فهذه الأشياء إذا كانت
عملاً فنياً حقاً ، لا تكون مجرد نقل أو مجرد إعادة ترتيب خبرات حسية سابقة ،

بل إنها تكون إبداعا حقيقيا . و يصدق هذا أيضا على الاختراعات العلمية .
 فأول رجل صنع العجلة ، أو الآلة البخارية أو الطائرة قد جاوز في الواقع مجال
 خبرته السابقة ، إذ أنه حسب « قانون التمثيل » قد اخترع شيئا في ذهنه ثم حققه من
 الوجهة العلمية . وينطبق نفس الكلام على النظريات العلمية أيضا . فالعناصر
 الكيميائية التي عرفت أوزانها الذرية قد وضعت في مجموعات في قائمة رتبت فيها
 حسب أوزانها ترتيبا تصاعديا ، وقد بقيت في القائمة بعض الفراغات فتمتت بعناصر
 فرضية ، لم تكن قد اكتشفت بعد في الواقع ، بل اكتشفت فيما بعد . ويمكن
 أيضا أن نبين كيف أن هذه العمليات نفسها تتضمنها المذاهب الفلسفية والدينية .
 إلا أننا نعتقد أننا قدمنا بالفعل التفسير الكافي لاقناع القارئ . بالقدرة
 الإبداعية للعقل .

القوانين الكمية

ومن ناحية أخرى تعبر القوانين الكمية عن الشروط التي تحدد حدوث ،
 وكمية أو درجة ، أى عملية عقلية تحدث بالفعل من العمليات الست المذكورة في
 صفحة ٣٩ ، فهناك أولا قانون « الطاقة العقلية » التي بدونها لا يمكن أن تحدث
 معرفة أيا كانت . وتعتبر هذه الطاقة العقلية شيئا يمكن أن يفسر ما يقوم به العقل ،
 أو ما نقوم به من أعمال عقلية مختلفة تقاس كميتها بالحصول . ويمكن أن يوضع
 هذا القانون كما يأتي : المجموع الكلى لحصول أى عقل في المعرفة يعميل — علما
 بأنه محدود — إلى أن يكون ثابتا في كل لحظة من حيث السكم ، وإن اختلف
 من حيث السكيف . وتبعاً لهذا القانون فإن الطاقة المحدودة تنحدر في أية عملية
 من العمليات الست الممكنة أو توزع على عدد منها ، وبما أنها ثابتة ومحدودة

في كميتها فان ظهورها في أية عملية من هذه العمليات إلى هذا الحد يعوق ظهورها في العمليات الأخرى . وإن من الممتع أن نلاحظ أن فكرة هذه الطاقة العقلية العامة التي قد تنحدر في عملية أو في أخرى من العمليات العقلية لتنتج نتائج مختلفة ، ترجع بنا إلى نظرية العاملين من حيث إنها تنبؤنا بوجود عامل عام مع عامل خاص لإحداث نتيجة ما . ويضاف إلى قانون الطاقة العقلية هذا ، «قانون الاحتفاظ» الذي يشرح عمليات التذكر والاسترجاع . ويمكن التعبير عن هذا القانون بما يأتي : حدوث أى عملية عقلية يؤدي إلى سهولة حدوثها في المرات التالية . ويرتبط بهذا القانون إمكان حدوث الخطأ ، لا لأن الذاكرة قد لا تكون جديرة بالثقة فقط ، بل لأن نتائج العمليات الابتكارية قد تتأثر بعمليات الاحتفاظ أيضا . وهناك على العكس من هذا قانون ثالث هو «قانون التعب» الذي يعبر عن إعاقة تكرار الحدوث^(١) . أما القانون الرابع فهو «قانون الضبط الإرادي» الذي يقول إن شدة الإدراك يمكن أن تضبط بوساطة النزوع أو «الإرادة» . وهذا القانون يتضمن أن الأشياء التي نقتبها لها أكثر من غيرها تكون ذات تأثير أكبر في عقولنا . وأخيراً يجب أن نضيف إلى هذه القوانين الأولية للمعرفة قانوننا خامساً يترر أنه ما دامت العمليات العقلية التي تتناولها هذه القوانين تختلف في مقدار النجاح من وقت إلى آخر ومن شخص إلى شخص فان تحقق هذه القوانين يقوم على أساس من الظروف الفردية المتغيرة المشتقة من عوامل الوراثة والصحة واليقظ وما شابهها^(٢) .

(١) أى أن تكرار حدوث عملية عقلية يعوق حدوثها في المرات التالية وذلك

(المترجمان)

نتيجة التعب .

(المترجمان)

(٢) ويعرف بقانون « الاستعدادات الأولية »

وعلى هذا ، فعلى الرغم من أن جميع الناس يميلون باستمرار إلى أن يدركوا
تجاربههم الخاصة ، ويكتشفوا العلاقات بينها ، ويبتكروا الأفكار المتعلقة ،
ويسترجعوا الحوادث الماضية ، وينسوا ما قد عرفوه ، ويخضعوا للفروق في وضوح
معرفةهم ، فإنهم لا يقومون بهذه العمليات جميعها بالتساوي في نفس الوقت .
فبعض الناس أكثر نجاحا من غيره في هذه العمليات العقلية المختلفة . فقد
يتفوق شخص على غيره في التفكير الإبداعي ، وقد يتفوق آخر في قوة الذاكرة
وثالث في مقاومة التعب ، ورابع في توجيه انتباهه والاحتفاظ به مركزاً في أي
موضوع في متناول يده .

ولسنا مغالين في تقدير أهمية هذه النظرية التي تبدو أنها نتاج المزاجية بين
الملاحظة التأملية والإحصاء الرياضي ، فمن الناحية النظرية الصرفة يمكننا أن
تقدم لنا تفسيراً لجميع العمليات العقلية التي يمكن أن نعرف الأشياء عن طريقها .
ومن الناحية العملية يمكن أن تستخدم استخدامات عدة : في العمل على تقدم
التربية ، والتوجيه المهني ، والكفاية الصناعية ، بل وحتى في التشخيص الطبي .

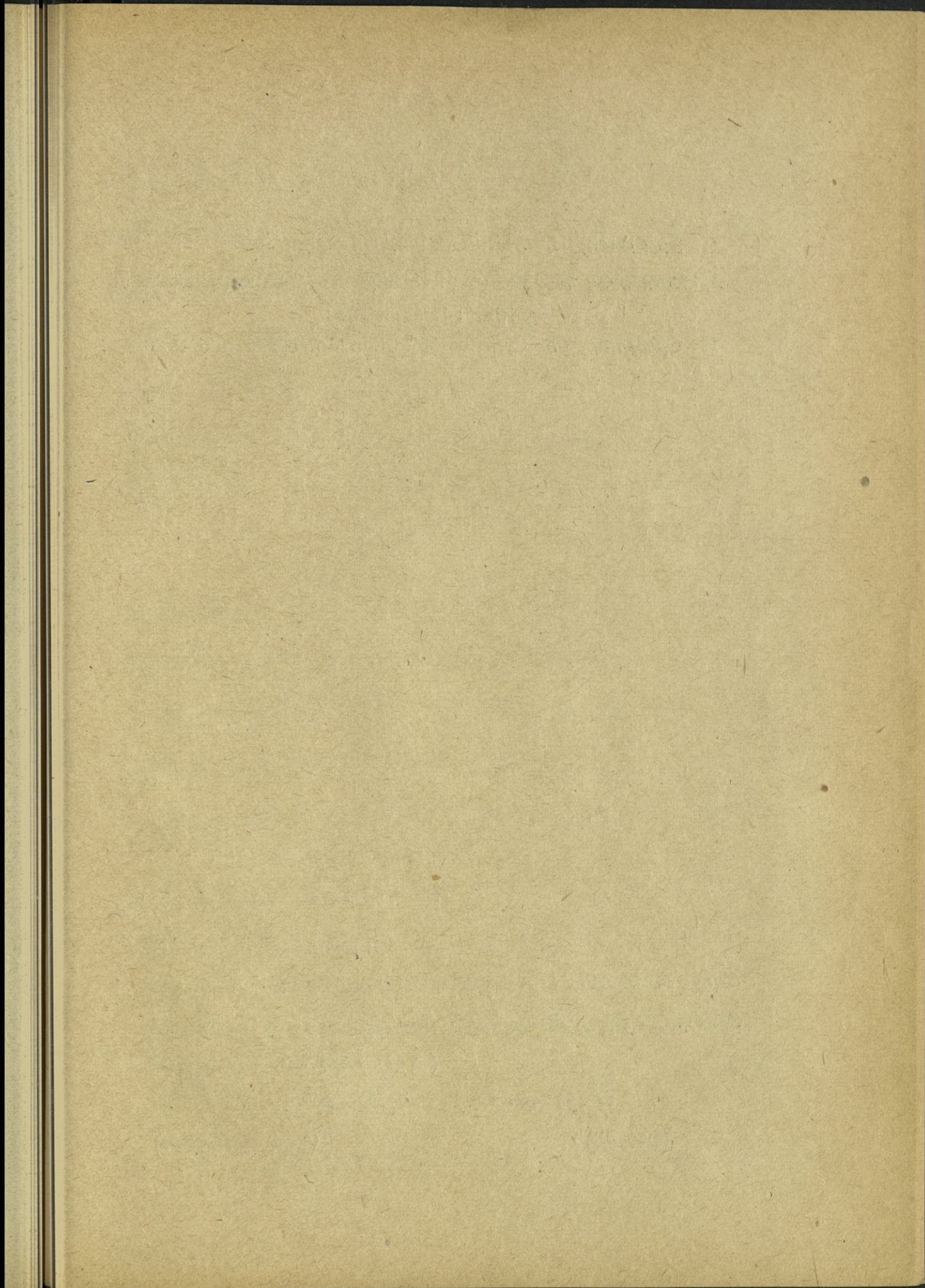
يضاف إلى ذلك أن ما بدى به في مجال المعرفة قد امتد ، نتيجة لتطور
الطرق الإحصائية عن طريق تحليل العوامل المتعددة ، حتى شمل الخلق
والشخصية كذلك . واننا لنأمل بحق أن تتسع معرفتنا للطبيعة الإنسانية ،
وقوانينها اتساعاً كبيراً في مدى وقت معقول ، إذا ما تقدم البحث في هذا المجال
الأخير كما تقدم في مجال الذكاء .

مراجع^(١)

- C. Spearman, The Abilities of Man, London 1927.
C. Spearman, The Nature of Intelligence and the Principles of
Cognition ; London 1923.
C. Spearman, The Creative Mind London, 1930.

(١) ويمكن أن نضيف أيضا :

قياس الذكاء : للأستاذ إسماعيل القباني بك (مطبوعات معهد التربية ١٩٣٨)
الاحصاء في التربية وعلم النفس : للدكتور عبد العزيز القوضى والاستاذ
حسن حسين (مكتبة النهضة ١٩٤٩) .
الذكاء ومقاييسه : تأليف ركس نايت وترجمه عطية محمود هنا
(المترجمان) (مكتبة النهضة ١٩٤٩)



الفصل الرابع

التحليل النفسى

يمكن أن نعتبر ما قام به أصحاب علم النفس الإكلينيكي ، أو الطبي ، وبخاصة ما قام به « سيجمند فرويد »^(١) ، مثلاً من أمثلة معالجة طائفة من المشكلات النفسية الملحة بطريقة تجريبية ، أما المشكلة التي واجهها « فرويد » فهي مشكلة المرضى المصابين بالهستيريا ، والأمراض العصبية ، أى المرضى الذين يشكون من « أعصابهم » . ولقد كان فرويد باعتباره إخصائياً فى أمراض المنخ ، والجهاز العصبى ، يمارس التنويم المغناطيسى ، الذى درسه على يد اثنين من

١٨٤٠
(١) Sigmund Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) مؤسس مدرسة التحليل النفسى .

ولد فى فيريبرج . ودرس الطب فى جامعة فيينا ثم رحل إلى باريس حيث درس على يد شاركو ، كما درس طريقة مدرسة نانسى فى علاج الأمراض النفسية عن طريق التنويم المغناطيسى . ثم عاد إلى فيينا حيث اشتغل بالعلاج النفسى ووضع نظريته المشهورة . وفى أواخر حياته غادر فيينا إلى إنجلترا حيث مات هناك . وأهم مؤلفاته عدا ما ذكر منها فى نهاية هذا الفصل :

محاضرات تمهيدية جديدة عن التحليل النفسى :

New Introductory Lectures on Psycho-Analysis

وليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci

والتوتم والتابو Totem and Taboo

(المترجمان)

(ع — ٤)

العلماء الفرنسيين الثقات في ذلك الحين ، وهما « شاركو » ^(١) و « بيرنيم » ^(٢) لإزالة التوتر الذي كان يشكونه مرضاه . وقد لاحظ فرويد في أثناء عمله مع بروير ^(٣) في فينا ، أن في إمكانه أن يشفى مرضاه إذا ما استطاع أن يجعلهم يتذكرون مشكلاتهم الانفعالية ، ويناقشون فيها ، ويرجعونها إلى منشئها في أثناء عملية التنويم ، وقد أدت به هذه الملاحظة التجريبية الأولى إلى أن يرجع الشفاء الذي ينتج عن التنويم المغناطيسي إلى نوع من « التنفيس العقلي » . كما أنه لاحظ أيضا : أن الشفاء يمكن أن يتم دون الالتجاء إلى التنويم المغناطيسي في كل الأحوال ، فقد وجد أنه يكفي أن يجعل المريض يتراخي جسميا وعقليا ، ويسرد أفكاره التي تطرأ على ذهنه من تلقاء نفسها . ورغم أن هذه العملية تقتضي زمنا طويلا ، إلا أن هذه الأفكار الهائلة ، تؤدي إلى معرفة مصدر الاضطراب الانفعالي المحتبئ في أغوار اللاشعور ، والذي يسبب الأعراض المرضية .

تحليل الأحلام

وقد لاحظ « فرويد » الأهمية العظيمة للأحلام باعتبار أنها تدل

- (١) Charcot (١٨٢٥ - ١٨٩٣) طبيب فرنسي عاليج الأمراض النفسية ، وعلى يده تتلمذ فرويد عند ما جاء إلى باريس ، ومن أعماله إنشاء عياده للأمراض النفسية في مستشفى سالبتيريير Salpetriere (المترجمان)
- (٢) Bernheim من رؤساء مدرسة نانسي التي اشتهرت بأبحاثها في التنويم المغناطيسي وبالعلاج عن طريقه . (المترجمان)
- (٣) Breuer أحد أطباء فينا اشتغل معه فرويد مدة من الزمن ، ولكنهما انفصلا أخيراً بسبب اختلاف اتجاهاتهما بصدد التحليل النفسي (المترجمان)

على التوتر الانفعالى ، الذى هو أساس للاضطرابات العصبية . ووضع منهجاً لتحليل الأحلام ، اتخذ فيه من محتويات الحلم الرمزية نقطة البدء لعدة سلاسل من الأفكار الطليقة ، التى تكشف فى النهاية عن سبب الاضطراب .

وقد أدى هذا إلى ظهور النظرية التى تذهب إلى أن السبب فى الأحلام - كالسبب فى الأمراض العصبية - يرجع دائماً إلى رغبة لا شعورية توجد عند صاحب الحلم . وقد وسع كثيراً من نظريته حتى شملت أسباب الحوادث غير المقصودة ، كفلتات اللسان والقلم ، وكذلك ما يرتكبه الانسان من أخطاء هى فى الواقع أعراض مرضية باعتبار أنها جميعاً نتائج لرغبات مكبوتة . وكذلك ذهب إلى أن كل هذه الظواهر ناشئة عن أسباب معينة توجد فى اللاشعور ، وأنها رموز تعبر بطريق الإبدال عن إشباع العقد المكبوتة ، بأن تخفى الرغبات الحقيقية التى يؤدى دخولها سافرة فى مجال الشعور إلى إحداث خوف شديد للشخص ، أو صدمة عنيفة له .

وقد سلم أيضاً بوجود رقيب نفسى داخلى ، أو قوة داخلية كابنة تبعد عن الشعور كل ما يأتى من أعماق النفس فى صورة واقعية أكثر مما ينبغى . وقد لاحظ كذلك أن الرغبات التى تظهر فى أثناء التحليل تتميز فى الغالب بأنها تنتمى إلى الطفولة ، وأنها تشير إلى خبرات حقيقية ، أو خيالية ، أى أوهام حدثت فى السنوات الأولى من حياة المريض وتركزت حول العلاقات الانفعالية المتعلقة بالحب ، أو الكراهية التى تنشأ عند الطفل تجاه والديه وإخوته وأخواته ومربياته ، وأمنائهم ، وبخاصة نحو الوالدين . ويبدو أن هذه العلاقات القديمة التى تنشأ فى الطفولة ترجع إلى نشاطها

سأشرح
في
المجلد
الـ ٢

ظواهر
تحت
الاشعور
والاشعور
فى
الاضطرابات
العصبية

مرة أخرى في أثناء التحليل النفسى ، وحيث إن موضوعات الكراهية أو الحب الأصلية لا تكون موجودة حينئذ ، فإن المريض يسقط الاتجاه الإفعالى على المحلل نفسه ، وهذه الظاهرة هي التي تعرف بـ «التحويل»^(١) ، ويقضى عليها عند ما يتحقق المريض من أن الحاضر هو إحياء الماضى ، وأن التجارب الانفعالية النفسية تشير إلى علاقات حقيقية ، أو خيالية ، حدثت في عهد الطفولة .

المقاومة والكبت

ومن ممارسة التحليل النفسى ظهرت ثلاث مسائل تجريبية أخرى هامة بالنسبة لنظرية التحليل النفسى ، فلقد كان المحلل ، فى الغالب ، يتعرض لمقاومة شديدة جدا فى أثناء سيره لاغوار اللاشعور . فكان المريض يقاوم هذه العملية مقاومة شديدة ، ولم يكن يرغب فى مناقشة أمثال هذه المسائل مع المحلل النفسى ، بل كان فى أغلب الأحيان يمنع الشئ المكبوت منعاً لاشعورياً من أن يعبر عن نفسه تعبيرا صريحا . ومن هذا ظهرت المشكلة الآتية :
ما سبب هذا الكبت ، وهذا المقاومة ؟ ولماذا تكون الرغبات التي استبعدت من الشعور والتي «تقيحت» فى اللاشعور - وهى كما يرى فرويد من الرغبات الجنسية فى أغلب الأحيان - على أتم استعداد لأن تظهر مقنعة فى الأحلام ، وفى الأمراض العصبية ، وفى الأعراض الهستيرية ؟ من الواضح أن السبب فى ذلك هو أنها رغبات ديناميكية أو

عقلية المريض

هذا التحليل العناني
تتفق عليه قبله

رغبات نشيطة . ولكن ما الداعي إلى كبتها ؟ . السبب في هذا — تبعاً لهذه النظرية — هو أنها تصطدم مع العادات ، والتقاليد ، والقواعد الاجتماعية والضغط الخارجى . فالفرد لا يستطيع أن يسمح لرغباته الغريزية — وبخاصة للجنسية منها — أن تلعب دورها بحرية ، أو أن يترك لنفسه العنان ، لأن ينغمس فيها ، فالمجتمع لا يسمح بذلك . وإذن فمن الضروري أن تكبت هذه الرغبات ، ولكنها تبقى رغم هذا حية نشيطة عاملة على أن تجد لها منفذاً في الأحلام ، وفي أنواع السلوك الأخرى التي لا يدعو إليها أى باعث شعورى ، وفي الأمراض العصبية النفسية ، وفي حالات الشذوذ .

وعلى هذا نلاحظ أن الكبت يتخذ شكلين . الأول : أن يستبعد الإنسان من الشعور الرغبات التي لم تتحقق مطلقاً في الحياة العادية ، والثانى : أن يبعد الإنسان بشدة من الشعور الموضوعات التي كان ، ولا يزال يستقبلها بشدة ، رغم أنه ارتكبها في الماضى وهو شاعر بها .

فالمقاومة التي يجب التغلب عليها في أثناء التحليل تنشأ عن نفس السبب الذى ينشأ عنه الكبت نفسه ، أى أنها تمنع الشعور من التفكير في الموضوعات التي لا يتحمل التفكير فيها . ومع هذا فإن الموضوع المكبوت يعبر عن نفسه بصورة رمزية ، كما في الأحلام والأمراض العصبية ، فالأعراض التي تنشأ عن الأمراض العصبية لها دلالة معينة في كل حالة . فهي كالحلم عبارة عن « حل ناقص »^(١) أو تراض ، وهي دائماً تحمل محل الرغبة اللاشعورية في حين أنها تسبب في نفس الوقت عناء وألماً ، كما لو كان هذا الألم والعناء ليسا سوى تكفير

النفس عن هذه الرغبة اللاشعورية .

ومن المعتقد أن الرموز التي تظهر في الأحلام كبديل عن إشباع الرغبات المكبوتة ، تشير في الغالب إلى موضوعات وأفعال جنسية . وزعم أنها تفسر عادة في ضوء أفكار صاحب الحلم المترابطة ، إلا أنها ليست بالضرورة خاصة به ، فقد يحدث أن تكون مستمدة من تراث عام . والحقيقة أن التطورات الأخيرة التي وصلت إليها هذه النظرية ، ترى أن هذه الموضوعات من أصل يتعلق بالشعب أو الجنس الذي ينتمى إليه الإنسان ^(١) ، ذلك أن نظرية « فرويد » الأولى التي ذهبت إلى أن اللاشعور ينشأ عن خبرات الفرد الخاصة التي كبتت قد توسع فيها حتى شملت خبرات الشخص السابقة لمولده ، وخبرات الجنس الذي ينتمى إليه . فنحن نحمل في أعماق نفوسنا آثارا من عهود الطفولة والبداوة الوحشية والحيوانية ، وكل هذه الآثار تشهد بأصلنا الوضيع ، ولا تزال تؤثر في حياتنا الشعورية ، وقد بلغنا مبلغ الرجال .

البنات
على آثار ما كان
في أعماقنا
البديهة
الميراثية

تركيب النفس

وكذلك فإن النظرية القديمة التي تقول بأن النفس تتركب من الشعور ، وشبه الشعور ، واللاشعور قد حلت محلها النظرية الجديدة التي تقول بالـ «أنا» ^(٢) ، والـ «هي» ^(٣) ، و«الذات العليا» ^(٤) ، وهي النظرية التي يمكن أن نقول: إنها النظرية

(١) وهذه هي نظرية يونج الذي قال باللاشعور الجمعي ، أي أن لاشعور الفرد يرجع إلى الشعب الذي ينتمى إليه الفرد (أنظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب) .
(الترجمان)

١٥

صوب غير مبرر

تصطدم مع

الواقع

المادي

تقابل الانا

تعديل الهي

مع هو تنسب

مع الواقع

المادي

التحليلية الشائعة ، التي تشرح تركيب النفس ، والتي تفسر الكبت بجميع أنواعه ، وكذلك الأمراض التي تنتج عنه ، على أنها جميعاً نتيجة الخوف ، قال «هي» - على وجه التقريب - عبارة عن مجموعة الميول الغريزية الموروثة ، التي لا تناسق فيما بينها ، ولا تنسجم مع حقائق الحياة الخارجية القاسية .

وهذه الـ «هي» تتضمن القوى الغريزية الدافعة ، التي تظهر أمام الشعور على شكل رغبات نهبط إلى أغوار الـ «هي» مرة أخرى عند ماتكبتها الـ «أنا» التي تعمل بصورة لا شعورية . فالـ «هي» تعمل وتخضع لسيطرة مبدأ واحد فقط ، فهي تنزع نزوعاً أعمى إلى الاستحواذ على اللذة في حين أن «الأننا» التي تخضع للعالم الخارجي وتستجيب له ، تحاول جاهدة أن توائم بين نفسها ، وبين ضرورات الحقيقة المتصلة بها ، فهي تدرك العالم الحقيقي ، وعليها أن تتعامل معه لكي تعيش ، والـ «أنا» تنمو من الـ «هي» ، وبقدر ما تكون لا شعورية تكون جزءاً من الـ «هي» . وهي في صورتها النقية ، ذلك الجزء من الشخصية الانسانية ، الذي يعدل - إذا ما نمي نموا سليماً - السلوك الغريزي غير المهنّب ، والذي يوجد انسجاماً بين نفسه وبين الغرائز بعضها مع بعض بطريق الاختيار من بينها ، والسيطرة عليها .

والذات العليا : تكوين نفس خاص بالجذس البشري ، يعادل إلى حد ما الضمير ، فهي الذات المثالية التي نفترض وجودها لتفسير الشعور بالذنب الذي نشعر به في أنفسنا ، والذي يشعر به بعض المصابين بالأمراض العصبية خاصة . وهذه الذات العليا تشتق من الصراع الداخلي في الـ «هي» ، وهي موروثة في جزء منها ، رغم أنها في الغالب تنمو في الطفل كرد فعل ، ينشأ عن خوفه من

ميوته الخاصة التي توجد في أثناء طفولته ، والتي إذا ما عبر عنها تشير استهجان الآخرين له ، أو معاقبتهم إياه ، أو تسبب له ألماً .

وقد حل محل الاعتقاد القديم الذي يذهب إلى القول بأن الضمير والشعور بالذنب يشتملان من التربية الخارجية والعقوبات والتهديد ، اعتقاد آخر يجعل أساس الضمير والشعور بالإنثم ، تلك النزعات التدميرية والعدوانية التي هي رد فعل طبيعي يقوم به الطفل نفسه تجاه معارضة دوافعه ورغباته الغريزية . إذ لما كان من المرعب للطفل أن يتصور ذلك العدوان والغضب والخوف ، التي تستثار جميعها نتيجة لمعارضة الغرائز ، ولما كانت هذه النزعات تؤدي به إلى صراع لا يمكنه أن يتحملة ، لذلك تكبت هذه النزعات وتنفصل عن الذات ، وبذلك تصبح غير متصلة بالحقيقة ، وتبقى في مرحلة الطفولة ، ولا تعد لها الخبرات الجديدة ، كما يحدث للذات باستمرار ، وهي بعد ذلك تظهر في الشعور على شكل خوف ، أو تأنيب ضمير ، أو شعور بالإنثم .

خبرات الطفولة

وقد تبدو النظرية السابقة في هذه الصورة المجردة في حاجة إلى زيادة إيضاح وإذن فلنحاول أن نبني من جديد تلك الخبرات الانفعالية المبكرة لدى الوليد والطفل الصغير ، وإن كان الكبار لا يعلمون ما هي هذه الخبرات الانفعالية بالدقة نظراً لاختلافها في زوايا النسيان منذ أمد طويل . ولكننا قد نرى من سلوك الطفل الصغير في مواقف الخوف والغضب والحب أنها حالات قوية جداً ، تعادل فينا نحن الكبار الخوف الشديد الذي لا نجد مبرراً له ، أو الرغبة في التدمير ، وفي البتر ، وفي التمزيق ، أو التملك المطلق . فإذا ما امتزجت هذه الانفعالات بعضها ببعض ، وبدأت في التنازع الواحدة مع الأخرى ، فانتسا

صل الصل
للشعور
بأنه
هو
الذات
التي
تستثار
جميعها
نتيجة
لمعارضة
الغرائز
التي
تؤدي
به
إلى
صراع
لا
يمكنه
أن
يتحملة
لذلك
تكبت
هذه
النزعات
وتنفصل
عن
الذات
وبذلك
تصبح
غير
متصلة
بالحقيقة
وتبقى
في
مرحلة
الطفولة
ولا
تعد
لها
الخبرات
الجديدة
كما
يحدث
للذات
باستمرار
وهي
بعد
ذلك
تظهر
في
الشعور
على
شكل
خوف
أو
تأنيب
ضمير
أو
شعور
بالإنثم

الكبار يتصور
خبراتهم
الانفعالية

نستطيع أن نقدر بسهولة ما ينشأ عنها من صراع عنيف لا يحتمل ، وأن نقدر كيف يصبح التخلّص منها بطريقة ما ضروريا جدا .

ولننظر إلى طفل ولد في عالم مملوء بمقتائق لا يعلم عنها شيئا ، ولا بد له من أن يتعرف عليها بالتدريج ، وعليه أن يكتيف نفسه وفقا لها ، فهو يأتي إلى هذا العالم ، حاملا معه حاجات بيولوجية ، ينبغي عليه أن يشبعها إذا أراد أن يعيش .

والواقع أن الطبيعة تمدّه بالوسائل التي يستطيع بها أن يشبع هذه الحاجات الحيوية ، وبعض هذه الحاجات حاجات فسيولوجية ، كالتنفس ، والدورة الدموية ، والإخراج . وبعضها حاجات جسمية ، أو حاجات غريزية كذلك التي تشبعها باللمس والقرص ، والوضع في الفم . وباستخدام هذه الوسائل لا يعرف الطفل الأشياء فحسب ، بل إنه يشعر باشباع وبلذة كذلك فهو يعرف أمه على أنها مصدر طعامه ، ويعرف كذلك لذة الأكل وسد الجوع ، وفي هذه المرحلة يكون فيه مركز اهتمامه ويصبح الصدر أول موضوع حب له ، ومنبع أتم إشباع . وإذا ما قام في وجهه اعتراض ما ، فإن العداوة والكراهية قد تبرز بالحب . فالدافع على المص قد يصبح دافعا يدفعه إلى العض ، والأيذاء ، والتدمير ، وبذلك ينشب عنده صراع مميت ، يجد أن من الضروري أن يبعده عن شعوره .

وفي مرحلة تالية ينشأ اهتمام من نوع آخر ، يثير الاشتمزاز في نفس السكبار ، ولكنه مصدر صريح للذة كبيرة للأطفال الصغار . هذا الاهتمام يتصل بوظائف الإخراج ، وقد نتساءل : لماذا ننظر نحن السكبار إلى هذه الوظيفة نظرة خجل واشتمزاز إذا كانت هذه العمليات تلذ للطفل ؟ . والاجابة عن هذا هو وجود تدخل ، وتحريم ، وتقييد ، ومنع بشأن هذه المسائل بوجه خاص من قديم الزمان ، فتعليم النظافة والأوامر التي تأمرنا

لذة الإشباع
الأولى
تدري
الألم
إذا وصف
ألمه
فيمر به
العض
عندما
يدفعه
أه يبعده
شعوره

لذة المرح
تدري
عقبات
المحرم

بها مريأتنا تلعب دورها ، فيصبح هذا النشاط المرغوب فيه ، والباعث على الاهتمام ، نشاطا مكروها . ونتيجة هذا أن يكبت الصراع المتعلق باللذة الاستية ، كما كبت الصراع المتعلق باللذة الفمية . فمعرفة الطفل أنه يستطيع التسلط على العضلات القابضة للمثانة والاسْت تشعره بالقوة . هذا إلى أن نوع التعليم الذي يتلقاه الطفل — عن طريق العقاب والخوف ، أو التشجيع والمعاونة — يحدد سلوكه بازاء هذه الأشياء تحديدا كبيرا ، فاذا ما سلم الطفل بمبدأ أن القدرة مكروهة ، والنظافة محبوبة ، وترك لذة العضلات القابضة بارادته ، وبدون احتجاج ، فلن يحدث صراع ما ، ولكنه إذا ما أخذ بهذا المبدأ تحت تأثير قسوة العقاب والخوف فان الصراع لا بد من حدوثه . فالطفل المشاغب يشعر بأنه مذنب ، ولكن غرائزه تقاوم هذا . وينتج عن انهزامه أمام العالم الخارجى ، الذى يتمثل له فى صورة الأم ، أو المربية قيامه بعملية تعويض فى خياله الجامح بالخوف هذه المرحلة التى يبدأ فيها الطفل يشعر بمعنى الحسَن والقبح فى خبرات طفولته شعورا قويا ، والتى يبدأ يسمع فيها الثناء ، أو اللوم ، تأخذ الذات العليا فى النمو ، وتبدأ القوانين الأخلاقية الأساسية تتكون عنده فى شكل محكمة داخلية ، تحدد الصواب والخطأ ، وهنا قد ينشأ مرة أخرى صراع إنفعالى بين اللذة الغريزية والضمير نفسه . وهذا النزاع قد يكون غير محتمل إلى درجة

يحتاج فيها إلى كبت جديد .

ويرجع بعض علماء التحليل النفسى منشأ الذات العليا إلى المرحلة الأولى ، وهى مرحلة اللذة الفمية حين تترد على نفسها غرائز إثبات الذات والمقاتلة التى استثيرت فى الطفل نتيجة العجز والحرمان . فموقف الطفل إزاء والده موقف من يريد تمزيقه ، وتقطيع أوصاله والتهامه ، لأنه يحرمه لذة

طازة لا يتخذ نفس الموقف من الأم مع أنها ممكنة
تأخذ بين أمات طعامه من تعود على الصبر ؟

تعليمه النظافة
بأن يكون للطفل
أما إذا كان للطفل
الكبت
فصل
المبايع
على
تأخذ الذات
العليا بالنمو
تعود الصراع
الطابع

موقف
الوالد
تأخذ الذات
العليا بالنمو
تعود الصراع
الطابع

الحل
للأستاذ
عليه السلام
في
العلم
الطبيعي

إشباعهم . وبالتالي يتوهم الطفل نتيجة تفكير قاصر أن الوالد يتخذ بدوره نفس الموقف العدواني نحوه . وتصبح الذات العليا التي تمثل الوالد في نظر الطفل ، شديدة العدوان والقسوة ، بالنسبة له ، وبذلك ينشأ القلق النفسي الخفيف ، ويتطلب الأمر أن تلعب الغرائز العدوانية دورها للدفاع عن الطفل ضد عداوة الوالد المزعومة . ويزداد القلق عند الطفل باستمرار ، ويسير في حلقة مفرغة ، حتى تصبح الذات العليا مصدر هلع كبير .

عقدة أوديب

وقد حل هذان التفسيران في أصل الضمير محل النظرية القديمة التي كانت تذهب إلى أن أصل الضمير يتعلق بموقف أوديب ^(١) الذي نشأ كنتيجة لملاقات جنسية

(١) هذا هو الموقف الذي يسبب وجود ما نسميه عقدة أوديب Oedipus Complex والتي يعرفها الدكتور أرنست جونز Dr. Ernest Jones بأنها « رغبة الابن (اللاشعورية في الغالب) في قتل أبيه والاستحواذ على أمه » وقد أخذ هذا اللفظ من رواية أوديب كما رواها سوفوكليس Sophocles . وقد كان أوديب (ومعنى هذه الكلمة ذو القدمين المتورمتين) ابن ملك طيبة . تركه أبوه في العراء بعد أن عرز في قدميه شوكة ، لأن كاهنا تنبأ بأنه سوف يقتل أباه ويتزوج أمه . وقد أنقذه ملك مجاور ونشأ مجهول ما تنبأ به العراف بشأنه . ولكن عرافاً آخر تنبأ له بأنه سوف يقتل أباه ويتزوج أمه . ولكي يتلافى أوديب هذه الجريمة المزدوجة ، وهي جريمة قتل الأب والزنا بالأم ، ترك أسرته التي تبنته وأخذ يطوف في البلاد وعندما تقابل مع أبيه الحقيقي ، اشتبك معه في عراك وقتله . ووصل أخيراً في تجواله إلى طيبة ، وحل اللغز الذي وضعه « الاسفنكس » وبذلك حرر المدينة من هذا الخطب الويل ، فاعلن ملكاً على المدينة ، وتزوج الملكة الأرملة ، وأولدها أربعة أبناء قبل أن يكتشف الحقيقة . ولما اكتشف الحقيقة فقام عينيه وعاش بعد ذلك في شقاء دائم .

ثم كيف يدرى الطفل أن الأمر يستغل عنه مع الأب في ممارسة
عينية مع أمه الممارسة الجنسية ثم مع علماء النفس والطفل بأنهم ؟

أكثر سفوراً . فموقف أوديب يعتبر المرحلة الثالثة في النمو الجنسي للطفل ، وينتقل خلالها اهتمام الطفل ولذته من منطقة الفم وأعضاء الإخراج إلى أعضاء التناسل وأوجه النشاط المتصلة بها . فيهتم الطفل بمشكلة التناسل ويكثر من السؤال طالبا توضيح هذه المشكلة . وكثيراً ما تقدم له تفسيرات غير صحيحة أو لا يقدم له أى تفسير فيخترع الطفل من تلقاء نفسه تفسيرات لهذه المشكلة . بل قد يرجع الطفل إلى خبراته في مرحلتى اللذة الفمية واللذة الاستيمية السابقتين لتفسيرها . وعلى كل حال فانه يتحقق من أن والديه يعرفان معلومات يكتتمانها عنه ، وهذا ما يسبب له الخيبة والغيرة . فالطفل لا يعرف ما يعرفه والداه ولا يترك معهما في علمهما . ولذلك فهو يرغب في أن يحرمهما مما يشتركان فيه حين يستبعد هو . ومهما يكن إدراك الطفل لهذا الأمر وهمياً فانه يريد على أى حال لو أن هذا يلحق الأذى بوالديه . ولكن قضاء لامهرب منه يفاجئ هذه الرغبات العدوانية فترتد على الطفل نفسه ويرى الطفل أن والديه يكرهانه نفس الكراهية ، وأنهما يفعلان به ما يرغب في أن يوقعه بهما ، وإذن فالخيال الجنسي هو الذى يبعث فيه الخوف إلى أقصى حد ، بل قد يولد عنده « عقدة الإخصاء » فيتوهم أن جسمه تشويها أو نقصا حقيقيا . وفى أثناء هذه المرحلة الأوديبية أيضا ، تتحول طاقة الحب ، التى كانت حتى هذه اللحظة متجهة إلى نفس الطفل ، إلى الخارج ، وتلتصق بموضوع خارجي . وهذا الموضوع الخارجى للطفل هو أمه التى يحبها والتى يريد لها لنفسه فقط (١) ، ولذا فهو يتخذ موقفا لا شعوريا مملوءا بالغيرة والكراهية تجاه أبيه الذى ينافسه فى حب أمه ، ويتركز العداء الذى عاناه فى طفولته كلها ضد الأب . وإذا استطاع الطفل أن يقضى على هذا الصراع بأن يعتبر أباه مثلاً أعلى فان عداوته له تقل ويحل

اهتمام الطفل
بمعرفة
الطبيعة

عمر مرحلة الوالد
عند الولد رد فعل
عند الطفل فيكرهها
المحب الى تحول طاقته
عبر الام الى الاب
الى الخارج
بشيء نحو الام

(١) وينقلب الوضع ضرورة بالنسبة للبنت ولكن الموقف يشابه موقف الولد .

إذا أحسن
كيفية
علاج
الطفل
دفع
عن
المرض
فصل
الطبيب

محلهما إتجاه عادى وتأخذ رغبته الجنسية تجاه أمه شكلا طبيعيا للمحبة بدلا من
أن تستمر رغبة جنسية . غير أن هذا الصراع إذا لم يعالج علاجاً سليماً فإن الطفل
يسمر متعلقاً تعاقماً شديداً بأمه كما يستمر على عدائه لآبيه . وتكون نتيجة ذلك
النقص الخلقي ، بل والأمراض العصبية التي تظهر في مرحلة متأخرة من مراحل الحياة .

الدوافع اللاشعورية

يلاحظ أن التأكيـد الأساسي في هذه النظرية ينصب على الدوافع اللاشعورية
التي تنشأ من المطالب الغريزية لإشباع الحاجات البيولوجية الضرورية للفرد ،
ولا استمرار وجود النوع . والفرائز هي التي تمدنا بمصادر الحياة ودوافعها ، ويتفق
فرويد مع علماء النظرية الهورمية والغرضية في ذلك رغم أنه يوحد بين هذه الفرائز
وبين الغريزة الجنسية إلى حد كبير^(١) ، ولكنه لا يتفق معهم في تأكيدهم للدور
الذي يلعبه الغرض في السلوك الإنساني ، وللعائية في علم النفس بدلا من الحتمية
المطابقة التي أ كدها هو .

وعلى أى حال فقد ساعدنا هذا البحث الطبي أو الكلينيكى على أن نخطو
خطوات واسعة في سبيل معرفة الخلق الإنساني وتطوره ، فلقد استقصى الأسس
التجريبية التي قامت عليها هذه النظرية خير استقصاء . ويبدو أن التوسع
في النظرية بحيث تشمل الظواهر العادية بعد أن كانت مقصورة على الظواهر
المرضية قد نجح إلى حد بعيد . فقد توصلنا إلى إعتبار الإنسان كائناً له غرائز
ديناميكية تجاهد في سبيل التعبير عن نفسها ولكن يمكن مع ذلك أن نحيد عن
أهدافها الطبيعية نتيجة ظروف عدة ، أهمها الافتقار إلى التوجيه الحكيم في أثناء
مرحلة الطفولة عندما تتغلب الحياة الانفعالية على الحياة العقلية . وهذا هو ما

يتبين لنا من الطريقة التي يشفي بها المرضى من الأمراض العصبية . فطريقة العلاج الأولى التي تسمى الطريقة « التنفيسية » تتضمن إظهار إنفعالات الطفولة في ضوء خبرات الكبار ومعنى « التحويل » الذي يحدث بعد فترة من التحليل ، هو أن الاتجاهات الانفعالية التي حدثت في عهد الطفولة تعود إلى نشاطها ، وتتوجه نحو المحلل ، ثم إنها تنحل بعد ذلك ويقضى على أثرها عن طريق الإدراك السليم لمساهمة هذه الاتجاهات ومنشأها الحقيقي .

ويمكننا الآن أن نكمل هذه الصورة ، التي رسمناها للشخص الكبير العادي باعتباره كائن له دوافع بيولوجية غامضة تكميلاً جزئياً بأن نضيف إليها الذكاء الذي عالجناه في الفصل السابق ، باعتباره الآلة التي يستخدمها الإنسان في اكتشاف الوسائل التي قد يحقق بها أهدافه الواقعية والمثالية . وهذه الصور التخطيطية الأولى سوف نعيد رسمها ونجولها مرة أخرى عندما نبحث في علم النفس الغرضي أو الهورمي (١)

مراجع (٢)

- S. Freud ; The Interpretation of Dreams (Translated by A. A. Brill)
London 1913.
— ; Introductory Lectures on Psycho-Analysis (Translated
by J. Riviere) , London 1922.
— : The Ego and the Id. (Translated by J. Riviere) .
London, 1927.

(١) أنظر الفصل السادس .

(٢) ويضاف إلى هذه المراجع الكتب الآتية Freud, Anna, Psychoanalysis for Teachers وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد كامل النحاس ، تحت عنوان « التحليل النفسي للأطفال » (سنة ١٩٤٧)

و « أسس الصحة النفسية » تأليف الدكتور عبد العزيز القوصي (سنة ١٩٤٥)

و « مبادئ التحليل النفسي وتطبيقاته » تأليف الأستاذ محمد فؤاد جلال (سنة ١٩٤٦)

الفصل الخامس

مذهب الجشتالت ومذهب الأورجانزم^(١)

من الانجازات الهامة التي بحثت بحثاً عميقاً في علم النفس الحديث . ذلك الاتجاه الذي تعبر عنه الكلمة الألمانية « جشتالت » . ولهذا الكلمة ترجمات عدة ، منها : « مذهب الشكل العام » أو « مذهب الصورة » أو « علم نفس الشكل »^(٢) ، ويرتبط به ارتباطاً شديداً علم نفس الأورجانزم ولذا فسنعالج الاثنين معاً في فصل واحد . وهذان الاتجاهان عبارة عن مذهب نظري إلى حد كبير ظهر في علم النفس اعتماداً على الملاحظة

(١) Gestalt and Organismal Psychology مذهبان من مذاهب علم النفس في العصر الحديث ، يهتمان بوحدة الكائن الحي ، ويؤكدان دراسة السلوك والظواهر النفسية على أساس أنها ظواهر كلية ، ويفسرانها على أساس التكوين الفسيولوجي والتشريحي للكائن الحي ، ويذهبان إلى أن القوى المحركة لاستجابات الكائن الحي تتبع القوانين الديناميكية العامة في الطبيعة ، وأن الكائن الحي والبيئة التي تحيط به يكونان وحدة كاملة متكاملة متفاعلة .

(المترجمان)

(٢) هذه التعبيرات الثلاثة تعريب للمصطلحات الإنجليزية الآتية على الترتيب :

Configurationism . Formalism . Psychology of Shape

وهي تستخدم في اللغة الإنجليزية للدلالة على هذا المذهب . أما في اللغة العربية فقد آثرنا استخدام الكلمة الأصلية « جشتالت » لديموعها بين المشتغلين بعلم النفس ولاستخدامها في بعض اللغات الأوروبية مما جعلها كلمة شبه عالمية (المترجمان)

التجريبية في مجال الادراك الحسى على وجه الخصوص ، وتلعب فيه الفروض
الفسولوجية التى تتعلق بنشاط الأعصاب دوراً كبيراً .

ففى أواخر القرن الماضى اتجه رأى إلى القول بأن فى الشكل المدرك شيئاً
أكثر من العناصر الحسية التى تدخل فى تكوينه ، على عكس ما كان يقول به
جماعة الترابطين من أن العقل ليس سوى مجموعة من الاحساسات . وقد أتى
« إهرنفلز »^(١) بدليل قوى على رأى الأول ، هو أن المقطوعات الموسيقية تظل هى
هى دائماً ، رغم أن كل نغمة فردية فيها تتغير عند ما تحول القطعة إلى مفتاح آخر .
ومعنى ذلك أن القطعة الموسيقية لا يمكن أن تكون مجرد مجموع النغمات
الفردية الأساسية فقط . ويفق إهرنفلز مع الترابطين على أن إدراكنا الحسية
ترجع أخيراً إلى عناصر هى الاحساسات الأولية ، وأن هذه الاحساسات —
بصرف النظر عن الطريقة التى تتجمع بها ، أو تترابط على أساسها — تظل
دائماً هى ، وتقابل المؤثرات الحسية التى تسببها خطوة بخطوة . إلا أنه يفترض
لتفسير « ما هو أكثر » فى إدراكنا الحسية ، وجود قدرة عقلية ، أعلا وأسمى
من الحواس ، توحد الاحساسات ، وتعطيها ما تسميه « صفة الجشتالت »^(٢) ،

(١) Von Ehrenfels (١٨٥٩ — ١٩٣٢) أحد علماء النفس الألمان ،
ويعتبر أول من صاغ قواعد الشكل التى على أساسها قامت نظرية الجشتالت .

(المترجمان)

(٢) Form Quality وهى مجموعة العلاقات التى توحد فى المدرك الحسى ،
والتي تجعل منه شكلاً ما يختلف عن الأشكال الأخرى ، رغم أنه قديشترك مع مدرك
آخر فى الجزئيات الحسية . ومثال ذلك واضح فى النغم . فنحن نلاحظ أن أى نغم يتكون
من عناصر موسيقية معروفة ، بيد أن ما يميز نغماً عن نغم آخر هو الطريقة التى تتركب
بها هذه العناصر أى مجموعة العلاقات الزمنية المختلفة الموجوة بينها . (المترجمان)

وإذن فنحن نخطو في إدراكنا - حسب هذا الرأي - خطوتين متتاليتين :
فمنحس أولاً ، ثم نربط بعد ذلك بين إحساساتنا بحيث نكون كليات (١) .

الادراك الحسى والمنح

ولقد جاء بعد ذلك جماعة من علماء النفس ، فأحدثوا تغييراً أساسياً في هذه
الفكرة الأصلية ، التي تقول بوجود « صفات شكلية » زيادة على العناصر
الحسية . وكان من أبرز هؤلاء العلماء « ماكس فيرتهيمر » (٢) ، و« كيرت كوفسكا » (٣)

Wholes (١)

(٢) Max Wertheimer (١٨٨٠ — ١٩٤٠) . أحد مؤسسى نظرية الجشتالت
كداً نشاطه العلمى فى فرانكفورت ، ثم عمل مع كوهلر فى جامعة برلين . كان اهتمامه
موجهاً لدراسة الحركة ، وقد أدت به هذه الدراسة إلى اعتبار إدراك الحركة خبرة
بلية ، وليست نتيجة ترابط بين إحساسات جزئية استاتيكية .

(المترجمان)

(٣) Kurt Koffra (١٨٨٦ — ١٩٤١) . أحد مؤسسى مدرسة الجشتالت
اعتمد على دراسة كوهلر فى تعلم القردة العليا وأكّد الدور الذى تلعبه البصيرة
فى التعلم وبذلك عارض النظرية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت وهى أن التعلم يتم
بوساطة المحاولة والخطأ ، وعن طريق الربط الآلى .

أهم كتبه :

نمو العقل The Growth of the Mind

ومبادئ علم نفس الجشتالت Principles of Gestalt Psychology

(المترجمان)

(ع ٥)

و«ولفجانج كوهلر»^(١) — فبدلاً من أن يقولوا : إن إدراكنا الحسية تحدث نتيجة وجود قوة عقلية تشكل إحساساتنا ، قالوا : إن هذه الإدراكات الحسية هي بكل بساطة ، نتيجة عمليات معقدة تحدث في الجهاز العصبي . ويعتمد مذهب الجشتالت هذا على فرض فسيولوجي . فقد افترض فرتيمير أن كل مؤثر حسي ينظم مجالا^(٢) مركباً في المخ ، وأن هناك تداخلاً ودورات قصيرة بين مجالات القوة العصبية ، وأن الإدراك هو الظاهرة العقلية الموازية لحالة النشاط المخي هذه .

(١) Wolfgang Kohler (١٨٨٧ — ١٩٥٠) من مؤسسي مدرسة الجشتالت اتصل بفرتيمير وكوفكا في فرنكفورت ثم أصبح أستاذا لعلم النفس في جامعة برلين أهم مؤلفاته :

علم نفس الجشتالت Gestalt Psychology
وعقلية القردة العليا Mentality of the Apes

وقد عرض فيه الأسس النظرية لهذا المذهب . (المترجمان)

(٢) أصبحت فكرة المجال شائعة جداً في علم الفلك والعلوم الطبيعية الحديثة . وقد وجد أنها ضرورية كذلك في تفسير الظواهر النفسية والاجتماعية . ومؤدى هذه الفكرة أن جميع الظواهر التي تحدث في الطبيعة بما في ذلك الظواهر النفسية ، تحدث داخل مجال معين ، بمعنى أن الذي يحدد ظهورها وطبيعتها هو تركيب ذلك المجال وخصائصه ، دون أي قوة كامنة فيها بل هو أحسن مثال للمجال في الطبيعة هو المجال المغناطيسي . أما في علم النفس فيمكن أن تمثل له بظاهرة الإدراك . فالإدراك لا يعتمد على طبيعة المدرك (بالفتحة) بقدر ما يعتمد على القوى الموجودة في المجال الذي يحويه . فبقعة سوداء على أرضية بيضاء مثلاً تكون أشد سواداً منها إذا وضعت على أرضية رمادية ، كما أن تهديد سيدة على مسرح لا يمكن أن يكون له من الوقع ما لتهديدها في الحياة الواقعية . فالمجال الذي تحدث فيه هذه الظاهرة إذن هو الذي يحدد معناها إلى حد كبير .

(المترجمان)

وقد وضع إهرنفلز هذا الفرض أولاً لتفسير الحركة الظاهرية للأشياء الثابتة ، تلك الظاهرة التي أجرى عليها التجارب مدة من الزمن . فقد لاحظ أنه إذا استثيرت منطقتان متجاورتان في شبكية العين ، الواحدة بعد الأخرى بوساطة الضوء ، بحيث يكون الوقت بين المثيرين مناسباً ، فإننا لا نرى ضوءين منفصلين ، بل نرى حركة ظاهرة لضوء واحد . وهذه الظاهرة مألوفاً جداً في السينما . ويمكن أن نلاحظها إذا ما تغيرت إشارة المرور ، حيث نرى حركة إلى أسفل أو إلى أعلا (مع تغير اللون) . ونلاحظها أيضاً بشكل أكثر إمتاعاً عند ما يكون المؤثر الأول ضعيفاً والثاني قوياً . ذلك أن الحركة الظاهرية تحدث حينئذ من مكان المؤثر الثاني إلى مكان المؤثر الأول ، وإن كانت تبدو بعد ذلك أنها ترتد إلى الوراء مرة ثانية . وقد أوحى هذا بفكرة أن هناك تفرغاً عصبياً يحدث من شحنة قوية إلى شحنة ضعيفة . وبذلك بدت هذه الظاهرة مؤيدة للنظرية . أما إذا حدث المؤثران في وقت واحد ، فإننا لا نرى حركة ، بل نرى شيئين ثابتين . ويلاحظ أنه حتى ذلك الوقت كان من المسلم به أن الاحساسات ، هي المادة الأولية التي تنبني منها إدراكنا ، وإن كانت قد أضيفت فكرة جديدة ، وهي أن مجالات القوة ، التي تنظمها السيارات العصبية الحسية ، تربط هذه الاحساسات معاً في كل مركب بطريقة أخرى خلاف مجرد تجميعها بعضها إلى بعض . وقد وضع كوفسكا فرضاً مشابهاً لهذا ، قرر فيه أن هناك عوامل من أصل عصبي مركزي تشكل الاحساسات الأولية . ويتفق هذان الرأيان مع رأى إهرنفلز ، فيما عدا أن فكرة الصفات الشكلية قد أصبحت تترجم بعبارات فسيولوجية ، بعد أن كانت تفسر على اعتبار أنها نتيجة عمليات عقلية علمياً .

الكليات الموحدة (١)

إلا أن النظرية قد تطورت بعد ذلك فتجردت من فكرة تركيب أو تجميع العناصر الحسية في شكل إدراكات. فقد لوحظ أن إدراكاتنا لا تحدث مطلقاً في شكل مجموع من العناصر الحسية المنفصلة، بل تحدث دائماً في شكل كليات موحدة. وتقابل هذه الكليات المدركة الأشياء الواقعة التي هي إدراكات لها، كما تقابل أيضاً حالة المخ بشكل عام في نفس اللحظة التي تحدث فيها. وهذه الحالة العامة للمخ هي التي تفسر لنا إدراك الأشياء ككليات. فقد افترض أن هناك تشابهاً بين الإدراك وحالة المخ، كما افترض أن العملية الخفية النامية التي تقابل الإدراك، عملية كاملة تتميز بأنها كلية. ولقد ساعدت نظرية كوهلر في «الوحدات الطبيعية» (٢) على اكتمال هذا الفرض المعقد. وبحسب هذه النظرية لا يمكن أن نرجع الكليات التي ندركها بعقولنا، أو الأشياء الموحدة الموجودة في العالم الخارجي إلى استنارات فردية لأطراف الأعصاب، تنتقل إلى المخ في تيارات عصبية منعزلة، فتحدث آثاراً مستقلة في الخلايا المختلفة الموجودة في اللحاء (٣).

Natural Units (٢)

Unitary Wholes (١)

(٣) هذا هو تفسير الترابطين لعملية الإدراك الحسي. وقد هاجم الجشتالتيون هذا التفسير لعدة أسباب أهمها:

(١) إذا كانت الصورة التي تقع على شبكية العين تنتقل إلى المخ كما تنتقل الصورة الفوتوغرافية، كان من الواجب أن يكون عدد الأعصاب التي تقوم بهذه العملية مساوياً لعدد أطراف الأعصاب الموجودة على سطح الشبكية، ولكن الأمر ليس كذلك =

وعلى ذلك يبقى علينا أن نجد تفسيراً آخر للكليات المدركة بالعقل والأشياء
الموحدة الموجودة في العالم الخارجى .

مبادئ الجشتالت

ولمواجهة هذه الصعوبة تستخدم في تفسير الأشكال المتماسكة (أو الأشياء)
التي تظهر « كأشكال » على أرضية ، مبادئ معينة استنتجت من ملاحظة طريقة
تجمع الخطوط والنقط وما إليها في إدراكنا . فقد اعتبر أن الأشياء المتماسكة أمثلة ،
« للتجمع » في أعلا درجاته ، وأنها تتبع نفس القوانين وتخضع لنفس المبادئ

== ب) هناك صفات في الإدراك البصري لا يوجد لها مقابل في الاحساسات ، مثل
إدراك العمق . فالإدراك إذن لا يتوقف على الأثر الحسى المباشر .

ح) إننا ندرك اللون الأصفر كما يظهر فى الاسكتروسكوب إدراكا يختلف
عن إدراكنا له فى الليمون ، وفى شرابه ، ولكننا لا نجد هذا الفرق إذا نظرنا إليه
خلال أنبوبة سوداء فادراكنا للون الأصفر إذن لا يتوقف على الأثر الحسى المباشر ،
إذ أن طول الموجة واحد فى كل حالة .

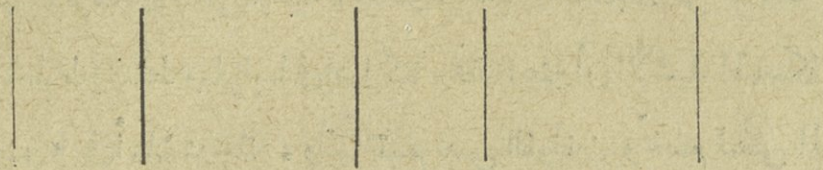
د) إذا سلطنا ضوءاً قوياً على صفحة سوداء وقارناها بصفحة بيضاء موضوعة فى
الظل لرأينا الأولى أكثر ظلمة من الثانية حتى ولو كان كل من الصفحتين يعكس
على العين كمية واحدة من الضوء .

هـ) إذا نظرنا إلى شئين فى حجم واحد وكانا على مسافتين مختلفتين فان
الأبعد منهما يكون أقل صغراً من صورته الواقعة على الشبكية بكثير .

و) أن المجال المصرى العادى ليس به فراغ مقابل للنقطة العمياء التى توجد فى
الشبكية مما يدل على أن الإدراك لا يقوم على مجرد التأثير الواقع على أطراف الأعصاب
كل على حدة .

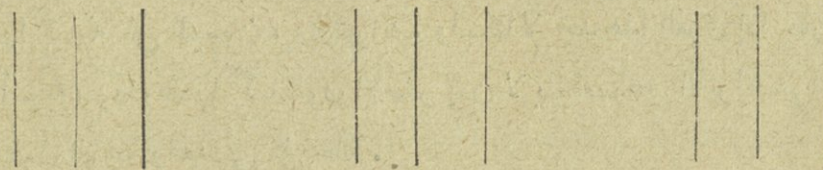
(المترجمان)

التي تخضع لها الخطوط والنقط وما إليها . ومن هذه القوانين قانون « القرب » ، وقانون « الحصر » أو « الإغلاق » ، وقانون « التشابه » مما يمكن أن نوضحه فيما يأتي :
إذا كان هناك ثلاثة أزواج من الخطوط المتشابهة مرسومة بعضها قرب بعض مع وجود فراغات أكبر بين كل زوج والآخر ، فإن كل خطين متقاربين يظهران كوحدة مجمعة منعزلة (شكل ١) .



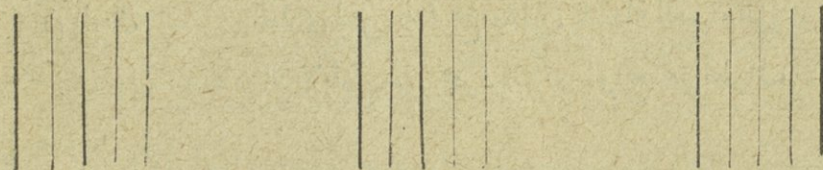
(شكل ١)

فإذا رسمنا خطاً ثالثاً داخل كل زوج ، فإن كل مجموعة موحدة يزداد تميزها (شكل ٢) .



(شكل ٢)

فإذا أضفنا خطوطاً أخرى داخلية ، فانتنا نصل أخيراً إلى حالة نهائية ، وهي الحالة التي تدرك فيها الأشكال المتماسكة بارزة كما تبرز الخطوط المجمعة على أرضية محايدة (شكل ٣ ، ٤) .



(شكل ٣)



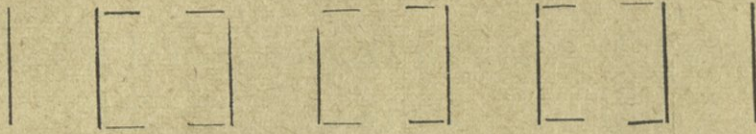
(شكل ٤)

وهذه هي ظاهرة «الشكل والأرضية». وقد فسرت تفسيراً فسيولوجياً على أساس اختلافات في الجهد^(١) بين مناطق الجهاز العصبي التي تعمل كشكل، والمناطق التي تعمل كأرضية.

وهناك مثل آخر يبين بشكل واضح أثر مبدأ الحصر مع مبدأ القرب والتشابه اللذين رأينا أثرهما في حالة الخطوط المتجاورة - فإذا أضفنا بدلاً من الخطوط المتوازنة التي رسمناها بداخل كل زوج، خطوطاً صغيرة بزواياه قائمه، بحيث تتجه إلى الخارج من أطراف كل زوج من الخطوط الأصلية، نرى مجموعات من خطوط أكثر تباعداً بعد أن كنا نرى مجموعات من الخطوط القريبة (شكل ٥).

(١) «الجهد» Potencial كلمة تستخدم في علوم الطبيعة للدلالة على القوة الكامنة أو الشحنة الكهربائية التي يمكن أن تسبب تغيراً ما في المجال الذي توجد فيه، فالتيار الكهربائي مثلاً ينتقل من الطرف الموجب إلى الطرف السالب لاختلاف في الجهد بين الطرفين. وقد طبقت هذه الفكرة مع فكرة المجال على الظواهر النفسية فافترض أنه ينشأ في الجهاز العصبي باستمرار مجالات تختلف جهودها فيكون نتيجة ذلك تفريغ يحدث من المناطق ذات الجهد العالي إلى المناطق ذات الجهد المنخفض حتى يتم التعادل.

(المترجمان)



(شكل ٥)

إلى هنا نرى أن نظريه الجشتالت لم تعالج ، سوى مسألة إدراك المجموعات والكميات فقط . ولكن سرعان ما حاول أصحابها بعد ذلك تطبيق قوانين الكلية والخصر ... الخ ، على تفسير العمليات العقلية الأخرى ، ففسروا المقارنة مثلاً بأنها قائمة على البصيرة ^(١) ، أى إدراك جزء من كل فى علاقته مع بقية الأجزاء . ولقد وضحوا هذا التفسير بتجارب عدة أجريت على الحيوان ، كالأسماء ، والطيور ، والفيران ، والقردة ، وما شابهها . ومن أمثلة هذه التجارب تجربة تتلخص فى تدريب الحيوان على أن يحصل على طعامه دائماً من أحد صندوقين يكون أكثرهما إضاءة ، وبعد أن يتم التدريب تزداد الاضاءات النسبية بحيث يصبح الصندوق الذى كان أقل إضاءة فى مثل إضاءة الصندوق الذى كان أكثر إضاءة . وفى هذه الحالة يكف الحيوان عن الذهاب إلى الصندوق الذى تعود أن يتناول طعامه منه ، ويذهب إلى الصندوق الذى أصبح أكثر إضاءة ، مظهراً بسلوكه هذا أنه إنما يستجيب لأجزاء الموقف فى علاقتها مع الموقف الكلى . وعلى ذلك يبدو أن المقارنة عند الحيوان عبارة عن إدراك للعلاقات كما هى عند الإنسان ، إلا أن السلوك الذى يتبعه الحيوان فى البحث عن الطعام فى الصندوق الأكثر إضاءة هو استجابة لموقف « مغلق » تلعب فيه كل من الاضاءة الشديدة والاضاءة الضعيفة دورها . ٩

التجارب التي أجريت على القردة

ويزيد في إيضاح إدراك العلاقات بهذه الطريقة سلوك القردة غير المدربة التي أجرى عليها كوهلر تجاربه . ففي هذه التجارب تواجه القردة بعدد من المواقف المشككة البسيطة التي يتختم عليها فيها أن تتخطى عقبات تقف في سبيلها لكي تحصل على طعامها . فتوضع موزة مثلاً خارج القفص الذي بداخله القرد بحيث تقع في مجاله البصرى ، وتكون من البعد عن قضبان القفص بدرجة لا تمكنه من أن يمسكها بيده ، عندئذ يرى القرد في عصا ملقاة بالقرب من القفص (بحيث تقع في مجاله البصرى عندما يكون شاخصاً إلى الموزة) ، وسيلة لإحضار الفاكهة ، فيمسك بها فجأة ويستخدمها في جر الموزة إلى داخل القفص . وتكون المشككة أكثر صعوبة إذا لم ير القرد كلا من العصا والموزة في وقت واحد ، كأن تكون العصا وراء مثلاً أى خلف القفص . وفي هذه الحالة لا يستطيع القرد أن يستخدم العصا إلا بعد أن يكون قد تمرن على استخدامها كوسيلة لجذب الطعام إلى داخل القفص . ويستنتج من ذلك أن مبدأ الحصر يعمل في الحالة الأولى بسهولة أكبر . فالشجرة الموجودة في مجال الإدراك بين الفاكهة والعصا في هذه الحالة ليست بشجرة كبيرة . وعلى ذلك يتم التبصر في الحال ، فيرى القرد العصا في علاقتها بالموقف الكلى بما فيه الفاكهة . في حين أنه في الحالة الثانية لا يتم الحصر إلا بصعوبة كبيرة ، إذ أن العصا والفاكهة في هذه الحالة لا تقعان في مجال بصرى واحد . وأصعب من ذلك أيضاً ذلك الموقف الذي اقتضى من القرد أن يكسر فرعاً من فروع شجرة موجودة داخل القفص كي يستعمله كوسيلة لإحضار الفاكهة . وتفسر الصعوبة في هذا الموقف بأن الشجرة

تكون « كُلاَّ » (مغلقة) شديد التماسك عند القرد، ولذلك يمكن من السهل نجزتها في الإدراك بحيث يدخل جزء منها (الفصن) مع الفاكهة في « كل » آخر مغلق. وأشد هذه التجارب إثارة للاهتمام هي تلك التجربة التي تمكن فيها أحد القردة من أن يضع عصوين (ثم بعد ذلك ثلاثة) كلا في الأخرى بحيث صارت عصا طويلة أمكنه بها أن يحصل على الموزة ، بعد أن كانت كل عصا وحدها أقصر من أن تصل إلى الفاكهة . وقد حدث هذا عن طريق الصدفة في بادئ الأمر . فبعد أن جرب القرد كل عصا على حدة دون جدوى ، جلس يلعب بها في تراخ وهو ينظر إلى الفاكهة . وبينما هو كذلك إذاً بنهاية إحدى العصوين تشببك في تجويف الأخرى عن طريق الصدفة . وفي الحال استخدم الحيوان اختراعه هذا في جذب الفاكهة إلى داخل القفص ، وقد أدرك بالبصيرة أن العصي الطويلة الجديدة أصبحت ملائمة لغرضه . وزيادة على ذلك فقد تمكن في مناسبات تالية من أن يركب العصا عن قصد واضح . إلا أن هذا إلا كتشاف العرضي الذي ذكرناه لم يكن حلاً للمشكلة عن طريق البصيرة إلا بعد أن حدث بالفعل . أما ما يدلنا على عمل مبدأ الإغلاق وظهور البصيرة فهو ما قام به القرد في محاولة قبل هذه ، وإن لم يكن من الروعة بحيث يستلفت النظر . ذلك أن القرد دفع إحدى العضوين أمام الأخرى نحو الفاكهة ، واضعاً بذلك العصوين والموزة بشكل واضح في كل إدراك واحد . ولو أن العصوين في هذه الحالة قد اشتبكنا لملت المشكلة بهذه الطريقة ، ولكنهما لم تشبكا ، ومع ذلك فأننا نستطيع أن نقول أن القرد قد وجد الحل نظرياً . ويستطيع القاريء المهتم

بهذا الموضوع أن يرجع إلى كتاب كوهلر « عقلية القردة العليا » ^(١) ففيه يجد شرحاً وافياً لبصيره هذه القردة ، وحدود هذه البصيرة .

الادراك والتفكير والسلوك

ويعتبر علماء النفس الجشتالتيون أن مبدأ الحصر هذا ، وهو المبدأ الذي توصلوا إليه أول الأمر من ملاحظة الكليات المجمعة ، أهم المبادئ إطلاقاً . إذ أنه لا يستخدم في تفسير إدراك الأشكال والأشياء المتماثلة وسلوك الحيوان فحسب ، بل يستخدم في تفسير العمليات العقلية العليا والأفعال الإرادية كذلك . وقد حاولوا أن يبينوا أيضاً كيف يمكن أن يفسر هذا المبدأ على أساس فسيولوجي ، فقالوا إن ظاهرة الشكل والأرضية ، مثلاً ، ترجع إلى اختلافات في الجهد تحدث في سطح الحواس (الشبكية مثلاً) وتنتقل إلى المخ . ويفسر التفكير بأنه ناتج عن اختلال في توازن الجهد الكهربائي في الجهاز العصبي . وتثير هذا الاختلال حادثة يوازها من الناحية العقلية سؤال يسأل ، أو مشكلة تظهر . ويعاد الاتزان ثانية بوساطة التحول إلى مظهر آخر يتميز بالحصر المؤقت ، وذلك عندما نحصل على الإجابة أو عندما تحل المشكلة . ويفسر كل من النشاط الغريزي أو الإرادي بنفس الطريقة ، وبذلك يدخل سلوك كل من الحيوان والإنسان ضمن الوحدات الشكلية ، ويخضعان للقوانين المنظمة المستمدة من دراسة الادراك . فكما أن رؤيته شيء ، أو شكل على أرضية ، يقابلها كل وظيفة في الجهاز العصبي ، كذلك السلوك هو رد فعل الكائن ككل على الموقف المثير له بأكمله . وفي هذه النظرية يعتبر الكائن العضوي مجالاً

لطاقه عصبية يستجيب للمثير عن طريق تغير جهوده العصبية . وهو في استعادته لتوازنه يدرك ويسلك . فناحية الادراك ترتبط بناحية السلوك باعتبار أنهما مظهران لاستجابة عصبية عضلية واحدة ، تحدث نتيجة للاختلال في الجهود .

ولنأخذ مثلاً السلوك الذي يؤدي إلى إشباع أى رغبة قد نشعر بها ، كالرغبة في تناول الطعام عندما تكون جائعين . ففي مثل هذا الموقف يوجد غرض هو إشباع الجوع ، أو استعادة التوازن الذي اختل في الجهاز العصبي العضلي بواسطة الاستثارة الداخلية الصادرة من جدار المعدة كما أن الكائن العضوى يشعر بتوتر يدفعه إلى الوصول إلى هذا الغرض ، فيقوم بعدة حركات للبحث عن الطعام مما يحفظ له توازنه . هذه هي المراحل التي لا بد وأن تمر بها تبعاً أى عملية تبدأ من الرغبة وتنتهى إلى الإشباع . أو بعبارة فسيولوجية ، تبدأ من اختلال في الجهاز العصبي وتنتهى بالتوازن ، أنها حالة « حصر » في نظام زمانى أكثر منه مكانياً فالحيوان الجائع كما يقول كوفكا ، يستمر في نزوعه ، ولا يزول قلقه إلا عندما يحصل على غرضه بالفعل .

علم الطبيعة وعلم الحياة وعلم النفس

هذا العرض العام القصير لبعض النقاط البارزة في نظرية الجشالت التي لا تزال مادتها الغزيرة في ازدياد يوماً بعد يوم ، يؤدي بنا إلى اعتبار الكائن العضوى الحى الشاعر بذاته كلاً واحداً يتبع في خصائصه وأفعاله القوانين الطبيعية . والواقع أن كوهلر يبدأ مذهبه في علم النفس « من نقطة البداية في علم الطبيعة » مبيناً لنا أن هناك نظاماً في توزيع الطاقة الطبيعية كنظام الحرارة ونظام الكهر باء حيث

لا تستمد الأجزاء طبيعتها وفعلها من كونها أجزاء بل تستمدها من النظام ككل .
فالشحنة الكهربائية تستمد جهدها من نظام أو مجال لا بد وأن تكون فيه أنواع
أخرى من الجهود . وهذه نظرة جشنتية في أساسها . وليس هذا بأقل وضوحاً في
علم الحياة العام وبخاصة في ظاهرة النمو حيث تتكاثر وتميز الخلايا والأنسجة والأعضاء
على أساس تدرجات فسيولوجية ليست خاصة بالأجزاء بأي حال من الأحوال بل
إنها ترجع إلى الكائن العضوى ككل ^(١) . وكذلك فإن التشويهاً التي تحدث
في المراحل الأولى من نمو الجنين تتحسن بحيث تظهر الصورة الطبيعية للكائن
العضوى من الخلايا التي بقيت على حالها . ولقد كانت الحقائق التي من هذا النوع
ضد التصور الآلى لعملية النمو ، إذ أنها تبين أن الخلايا المتكاثرة والمستمدة يمكنها
أن تتكيف وفقاً لأشد الظروف غرابة عليها . إلا أن تصور هذه الظواهر تصوراً

(١) التدرج Gradient هو أى كمية مقيسة تتغير بانتظام في المقدار من نقطه
مرتفعه إلى نقطة منخفضة وعلى ذلك فهناك تدرج في الضغط مثلاً كضغط الهواء ،
الذى يختلف من قمة جبل مرتفع إلى سطح البحر كما يبين ذلك البارومتر ، أو تدرج
في الحرارة من مصدر الحرارة إلى نقطة أشعاع بعيدة . أما التدرج الفسيولوجى
فنضرب له مثلاً اختلاف نسبة الحياة عند سطح الكائن ذى الخلية الواحدة عنها في داخله
فأعلى نسبة للحياة توجد عند السطح وأقلها في الداخل . أما في الحيوانات المتعددة
الخلايا فهناك تدرجات أخرى كتلك التي تتتابع من الرأس إلى الذيل حيث تكون
أعلى نسبة للحياة عند طرف الرأس وأقلها عند طرف الذيل - وهذه التدرجات توجه
تطور ونمو ونشاط أجزاء الكائنات الحية . والواقع أنه إذا استؤصلت أجزاء من
الكائن النامي قبل أن يتميز تميزاً كافياً ثم استنبقت في موضع آخر غير الموضع الذى
كانت فيه في الأصل فاننا نحصل على نتائج مدهشة فان ما ينمو حسب سجيته على شكل
رأس قد يصبح ذيلاً وما ينمو في العادة كذيل قد يصبح رأساً .

يرجعها إلى مبدأ حي ، هو تصور غير مقبول أيضاً عند الجشتالتيين . ففكرتهم في التنظيم التلقائي للنظم الديناميكية - كما وضحوها في الطبيعة - تنطبق أيضاً على هذا المجال . فالكائن الذي يعتبر نظاماً موزعاً من الطاقة يعيش وسط مجالات من القوى المختلفة أكثر اتساعاً منه ، هذا الكائن ينظم نشاطه الخاص بنفسه على أساس أنه كل ، وذلك أثناء استجابته استجابة محتومة للبيئة الكلية التي يعتبر في الوقت نفسه جزءاً منها .

توضيح ظاهرة النمو بالجاذبية

ويمكن أن نضع هذه النظرة للنمو العضوي في صورة أخرى ، فقد ينظر إلى البداية والنهاية والمراحل المتوسطة ، في أي عملية باعتبار أنها جشتالت زمني ، أو كل لا يتصف أي جزء منه منفرداً بأي خاصية من خواص العملية . ويوضح ذلك « ر . ه . هويلر »^(١) كمقدمه للبحث في النمو بأن يمثل بتفاحه تسقط . فالتفاحه تتعلق بفصن ، حافظة توازنها بالنسبة لمجموعه القوى الموجودة في نظام الجاذبية الذي تقوم فيه هي بوساطه الجذع الذي ترتبط به . فإذا انفصلت عن الجذع فانها تسقط على نقطه يحددها النظام السكلي . فالهدف موجود ، بل ويجب أن يكون موجوداً . واتجاه السقوط كذلك محدد . كل ذلك قبل أن يبدأ السقوط . ومثل ذلك كمثال وجوب حدوث المؤثر التالي في تجربه فرتهيمر قبل أن ترى الحركة . ويقول

(١) Wheeler أحد علماء الجشتالت في أمريكا ، حاول أن يطبق قوانين الطبيعة على الظواهر النفسية وعرض ذلك في كتابه المشهور « قوانين الطبيعة الانسانية » Laws of Human Nature, London 1931.

هو يلز أن نظام الجاذبية هو الذى يسبب تور التفاحة ، ذلك التوتر الذى تعانیه فى تعليقها بالشجرة . فهو الذى يعطيها قدرتها على الحركة . وهو فى الوقت نفسه يحدد لها الهدف البعيد من السقوط ، واتجاه هذا السقوط . فالنظام يتضمن ماضى التفاحة ومستقبلها ، والاثنان معاً هما شرطاً حاضرها ، وهو السلوك لوقتي للتفاحة . فالسقوط باعتبار أنه متصل ^(١) لا يمكن أن يفسر إلا إذا ما بحثنا خارج هذا المتصل عن الشروط التى تسبب حدوثه . ولنلاحظ هنا ملاحظة عابرة استعمال كلمة « متصل » بمعنى « كل » . وإذا ما طبقنا هذا بالمثل على عملية النمو نقول : إن جهد النمو تقرره وتدعمه المجالات الأخرى للقوة ، تلك المجالات التى يعتبر الكائن العضوى جزءاً منها ، يتميز عنها تميزاً كبيراً ، ولكنه لا ينفصل عنها إلا انفصالاً نسبياً فقط . أما اتجاه النمو فيعتمد على التدرجات الفسيولوجية الخاصة بالكائن العضوى ككل — وهذه التدرجات تنشط عن طريق انبعاث الجهد . كما أن المرمى البعيد لها هو نمو التركيب والوظائف ، وتخصصها إلى الحد الذى تقرره التدرجات على الاستجابة لمجالات القوى المحيطة .

النمو والسلوك

هذا التفسير لظواهر النمو يربطها بالسلوك ، بمعنى أن نضوج التركيب الجسمى خصوصاً العصبى العضلى ، يلازمه نمو متزايد فى دقة أداء الوظيفة . فالسلوك ينمو وتزداد تفصيلاته وتزداد دقته بنفس النسبة التى يزداد بها

(٢) المتصل Continuum هو المقدار (السكم) المتماك الذى لا توجد ثغرة أو مسافة بين أجزائه .
الترجمان

التخصص في الجهاز العصبي . وقد لوحظ هذا في دراسة الأجنة . فحركات الأجنة تزداد دقة كلما نضجت وتميزت مرا كز عصبية جديدة من كتلة أعصابها غير المتخصصة أصلاً . وعلى ذلك فقبل أن تنمو الأعصاب التي تغذي عضلات الأطراف لا تتحرك الأطراف إلا كأشياء مدلاة من الجسم ، كما لاحظ ذلك « كوجهل »^(١) في أجنة السلمندر . أما فيما بعد ، حيث تعتمد الأعصاب إلى هذه الأجزاء فإنها تستطيع أن تقوم بحركات كشيء مستقل . ويصدق هذا أيضاً على عضلات الرأس والفك والبلعوم في جميع المخلوقات . وتبعاً لذلك تزداد دقة سلوك الحيوان نحو الغذاء الذي يتضح كشيء ذي معنى خاص في البيئة العامة الغامضة . وعلى ذلك فالسلوك يمكن أن يندرج تحت النمو فتتمحى بذلك التفرقة بين نماذج السلوك الغريزي والسلوك المتعلم ، فيصبح السلوك جميعه عبارة عن وظيفة لدرجة من درجات النضج التي يصل إليها الكائن بجمع بعض الحيوانات والحشرات والطيور الداجنة وما شابهها يولد في حالة نضج من الناحية العملية في حين أن البعض الآخر ينضج بعد الولادة ، فنقول أن الأولى تسلك سلوكاً غريزياً في حين أن الثانية تتعلم عن طريق التمرين والخبرة . إلا أن التجارب قد أثبتت لنا أن الحيوانات التي حرمت فرصة التدريب مدة معينة تستطيع في هذه الأثناء أن تنضج بحيث لا تصبح متأخرة بالنسبة إلى تلك التي كان « تعلمها » طبيعياً .

(1) G.E. Coghill, Anatomy and the Problem of Behaviour
Cambridge, 1929

التعلم والنمو

ما هو التعلم إذن ؟ التعلم سواء في مجال المهارات الجسمية أو التحصيل العقلي هو اكتمال استجابة الكائن الحي للمؤثر الصادر من البيئة . ولا يتأتى ذلك بالتكرار ، إذ أن التكرار بطريقة واحدة جامدة لا يعتبر تعلماً بل وقوفاً في سبيل التقدم والتحصيل . ففي أثناء عملية التعلم يزداد أداء الفعل سهولة في كل مرة يتم فيها ، كما تزداد المعرفة . وذلك علماً بأنه لا يحدث بين مرات التمرين سوى ما سماه علماء النفس القدامى « بالتثبيت » أو تعميق الآثار في المخ . ولكن التحسن الذي يحدث في التمرينات المتأخرة ، لا تستطيع التمرينات المتقدمة في ذاتها أن تفسره . أما إذا فسرنا الحقائق في ضوء فكرة النمو فالتنا نستطيع أن نتجنب جميع الصعوبات التي تواجه في النظريات القديمة للتعلم .

فما هو النمو إذن ؟ إنه - بصرف النظر عن ازدياد الحجم - عملية تخصص وتميز وتنظيم ، وبهذه المعاني ينمو الكائن العضوي أثناء تعلمه . ففي كل مرة يوجد فيها الكائن أمام موقف تعلم ، تحدث اختلافات في الجهد الموجود في التركيب العصبي ، ويصبح المتعلم في حالة توتر بالنسبة لغرض يتطلب مهارة أو معلومات لا يمكن الحصول عليها إلا بتميز في التركيب أدق مما هو عليه . وهناك تشابه كبير بين هذه الحالة والحالة التي يحدث فيها النمو . حتى لقد قال « هويلر » بوجود جهد للنمو كـ تفسير صحيح لا كتساب المهارات والمعلومات .

الذاكرة

وهناك تطبيق آخر لنظرية الجشتالت شديد الارتباط بما سبق أن قلناه بحيث لا يجب أن نغفله حتى في هذه النبذة القصيرة عن النظرية . لقد أظهرت تجارب الذاكرة في استرجاع وإعادة تكوين الرسوم التخطيطية ، أن هناك ميلين رئيسيين في هذا النوع من التذكر . فنحن نميل من ناحية إلى الدقة في إظهار المعالم البارزة أو المعالم التي لها معنى في الرسم . ومن ناحية أخرى نميل إلى أن نسوى الرسم بأجمعه حتى يصل إلى شكل أكثر اتزاناً . وبالرغم من تعارض هذين الميلين فإن نتيجهما هي الاحتفاظ بالشكل كشيء « مستحب » بقدر الإمكان . فما هو الضوء الذي يمكن أن تلقيه هذه الحقائق على الذاكرة في مظاهرها الثلاثة : الاحتفاظ والاسترجاع والتعرف ؟ ، إننا لا نستطيع طبعاً أن نتذكر شيئاً لم يدخل في خبرتنا ألبتة ، كما أنه لا معنى لأن نفترض حدوث آثار أو « ممرات » تظل غير فعالة في المخ بشكل ما في الوقت الذي لا نتذكر فيه الشيء ، أو تكون عندنا أي خبرة عنه ^(١) . فإذا سلمنا بذلك يتحتم علينا ألا نفترض وجود أي احتفاظ . إذ لا يحدث شيء فيما بين التجربة والاسترجاع . وكذلك لا يصير هناك استرجاع بالمعنى العادي للكلمة ^(٢) ، لأنه لا يوجد ما « يسترجع ثانياً » . ويبقى علينا إذن أن نفترض أن ما يحدث في الواقع عندما

(١) يقصد المؤلف هنا أن ينتقد النظرية التي كانت تعتمد في تفسيرها لعمليات التذكر ، على فكرة أن الآثار التي تحدثها المؤثرات الخارجية ترصد في الجهاز العصبي ، ويحتفظ بها .
(الترجمان)

(٢) أي استرجاع الآثار المرصودة في الجهاز العصبي .
(الترجمان)

نذكر ، هـو تنظيم تشكيلة من الجهود العصبية مشابهة لتلك التي حدثت في التجربة الأصلية ، وذلك تحت تأثير مؤثر موجود بالفعل . ويكفي أن يكون ذلك المؤثر الموجود بالفعل مجرد جزء من المؤثر الأصلي ، وعلى ذلك يصبح الاسترجاع إعادة معرفة . أى أن ما أدرك سابقاً يعرف مرة ثانية ، وإن كان ذلك يحدث بشكل أضعف وأقل وضوحاً ، مما يرجع إلى طبيعة المؤثر الحالى باعتبار أنه مؤثر غير كامل .

مراجع

- K.Koffka, Principles of Gestalt Psychology, London, 1934.
W. Kohler, Gestalt Psychology, London, 1930.
R.H. Wheeler, The Laws of Human Nature, London, 1931.

الفصل السادس

المذهب الهورمي^(١) أو المذهب الغرضي

هناك نظرية أخرى من أهم النظريات التي وضعها الباحثون في الوقت الحاضر لتفسير مشكلات علم النفس ، تلك هي نظرية الغرائز . فقد حدث منذ أيام داروين^(٢) ، وانتشار نظرية التطور بين الناس ، تقدم عظيم في فروع علم

(١) كلمة « هورم » مأخوذة من كلمة يونانية معناها : الدفعة الحيوية . والفكرة التي يدل عليها هذا اللفظ في المذهب الهورمي ، ما يقابلها عند الفلاسفة والمفكرين الآخرين ، أمثال « شوپنهاور » في كلامه عن « إرادة الحياة » The Will to Live و « برجسون » في كلامه عن « الدفعة الحيوية » Elan Vital و « يونج » في كلامه عن الليبدو Libido (المترجمان)

(٢) Charles Darwin (١٨٠٩ — ١٨٨٢) من أعظم علماء الأحياء ، جمع كثيراً من المعلومات والحقائق أثناء رحلته المشهورة على ظهر الباخرة « بيجل » Beagle ووضع نظريته المشهورة في أصل الأنواع والانتخاب الطبيعي ، فكانت أساساً لفكرة التطور التي طبقت على جميع مظاهر الحياة .
أهم كتبه :

أصل الأنواع The Origine of Species

وأصل الانسان Descent of Man

والتعبير عن الانفعالات عند الانسان والحيوان The Expression of

Emotions in Man and Animal

(المترجمان)

النفس المقارن ، التي تبحث في الملكية الحيوانية والشعوب البدائية ومرحلة الطفولة . ذلك أن ملاحظة سلوك الحيوان — سواء في ميدان النشاط الطبيعي أم تحت ظروف التجريب ، وكذلك أبحاث الأنثروبولوجين ^(١) ، والأبحاث العميقة التي تناولت تطور عقول الأطفال وتنوع سلوكهم منذ الولادة ، كل ذلك ألقى ضوءاً عظيماً على دوافع الفعل الانساني ومصادره . فقد ثبت أن دوافع السلوك الانساني هي — في الواقع — نفس الدوافع الموجودة عند الكائنات الدنيا التي هي أصل الانسان ، وذلك بالرغم من أن سلوك الانسان يميزه في الظاهر عن تلك الكائنات ، لدرجة اعتقد معها الناس قديماً أن هذا السلوك إنما يصدر عن العقل الذي يتبع الخير ، (ذلك الخير الذي اختلف الناس في تصويره فتصوروه على أنه السعادة أو السرور أو الهدوء أو ماشابه ذلك) . كما ثبت من ناحية أخرى أن « الغرائز العمياء » الموجودة لدى الحيوان ليست عمياء على الإطلاق ، بل إنه ليجد في كل درجة من درجات الرق في سلم التطور ، قدر معين من الذكاء — مهما كان بسيطاً — يوجه القوى التي تحفز الحيوان على الفعل ليحصل على الأغراض التي هيأتها له الطبيعة .

وقد أيدت كل هذا ، الحقائق التي جمعها علماء النفس عن عقلية الأطفال وبخاصة فيما يتعلق بظاهرة نمو التأزر بين الأفكار والحركات عندهم ، وبالتحصيل

(١) الأنثروبولوجيون ، هم علماء الأنثروبولوجيا ، وهو العلم الذي يبحث في الانسان من النواحي الآتية ، الخصائص الجسمية ، والجنسية ، والجغرافية ، والتوزيع التاريخي للانسان ، والبيئة الثقافية ، ونمو المجتمع ؛ والدين ، والأخلاق .
(المترجمان)

اللغوى والعب وما شابه ذلك ، مما أدى إلى القول بنظرية تلخيصية ^(١) لتفسير التطور في الناحية العقلية كما فعل علماء الأجنة فيما يتعلق بتطور أعضاء الجسم . وقد يوجد بعض القصور في الأدلة المستمدة من علم الانسان (الأنثروبولوجيا) في هذا المجال ، وهو ما يجب أن نتوقعه في ضوء النظريات الحديثة التي تبحت في التطور . ومع ذلك فإن معلوماتنا عن عادات الشعوب البدائية الساذجة وتقاليدها وأساليبها تبين تغلب الغرائز عندهم على الذكاء كدوافع للسلوك ، إذا ما قارنا هذه العادات والتقاليد بالثقافات الراقية الموجودة في الوقت الحاضر . وقد أدى هذا المنهج الذى يعتمد على دراسة السلوك الحيوانى بوجه خاص إلى ما يسمى بعلم النفس الهورمى أو الغرضى ، وهو المذهب الذى يقول إن السلوك يصدر بوجه عام عن الدوافع والبواعث والمثيرات الداخلية الموجودة عند الانسان والحيوان والى يثيرها مثير مناسب من البيئة الخارجية . ويرمى هذا المذهب إلى بيان أنه من الممكن إرجاع أعقد أنواع النشاط الانسانى وأرقاها ، سواء كان اجتماعيا أو أخلاقيا أو سياسيا بل ودينياً ، إلى أصولها من الاشكال البسيطة للسلوك الحيوانى . وبذلك يكون هذا المذهب قد استفاد من نظرية التطور في توضيح الظواهر والعمليات النفسية عند الكائنات الحية بنفس الطريقة التى وضحت

(١) النظرية التلخيصية Recapitulation Theory وهى النظرية التى تذهب إلى أن الفرد يعيد في نموه تاريخ الجنس الذى ينتمى اليه ، سواء أكان ذلك في تكوينه ، أم في سلوكه . وهذه النظرية تحدد أحياناً فترة التلخيص بالفترة التى يكون فيها الفرد جنيناً ، أو بمرحلة الطفولة الأولى ، وأحياناً تمتد هذه النظرية حتى تشمل التطور الثقافى ، والعصور الثقافية .

(المترجمان)

بها الظواهر والعمليات الجسمانية عندها . ولم يبق بعد ذلك إلا البحث عن المبادئ
التي تفسر لنا مجموعة الحقائق التي تقع تحت ملاحظتنا .

خصائص السلوك

وتتضح لنا بعض هذه المبادئ إذا ألقينا نظرة على كل ما تمكن ملاحظته
من ظواهر السلوك عند مختلف أنواع الحيوان . فنجد أولاً أن كل سلوك يتصف
بخصائص تميزه عن الفعل الآلي البحث . ويدكر وليم مكدوجل^(١) - وهو

(١) انظر . An Introduction to Social Psychology, London, 1930.

William Mc Dougall (١٨٧١ - ١٩٣٨) ولد في لنكشير والتحق
بجامعة كمبردج ، وعين محاضراً في يونيفرستي كوليدج في لندن لعلم النفس ثم في
اكسفورد ، وفي سنة ١٩٢٠ رحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصبح أستاذاً
لعلم النفس في جامعة هارفارد ، وبقي هناك حتى سنة ١٩٢٧ ، ثم انتقل إلى جامعة
ديوك . وهو يعتبر من أكبر أساتذة علم النفس .

أهم مؤلفاته :

علم النفس الفسيولوجي (١٩٠٥) Physiological Psychology
مقدمة لعلم النفس الاجتماعي (١٩٠٨) Introduction to Social Psychology
وعلم النفس : دراسة السلوك (١٩١٢) Psychology, Study of Behaviour
والعقل الجمعي (١٩٢٠) The Group Mind
ومختصر علم النفس (١٩٢٣) Outline of Psychology
ومختصر علم النفس الشواذ (١٩٢٦) Outline of Abnormal Psychology
والطاقات البشرية (١٩٣٢) Energies of Man

(المترجمان)

من أبرز علماء هذا المذهب - بعض هذه الخصائص المميزة للسلوك وهي .

أولاً - أن كل شكل من أشكال السلوك يتضمن - على العكس من الحركات الآلية - نزوعاً تلقائياً نحو هدف معين . ثانياً - أن هذا النزوع لا ينتهي إلا عندما يصل الكائن الحي إلى هذا الهدف . ثالثاً - أن الحركات الجسمية التي يتكون منها السلوك ليست جامدة بل تتغير تغيراً لا حده . رابعاً - أنه على الرغم من أن بعض أعضاء الكائن الحي تنشط أكثر من غيرها ، إلا أن الحيوان ككل هو الذي يقوم بالسلوك دائماً . وأخيراً فإن تكرار استجابة سلوكية لموقف معين يؤدي إلى درجة ما من التحسن في معالجة هذا الموقف . على أن هناك اختلافاً في درجة الثبوت أو التغير أو التحسن . فإذا كانت درجة الثبوت عظيمة ، ودرجة التحسن والتغير قليلة ، كما هو الحال في معظم سلوك الحشرات ، كان السلوك من النوع الذي نطلق عليه غالباً اسم « السلوك الغريزي » ، مع أن هذه الخصائص وحدها لا تكفي لتحديد كلمة غريزة . وعلى أي حال فإن أهم ما تجب ملاحظته على سلوك الحيوان في كل هذا ، هو مظهر السعي وراء الهدف ، وهو عبارة عن نضال في سبيل الحصول عليه مع شيء من التكيف والتغير والتحسن في وسائل الحصول . وهذا هو معنى الغرضية .

الغرض

ولكن هل ينبغي علينا أن نفترض أن كل سلوك يتضمن وجود غرض ما حتى عند أدنا الحيوانات ؟ تتوقف الإجابة عن هذا السؤال على معنى كلمة غرض . وهل نقصد بها مجرد الغرض الذي ندركه نحن إدراكاً واضحاً عندما نرغب متعمدين إلى غرض معين من وراء سلوكنا ، ثم نبدأ في وضع خطة للوسائل التي يمكن بها أن نصل

إليه . الواقع أنه ليس ثمة سبب وجيه يدعونا إلى وضع هذا التحديد لمعنى الغرض .
فوضوح الغرض في الذهن أو رسم خطة للوصول إليه كلاهما لا يمدنا بالقوة الدافعة
التي تبعثنا على العمل . ثم إننا نحن أنفسنا غالباً ما نقوم بأفعال نسلم بأنها إرادية أو
غرضية ، في حين أنها تكون موجهة نحو أهداف هي غاية في الغموض في ذهننا
ولم نفكر بعناية في وسائل تحقيقها . ولا يجب أن ننكر^(١) على الحيوانات الدنيا
كل قدرة على التفكير - كما يفعل ديكارت - بل أنه من الأحكم أن نعترف بقرابتنا
التطورية للحيوانات جميعها ، وأن نسلم بقدرتها على الفهم والتنبؤ كل بحسب
درجته ونوعه . هذا إلى جانب وجود دوافع ومثيرات تدفع هذه الحيوانات إلى
تحقيق أهداف تشبه الأهداف التي نشعر بها ، كالحفاظة على البقاء واستمرار
النوع . وينطبق هذا على جميع الحيوانات ، حتى ولو كانت من أخطر
الأنواع .

الغرائز

والآن ما هي طبيعة هذه القوى العليا التي تدفع إلى السلوك عند الإنسان
والحيوان ؟ ليس هناك أفضل من أن نأخذ بتعريف «مكدوجل» للغريزة ، فهي
« استعداد نفسي جسعي موروث أو فطري يفرض على صاحبه أن يدرك ، وأن
ينتبه إلى أشياء من نوع معين ، وأن يفعل إنفعالا خاصاً عند إدراك مثل هذه
الأشياء ، وأن يسلك تجاهها سلوكاً خاصاً ، أو أن يشعر على الأقل بدافع إلى مثل
هذا السلوك » . وبذلك يكون للغريزة مظهران ، باعتبار أنها تفسير لتلك الميول

الفطرية التي تدفع إلى أنواع معينة من السلوك . فهناك التركيب العصبي العضلي الموروث الذي يقوم بالحركات ، والذي هو على استعداد لأن يعمل وفقاً لنموذج محدود إذا ما وجد المؤثر المناسب . هذا النموذج — كما سبق أن رأينا — ليس ثابتاً بل إنه قابل للتغير بطرق متعددة . فإذا كان التركيب العصبي بكميته مكوناً من أربعة أجزاء ، وهي عضوا الحس المستقبل وارتباطاته العصبية الواردة التي تصل إلى المركز الخفي ، والمنخ ومعه لحاؤه ان وجد ، والوصلات العصبية بين المركز الخفي وأعضاء الجسم الداخلية بما فيها الغدد الصماء ، والأعصاب الصادرة التي تسير من المركز إلى العضلات التي تستخدم في السلوك الظاهري ، فأننا نستطيع أن نميز في الظاهرة العقلية أجزاءً أو مظاهر موازية لهذه الأجزاء . فهناك الإدراك الحسي الذي يعتبر مؤثراً مناسباً ، والانفعال المرتبط به ، والفعل أو الميل إلى الفعل الذي يأخذ أحياناً مظهر التنجى عن الفعل أو مظهر القيام به . فالإدراك الحسي يقابل السيالات العصبية التي تسير من العصب المستقبل إلى المركز الخفي ، والانفعال يقابل السيالات الصادرة والواردة من الأعضاء الداخلة إليها . والنزوع إلى العمل أو محاولة العمل يقابل السيالات الصادرة إلى العضلات المنفذة . والتعديلات الممكنة في هذا التركيب بأكمله يمكن أن تحدث في الجزءين الأول والأخير . فالأعضاء المستقبلية المكيفة تكيفاً فطرياً بحيث تقوم باستجابة لنوع معين من المؤثرات ، غالباً ما تستجيب لأنواع أخرى من الأشياء غير تلك التي كانت تستجيب لها في الأصل ، وإذن فالاستجابة الغريزية للهروب ، التي تبدو لدى كثير من الحيوانات وأطفال الإنسان ، وهي الإنكماش أو السجود عند سماع صوت مرتفع ، قد ترتبط بشيء لم يكن يؤبه له من قبل . ونحن نشير على القارئ بأن يرجع إلى الفصل السابع حيث يجد شرحاً للتجارب التي أجريت لبحث استجابات الخوف لدى الأطفال الصغار ، والتي استخلص منها

أن نماذج السلوك الفطرية يمكن أن تثيرها أشياء أخرى كثيرة غير الأشياء الأصلية التي كانت تثيرها ، فتقوم الأولى بوظيفة الثانية كبديل لها . وتتخذ هذه الأشياء البديلة مكانها بطريقتين مختلفتين ، هما طريقا تعديل السلوك الغريزي البحث ، وذلك بربطه بدائرة من المؤثرات نزداد إتساعاً باستمرار . والطريقة الأولى ، هي طريقة « الترابط الاقتراني » وذلك عند ما يدرك المؤثران : الأصلي والبديل معاً . أما الطريقة الثانية : فهي طريقة « الترابط بالتشابه » وذلك عند ما يكون هناك تشابه بين المؤثر الفعلي والبديل ، فيحل الأخير محل الأول . وهاتان الطريقتان « الترابط بالاقتران » و « الترابط بالتشابه » يزيدان من عدد الأشياء التي يمكنها أن تثير الغرائز ، زيادة عظيمة ، وخاصة عند الحيوان الراقى والانسان . كما أن مدى السلوك الغريزي يأخذ في الاتساع أيضاً إذا نظرنا إليه من ناحية أخرى هي ناحية عدد الغرائز .

عدد الغرائز

ما هو عدد هذه الاستعدادات الفطرية الموروثة التي يمكن أن تميز بعضها عن البعض الآخر ؟ يذكر « مكدوجل » في كتابه « مختصر علم النفس » (١) ثلاث عشرة غريزة كبيرة ، وعدداً من الغرائز الصغيرة ، وهذه الغرائز هي أساس سلوك الثدييات ، وهي المنابع الأساسية للسلوك الانساني أيضاً ، وهي تتميز في الأصل بالانفعالات الأولية التي تصحبها في أثناء نشاطها ، وبالفرض الذي تسعى إلى تحقيقه ، أو الذي ترمى إليه ، وبالسلوك الذي ينشأ عن كل واحدة منها . وعلى ذلك نستطيع في حالة الانسان أن نميز بسهولة الانفعالات

الخاصة بالغرائز الكبيرة . كالهرب ، والغريزة الجنسية ، وغريزة الحماية أو الوالدية .
ونستطيع بسهولة أن ندرك الاختلافات الأساسية في الأهداف التي ترمى
إليها كل واحدة من هذه الغرائز (وهي في هذه الحالات المحافظة على الذات ،
واستمرار النوع) . ويتضح لنا أن الحيوانات الأخرى تتجه أيضاً نحو مثل
هذه الأهداف إتجاهاً فطرياً بيولوجياً ، وذلك مما هو ظاهر من نضالها في سبيل
الحصول على هذه الأهداف . كما أنه في إمكاننا ، في أحيان كثيرة ، أن نستنتج
من سلوكها وجود حالات إنفعالية يمكن مقارنتها بالحالات الانفعالية عند
الإنسان . ويصدق هذا خاصة على غريزة المقاتلة ، وانفعال الغضب الأولى
المصاحب لها . وهذه الغريزة تختلف عن الغرائز الأخرى — ما عدا غريزة
حب الاستطلاع — في أن الذي يستثيرها ، ليس موضوعاً واحداً ، أو عدة
موضوعات ، بل إنها تستثار نتيجة معارضة أى نشاط غريزي آخر ، حتى غريزة
الهرب ، فهي تثيرها إذا ما وجد حائل بينها وبين ما تهدف إليه ، إذ ينقلب
الحيوان الهارب على من يتابعه إذا ما حوصر فلم يجد مهرباً .

قابلية السلوك للتنوع

وزيادة على ما سبق أن بحثناه فيما يتعلق بامتداد النشاط الغريزي إلى
الأمور التي لم يكن يرتبط بها في الأصل ، يجب أيضاً أن ننظر إلى الجهاز
العصبي ، وأعضاء الحركة التي تستطيع الكائنات الحية بوساطتها أن تصل
إلى أهدافها الغريزية . ففي هذا المجال أيضاً توجد قابلية عظيمة للتنوع ،
تحدد تبعاً لمستوى الحيوان . فالسلوك يتحدد أو يتخذ شكلاً جامداً كما في
الحشرات مثلاً ، ليس فقط لأن الناحية الإدراكية في الغريزة محدودة تحديداً
كبيراً ، بل لأن التركيب العصبي العضلي أيضاً تركيب محدود غير قابل للتعديل

إذا ما قورن بالتركيب العصبي العضلي للفقریات ، وخصوصاً الإنسان .
 وفضلاً عن هذا ، فإن الحشرة تخرج من الدودة في حالة نضوج من الناحية
 العملية ، لدرجة أنها لو زادت نضوجاً ، فلن يؤدي بها هذا ، إلا إلى القليل من
 المرونة في السلوك . وأما في الإنسان فان غرائز قليلة هي التي تنضج أولاً ،
 بينما تنضج معظم غرائزه فيما بعد ، تحت تأثير الميول الفطرية العامة ، أي
 المشاركة الوجدانية ، والتقليد ، واللعب ، والاستهواء ، وهي التي تعمل على
 تعديل نماذج الاستجابات الغريزية الأصلية . وبجانب هذا سرعان ما يلعب
 الذكاء دوره في حياة الطفل ، فيسيطر على نماذج السلوك المرنة التي يرمى
 منها إلى الحصول على أهدافه الغريزية ، أو الأهداف المشتقة منها . ونظراً
 لوجود هذا العامل ، ونظراً لمرونة الجهاز العصبي العضلي الذي يقوم بالحركات عند
 الإنسان ، لم يكن من الممكن أن نكشف عن الصورة الغريزية الأولى للسلوك
 الإنساني ، إذ أن الطرق التي يستطيع بها الإنسان أن يحقق أهدافه لا حصر
 لها ، ما جعل التنبؤ بما سيفعله غير ممكن إلى حد كبير . وهذا هو السبب
 في أن سلوك الإنسان لا يشبه بأي حال السلوك الغريزي النموذجي .

ومن الغرائز الأخرى التي ذكرها ما كدوجل غريزة حب الاستطلاع
 وانفعالها التعجب . وهذه الغريزة كغريزة حب المقاتلة ليس لها مثير معين ،
 بل إنها تدفع إلى الانتباه إلى أي موضوع قد يثير غريزة أخرى . وذكر كذلك
 غريزة البحث عن الطعام ، وغريزة النفور ، وغريزة التجمع ، وغريزة التملك
 وغريزة البناء ، وغريزة الاستغاثة ، وغريزة الخضوع ، وغريزة السيطرة .
 ومن الممكن توضيح السلوك المرتبط بهذه الغرائز ، وأمثلة كثيرة مأخوذة من عالم
 الحيوان والإنسان ، إلا أن للغريزتين الأخيرتين أهمية خاصة في حياة الجنس

البشرى الأخلاقية والاجتماعية ، كما سيتضح عند الكلام عن انتظام الغرائز
في شكل عواطف

الانفعالات والعواطف

سبق أن قلنا : إن معظم الغرائز الموجودة عند الانسان ، تتضمن وجود
انفعالات أولية نموذجية تميزها بعضها عن بعض ، ولكن هناك خلاف ذلك
حالات انفعالية عديدة هي مزيج ، أو مركب ، من هذه الانفعالات الأولية ،
وتنشأ عند ما تستثار عدة غرائز في وقت واحد . ويفسر لنا مزج الانفعالات
الأولية . ذلك الثراء الخاص الذي نشاهده في حياتنا العاطفية ، والذي تعبر عنه
اللفة بالفاظ متعددة . وتتصل كل من الانفعالات الأولية والانفعالات المركبة
بموضوعات معينة ، أشياء ، أو أشخاص ، أو مثل عليا كما سنرى . ويدلنا هذا
على وجود نظام معين للاستعدادات الغريزية حول هذه الموضوعات ، وهؤلاء
الأشخاص . ويطلق على هذه النظم اسم العواطف . ويمكننا أن نوضحها ،
بأن نضرب مثلاً بعاطفة الحب أو الكراهية نحو شخص من الأشخاص . فعاطفة
الحب تتميز عن انفعال الحب ، أو انفعال الحنو الخاص بغريزة الوالدية ، بأنها
تتضمن عدة استعدادات غريزية ، أو انفعالية يستثار كل منها حسب الظروف
المختلفة التي قد يوجد فيها موضوع العاطفة . فإذا كنا نكن الحب لشخص ما ،
فإننا لا نشعر فقط بالحنو عند ما نفكر في المحبوب ، بل نخشى عليه أيضاً حين
يكون في خطر ، ونفرح حين تنجح مشروعاته ، ونحزن لفشله ، ونغضب من
أعدائه ، أو ممن يعتدى عليه ، ونلومه لو أساء معاملتنا . أما من نكرهه فإنه
يشير غضبنا ، ويبعث فينا الغيظ ، إذا ما حالفه النجاح ، ونفرح إذا ما أصابه الفشل .

وإذا كنا نرى في سلوك بعض الحيوانات ما يدل على وجود عواطف من هذا النوع . كما في حالة حب الكلب لسيده ، فإن العواطف الانسانية لا يقتصر محيطها على الأشياء الجزئية ، أو الأفراد فحسب ، بل تمتد في معظم الأحيان ، حتى تشمل جميع أفراد الجنس (فحب الأم لابنها قد يمتد إلى غيره فيشمل الصغار المحتاجين إلى المساعدة . الخ .) . وقد تمتد العاطفة إلى الأشياء شبه المجردة كالمدسة ، أو الوطن ، أو المذهب ، كما في حالة التحزب ، أو الوطنية ، أو تكريس الانسان حياته في سبيل غرض ما . وقد تمتد العاطفة إلى المثل العليا المجردة مثل الأمانة ، أو الفضيلة ، أو الطهارة ، أو الواجب .

اتساع دائرة العواطف

إن امتداد عاطفة الأم إلى غيرها بنها ، قد يفسر على أساس الترابط بالتشابه ، ولكن امتداد العواطف إلى المعاني المجردة والمثل العليا يتطلب تفسيراً أكثر من هذا . فمن الواجب أن نبين أولاً كيف تنشأ المعاني والمثل العليا في أذهاننا ثم نبين بعد ذلك كيف تنتظم الاستعدادات الغريزية حولها . ففما يتعلق بالمشكلة الأولى توجد نظريات متعددة تفسر تكوين المعاني المجردة . إلا أن من الممكن أن نشير إلى نظرية سبيرمان في قوانين الفكر ^(١) باعتبار أنها قد تزودنا بالمبادئ التي تنشأ بمقتضاها في ذهننا ما يكون خبرتنا من علاقات ومتعلقات . فكل هذه أمور مجردة يمكن أن ترتبط بطرق عدة فتكون معاني مركبة مجردة نستطيع

أن نتأملها ، وإن لم يكن من اختصاص العالم النفسى أن يختبر صحتها . إلا أن هذه المعانى المجردة لا يمكن أن تكون فى ذاتها دوافع للسلوك بل توجد الدوافع فى العاطفة التى تنتجها إلى المعنى المجرد أو المثل الأعلى . وإذا ما بحثنا عاطفة اعتبار الذات التى يدخل فى تكوينها الشعور الذاتى الموجب ، والشعور الذاتى السالب اللذان يتعلقان بغيرتى السيطرة والخنوع ، فائنا نجد فيها قوة فعالة تدفع إلى السلوك الذى يهدف إلى أكثر المثل العليا تجريداً ، فالرجل الذى يحترم نفسه كل الاحترام ، والذى توجد لديه هذه المثل العليا سيجاهد حتماً للوصول إليها . وقد تكون هذه العاطفة سبباً فى استثارة الغرائز الأساسية الواحدة بعد الأخرى . فيشتق الانسان من هذه الغرائز الطاقة التى يدعم بها نشاطه . وحتى على فرض أن هذه المثل العليا وهمية فإن على علماء النفس أن يفسروها ما أمكنهم باعتبار أنها حقائق فى الحياة الانسانية . ولا يقل عنها ، فى كونها حقيقة ، أن بعض الناس يعتز اعترافاً عميقاً بعواطف الصداقة أو الوطنية أو الإحسان . وأن البعض يتحملون الاضطهاد فى سبيل أداء الواجب ، أو يضحون بأرواحهم فى سبيل عقيدتهم .

لقد رسمنا فى نهاية الفصل الرابع صورة موجزة للإنسان من وجهة نظر علم النفس ، ويمكننا الآن أن نكمل تفاصيل هذه الصورة من طريق علم النفس الغرضى أو « الهورمى » . فالإنسان ليس مكوناً من عدة غرائز فطرية يوجهها الذكاء نحو الأهداف البيولوجية للاعتبارات والمنافع الفردية والجنسية فحسب بل إنه مجموعة هذه الغرائز وأكثر ، ما دامت استعداداته الغريزية تميل إلى أن تنتظم فى عواطف يتجه بعضها نحو الأمور المجردة . هذه العواطف هى التى تجعل الحياة الاجتماعية ممكنة ، بل وكذلك الحياة الأخلاقية . وفوق ذلك إذا كان الغرض أو الهدف البيولوجى أكثر تمييزاً فى سلوك الحيوان فائنا — كبشر —

نستشعر في أنفسنا غرضا نفسيا شعوريا ، ونشعر بأننا نهدف قصداً إلى غايات أو أهداف قلما نحققها — وهذا مما يسبغ على الحياة الانسانية معنى ، ويعلى من شأن الكفاح البشرى .

مراجع (١)

W. Mc Dougall, An Introduction to Social
Psychology, London, 1936

An Outline of Psychology, London, 1928.

A.C. Garnett : The Mind in Action, London, 1931.

(١) ويمكن أن نضيف إلى هذه المراجع كتاب « محاضرات في علم النفس »
للدكتور عبد العزيز القوصى ، القاهرة سنة ١٩٤٧

(ع — ٧)

الفصل السابع

المذهب الاستبطاني والمذهب السلوكي

الواقع أن كلا من اصطلاحي « المذهب الاستبطاني » و « المذهب السلوكي » يعتبر تسمية غير صحيحة للدلالة على مذهب معين في علم النفس إذا ما أردنا الدقة في التعبير . إذ أن الاستبطان وملاحظة السلوك كلاهما عبارة عن منهجين من مناهج البحث في علم النفس أكثر من أن يكونا نظريتين من نظرياته . وكلا المنهجين يستخدمهما علماء النفس في بحوثهم أيا كانت المدرسة التي ينتمون إليها (فيما عدا مدرسة واحدة) . ولو أن علماء النفس في الماضي كانوا يختلفون في تأكيد أحد هذين المنهجين دون الآخر . ولا يحتمل أن نجد اليوم إلا القليل من الاستبطانيين أمثال كولب (١) وتشنر (٢) ، اللذين كانا يبحثان عن عناصر

(١) Kulpe (١٨٦٢ - ١٩١٥) أحد علماء النفس الألمان ، درس على يدي فونت في لينزج وأسس مدرسة فرتزبورج التي اهتمت بالتحليل التجريبي للعمليات العقلية والأرادية على أساس التأمل الباطني ، وكان بالإضافة إلى ذلك فيلسوفا فقد ألف كتاب « المدخل إلى الفلسفة الحديثة » الذي قام بترجمته الدكتور أبو العلا عفيفي (القاهرة ؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢)

(المترجمان)

(٢) Titchner (١٨٧٦/١٩٢٧) من علماء النفس في أمريكا تتلمذ على يد فونت وهو من أنصار مذهب الاستبطان
أهم مؤلفاته :

مختصر علم النفس (١٨٩٦) Outline of Psychology

الشعور ، في حين يوجد عدد لا بأس به من العلماء الذين يؤيدون ما يعرف اليوم على وجه التحديد بالمذهب السلوكي ، في صورته المخففة على الأقل .

الاستبطان باعتباره منهجا علميا

والاستبطان باعتبار أنه منهج علمي ، مألوف في علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس على السواء . فقد استخدمه عالم الطبيعة مثلاً في بحثه طبيعة الضوء عندما كان يدير القرص المظلي بعدة ألوان ، ثم يسأل المشاهد عن اللون الذي يراه ، فيجد أن اللونين الأحمر والأخضر يظهران كما لو كانا لوناً رمادياً . وإذن فقد كانت الإجابة التي يحصل عليها عالم الطبيعة تعتمد على الاستبطان . وكذلك استخدم عالم الفسيولوجيا هذا المنهج في بحثه وظائف الحواس . كما حدث في تجربة مرور شيء ملون مثلاً عبر المجال البصري ، وملاحظة أن المناطق المختلفة في شبكية العين ، تستجيب استجابات مختلفة لمؤثر واحد . ففي بعض المناطق نرى اللون ، وفي البعض الآخر لا نراه . وقد استخدم هذه الطريقة أيضاً علماء النفس والفسيولوجيا معاً في بحثهم الإحساسات وتحليلها . فالنظر والسمع والشم والذوق واللمس تمدنا بعدد لا نهاية له من الخبرات أغلبها خليط من آثار أولية أكثر بساطة . وقد عرفنا عن طريق الاستبطان أن عناصر الذوق مثلاً أربعة فقط (الحلو والحامض والمالح والمر) . أما جميع الطعوم الأخرى ، فإنها تتعقد بما يدخل

= وعلم النفس التجريبي (١٩٠١) Experimental Psychology

وعلم النفس التجريبي للعمليات الفكرية (١٩٠٩) Experimental Psychology
of the Thought processes

(المترجمان)

ففيها من إحساسات أخرى تتعلق بالروائح وبجاسة اللمس . وبالمثل فإن الاحساسات الأولية للرؤية أرجعت إلى ثلاثة أزواج (أبيض - أسود ، أحمر - أخضر ، أزرق - أصفر) . أما جميع الألوان الأخرى التي ندركها فانها مزيج من هذه الألوان ولم يقتصر عمل الاستبطان على تحليل الاحساس بل شمل أيضا العمليات العقلية الأخرى . فقد حاول العلماء الحصول على وصف استبطاني كامل لما يجري في العقل عندما تقارن أثراً ما بأثر آخر مثلاً ، أو عندما نتذكر أو نسترجع موضوعاً ما ، أو عندما نحل مشكلة أو نحكم أو نختار ، وذلك رجاء اكتشاف العناصر المكونة لهذه العمليات العقلية العليا وما شابهها . إلا أن ثمة صعوبة أساسية اعترضت العلماء في هذه الناحية ، هي أن المفحوصين في أغلب الأحيان لم يكن لديهم من المادة ما يمكن أن يذكروه في أثناء الفترة التي يستبطنون فيها . أما ما كانوا يذكرونه فلم يكن بوجه عام تقريراً عن العناصر المكونة للخبرة ، بقدر ما كان تقريراً عما تدور حوله التجربة . فعلى العكس مما كان يحدث في التجارب الأولى التي كانت تجري على الاحساسات ، حيث كان المفحوص يدلي بالتقرير عن الخبرة بشكل مباشر وصحيح (فيقول مثلاً أرى شيئاً أحمر ، أو أحس حرارة) كان المفحوص في هذه التجارب التي أجريت العمليات العقلية العليا يقول مثلاً « كنت أفكر في الوقت الطويل الذي أخذته مني الاستجابة ، وقد ذكرني هذا بأن التعليمات كانت تطلب مني أن أستجيب بسرعة » ، ومثل هذه التقارير لم تكن تدلنا على العناصر الانشائية الموجودة بالفعل في العمليات العقلية العليا أو على الأقل كانت تدلنا على القليل منها .

الاتجاهات العقلية

إلا أننا قد حصلنا مع ذلك على نتائج هامة باستخدام هذا المنهج الاستبطاني . ذلك أن عدم وجود بعض الحقائق التي كان ينتظر وجودها في التقرير ، قد أوحى ببعض التفسيرات . فقد وجد في التجارب التي أجريت على الاختيار مثلا أن الاختيار الفعلي كان يحدث بشكل آلي باستمرار تقريبا . فبعد أن يدرك المفحوص من التعليمات أن عليه أن يختار اختياراً إرادياً بين أشياء ستعرض عليه بعد قليل ، يصمم على الاختيار . ولذلك فإنه يتخذ اتجاهها عقلياً معيناً هو الذي يعمل تلقائياً في الاختيار . ولم يسفر الاستبطان عن وجود أى عنصر إرادى أو صفة إرادية في الفترة التي تقع بين عرض الأشياء والاختيار الفعلي . وإن كانت التقارير تدل على وجود أنواع مختلفة من الشعور ، واتجاهات عقلية ، وصور ، وأفكار . وقد اكتشف نوع مشابه من (الاتجاه العقلى) عند إجراء تجارب الرجوع . حيث يكون على المفحوص أن يرفع إصبعه عن مفتاح حالما يشعر بمؤثر معين . وكذلك في تجارب الاستجابات اللفظية ذات العلاقة المعينة أو المحددة من قبل . حيث يكون على المفحوص أن يرد بكلمة ذات علاقة معينة على كلمة تعرض عليه . (كأن يطلب منه مثلاً أن يأتى بعكس كذا . . .) . ولم يؤكد المفحوصون فى كل من هاتين الحالتين وجود أى تصميم إرادى أو شعورى فى الفترة التى تقع بين المؤثر والاستجابة . وفى كلتا الحالتين تظهر الإرادة قبل القيام بالتجربة . وتتفق هذه الاتجاهات الإرادية مع نتائج أبحاث سابقة أجريت على المقارنة ، واستخدم فيها المنهج الاستبطانى أيضاً . وفى هذه التجارب كان يؤثر على المفحوص بمؤثرين متتاليين ثم يسأل أيهما أقوى من الآخر . وكانت النتيجة تفسر على أساس أن المفحوص يحتفظ بالمؤثر الأول فى شكل صورة عقلية ، بحيث

يستطيع أن يقارن المؤثر الثانى به . إلا أن الاستبطان أثبت أنه لا توجد فى أغلب الأحيان مثل هذه الصور العقلية ، التى يقارن بها المؤثر التالى . بل أن الحكم على هذا الأخير بأنه أقوى أو أضعف من الأول ، يتم دون الالتجاء إلى أى عملية استبطانية بالمرّة . فكيف يتم ذلك ؟ رؤى بعد ذلك أن المقارنة تعتمد على اتجاه يحدثه الأثر الأول . ونستطيع أن نرى كيف يمكن أن يحدث ذلك ، بمقارنة الأتقال بعضها ببعض بواسطة رفعها . إذ عندما يكون الثقل الثانى أخف من الأول ، فإننا نلاحظ أنه يرفع بسرعة أكبر ، فى حين أنه إذا كان أثقل ، فإن الحركة تكون أبطأ . وقد وضحت هذه الحقيقة بصورة تدعو إلى التعجب فى تجارب أخطاء الوزن والحجم ، حيث يرفع المفحوص اسطوانتين على التوالى ، إحداها صغيرة والأخرى كبيرة ، مع تساويهما فى الوزن ، أو إحداها خفيفة والأخرى ثقيلة مع تساويهما فى الحجم . وعلى ذلك فبالرغم من أن الاتجاه العقلى ليس عنصراً من العناصر المكونة للشعور ، كالإحساس أو الوجدان أو الصور العقلية ، إلا أنه يمكن أن يستنتج من عدم وجود التصور ، أو من إنكار وجوده فى التقرير الاستبطانى . ولهذا أهميته عظمى فى تفسير الكثير من ألوان النشاط الذى يحدث فى الحياة اليومية . فقد لا تكون هناك ضرورة لوجود إرادة حقيقية فى أخذ القبعة من المشجب ولبسها ، ولكن مع ذلك فإن هذا الفعل يسمى فعلاً إرادياً . لوجود تصميم إرادى سابق كالتصميم على الخروج للنزهة مثلاً .

التفكير الخالى من الصور ، والنشاط العقلى

وترتبط مسألة عدم وجود الصور فى حالات كالتى سبق أن ذكرناها ، بما

اكتشفه جماعة الاستبطنيين في موضوع التفكير الخالي من الصور ، ذلك الموضوع النفسى الذى قامت حوله ضجة كبرى فى آخريات القرن السابق وأوائل القرن الحالى . وهو هل يصحب تفكيرنا واستدلالنا صور بصرية أو لفظية (أو أى نوع آخر من الصور) ؟ أم إننا نفكر بدون صور بالمره ؟ لقد قامت أبحاث عددهم للإجابة على هذا السؤال . وبعض هذه الأبحاث بسيط ، كالمشكلات التى أعطاها (بنيه) للأطفال كى يقوموا بحلها . وقد وجد أنهم ينكرون وجود أى نوع من أنواع التصور فى أثناء حل هذه المشكلات . وبذلك استنتج أن هناك عناصر فكرية أو أفكار لها قيمتها التى توازى قيمة الصور البصرية والصور اللفظية . وقد أجريت تجارب أخرى على الحكم ، بعضها سهل والآخر صعب جداً من حيث الاجراء ، وقد اكتشف فيها الباحثون حالات متعددة للتفكير الخالي من الصور ، كما اكتشفت الاتجاهات الشعورية التى سبق أن ذكرناها . وعلى ذلك فقد أفادنا التأمل الباطنى فائدتين محددتين فيما يتعلق بالعمليات العقلية العليا . هذا إلى جانب فائدة أخرى سبق أن بيناها وذلك فيما يتعلق بتذكر المقاطع الصماء ، إذ قد أظهر الاستبطان أن هذا النوع من التذكر ليس نتيجة لمجرد تقبل عقل سلبى لمادة يرتبط بعضها ببعض بطريقة آلية ، بل أن العقل يكون فى حالة نشاط إلى حد كبير جداً فى أثناء التعلم .

ولقد أثبتت اعتراضات قوية ضد القول بأن التفكير يمكن أن يحدث فى شكل أفكار خالية من الصور . وقد حمل لواء هذه الاعتراضات جماعة الاستبطنيين المحافظين^(١) الذين اهتموا باكتشاف العناصر المكونة للخبرة ، أى العناصر

(١) انظر E. B. Titchner, Lectures on the Experimental Psychology of the Thought processes, New York 1909.

التي تكون تفكيرنا ، أكثر من اهتمامهم بكيفية هذا التفكير . ولكن الأبحاث التي سبق أن أشرنا إليها لم تكشف عن عناصر العمليات العقلية العليا ، بل إنها ألقت ضوءاً على العمليات نفسها . ولذلك ربما كان من الصعب أن ندافع عما قال به هؤلاء النقاد .

ملاحظة السلوك

إلا أن هناك هجوماً أعنف على مذهب الاستبطينيين ، سواء منهم المحافظين ، أم غير المحافظين ، حمل لواءه جماعة السلوكيين بزعامة . ج - ب وطسن . إن ملاحظة السلوك كانت تستخدم كطريقة للبحث في علم النفس منذ أمد طويل ، إلا أن السلوك كان يفسر حينئذ بعبارات شعورية استبطانية . فقد أجريت عدة تجارب على الإنسان والحيوان بمواجهته بمواقف مشكلة ، وكان سلوك الحيوان ، وسلوك الأطفال في مثل هذه المواقف ، يفسر على ضوء ما يقوم به العقل الإنساني من عمليات نعرفها عن طريق الاستبطان . فالحيوان والأطفال لا يستطيع أن تستبطن ، وإن استطاعت فإنها لن تستطيع أن تعبر عن حالتها النفسية ، إلا عن طريق سلوكها . فإذا كنا سنعتبر علم نفس الطفل ، وعلم نفس الحيوان فصولاً في علم النفس العام كان من الضروري

(٢) J.B. Watson (١٨٧٨ - ١٩٥٠) عالم من علماء النفس الأمريكيين ، ومؤسس المدرسة السلوكية ، درس في جامعة شيكاغو ودرس بها ثم عين أستاذا لعلم النفس في جامعة جون هوبكنز سنة ١٩٠٨ واستمر يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٠ ثم تركه للاشتغال بالأعمال الحرة . وقد ورد ذكر أهم مؤلفاته في آخر هذا الفصل .
(المترجم)

أن نربط بين الاستبطان وملاحظة السلوك بهذه الطريقة .

ولقد كان . ل . ك ثورنديك من رجال الطليعة في هذا المجال . ونتائج تفسيره للسلوك على هذا النحو جد معروفة . ومن تجاربه الرائعة تلك التجربة التي درس فيها الطريقة التي تتعلم بها قطرة جائعة كيف تخرج من صناديق يمكنها أن ترى الطعام من خلال قضبانها . وقد كان الخروج يقتضى من الحيوان أن يمسك بسقاطات ، أو عرى من الحبال يفتح بها الباب فيتمكن من الحصول على الطعام . وقد وجد ثورنديك أن المحاولات الفاشلة التي لا توصل إلى الغرض ، كمحاولة الحيوان أن يندفع خلال القضبان ، أو يجرى حائراً في الصندوق أو يخذشه ، أو ما إلى ذلك ، مثل هذه المحاولات ، تحل محلها بالتدريج ، حركات كانت تتوج نتيجتها في الحال بالنجاح ، وذلك بعد تمرين يستمر عدة أيام . ففي أثناء التمرين يصادف أن يجذب الحيوان المزلاج ، أو يدفع السقاطة ، أثناء محاولاته العمياء للخروج ، وقد يحدث ذلك مراراً ، وبذلك يتعلم الحيوان شيئاً فشيئاً كيف يخرج ويحصل على الطعام . ولم يظهر في منحنيات الزمن التي تبين التقدم منذ البداية حتى يتم التعلم ، أى انخفاض فجائى ينم عنه ظهور البصيرة فجأة . بل إن ما كان يظهره المنحنى دائماً ، هو اكتساب تدريجى للعادة . ومن هذا استنتج ثورنديك^(١) أن القطط لا تتعلم كيف تخرج، عن

(١) T. L. Thorndike (١٨٧٤ -) من أشهر علماء النفس الأمريكان في الوقت الحاضر ، تتلمذ على وليم جيمس وكاتل ، واتجه إلى الناحية التجريبية في علم النفس كما اهتم بالناحية التربوية منه ، ولا يزال حتى الوقت الحاضر يوالى أبحاثه . وله آراء هامة في التعلم والذكاء .

طريق أى عملية استدلالية . كما لا يحتمل أن يكون تعلمها عن طريق ترابط بين الأفكار^(١) ، بل عن طريق المحاولة الخطأ . فالحركات الصحيحة تثبت بالتكرار وتحذف الحركات الخاطئة نتيجة لعدم تكرارها . وإلى جانب قانون (الاستعمال وعدم الاستعمال) هذا ، أضاف ثورنديك ، قانون (النتيجة) الذى ينص على أن الروابط بين المؤثر والاستجابة المشبعة تقويها لذة النجاح ، فى حين تضعف الروابط القائمة بين المؤثر والاستجابة التى لا تؤدى إلى الاشباع . ويتمشى هذا التفسير مع نظرية الترابط التى كانت لا تزال قائمة فى ذلك الوقت . ولأن الترابط عند ثورنديك عبارة عن ترابط بين مؤثر واستجابة ، وليس ترابطاً بين أفكار . ثم إن مثل هذا التعلم لا يمكن أن يفسر بأنه راجع إلى التقليد ، أو بأن الحيوان يمكنه القيام بالحركات الناجحة دون أى تجربة . إذ أن القطط التى لم تتعلم بعد كيفية الخروج ، عندما وضعت فى الصناديق مع قطط أخرى تعلمت بالفعل كيف تخرج منها ، لم تظهر عليها أى علامة تدل على أنها استفادت من رؤيتها لما تقوم به هذه القطط الأخيرة . وبمعنى آخر : فإن مشاهدة الحيوان الحركات الصحيحة ، لم يفده فى تعلمها . بل كان لابد أن يتعلم عن طريق مجهوداته الخاصة ، أى عن طريق المحاولة الخطأ .

= ذكاء الحيوان (١٨٩٨) Animal Intelligence

وقياس التوائم (١٩٠٥) Measurement of Twins

وعلم النفس التربوى (١٩١٠) Educational Psychology

وقياس الذكاء (١٩٢٧) The Measurement of Intelligence

والتعلم عند الإنسان (١٩٣١) Human Learning

(١) E.L. Thorndike, Animal Intelligence. New York, 1911

المؤثر والاستجابة

هذا التفسير لعملية التعلم عند الحيوان (وللكثير من التعلم عند الانسان أيضا) ، وكذلك قصر مجال علم النفس على الاستبطان ، وعلى تحليل عناصر الخبرات الشعورية ، كل ذلك مهد السبيل إلى ظهور صورة من المذهب السلوكي ، حذف منها الشعور تماماً ، وفسر على أساسها سلوك الانسان - كما فسر سلوك الحيوان - بالمؤثر والاستجابة وحدهما . ولم يكن من الصعب أن توضع جميع المشكلات السيكلولوجية القديمة ، وكذلك حلولها هذا الوضع الجديد ، إذ أن ذلك لم يستلزم أكثر من تغيير الاصطلاحات العادية ، بل تغيير معناها فقط في بعض الأحيان . وبذلك أصبحت الاحساسات ، والصور ، والصبغة الوجدانية التي تصحبها ، أى ما كان يعتبر قديماً عناصر الشعور ، أصبحت استجابات لمؤثرات حسية من أنواع مختلفة . وكان العالم النفسى ، إذا لم يتمكن من ملاحظة هذه الاستجابات ، يسمح للمفحوص بأن يدلى بتقرير لفظى عن حدوثها كأن يقول مثلاً : أرى « لوناً أحمر » عند ما يعرض عليه مؤثر بصرى ، أو « أرى لوناً أخضر » عند ما تكون الاستجابة عبارة عن صورة بعدية سالبة يراها المفحوص بعد زوال المؤثر . إلا أن هذا التقرير لم يكن يعتبر استبطاناً بقدر ما كان يعتبر تقريراً للحقيقة الواقعة ، تقريراً يقبله العالم النفسى ، كما يقبل عامل الطبيعة مثلاً ، التقرير بأن ذلك الشئ أحمر .

وعند ما يقرر المفحوص وجود صورة عقلية ، أو حالة انفعالية ، فإن العالم النفسى ، ولو أنه لا يستطيع أن يدرك هذه الأشياء ، إلا أنه يكون عالماً بأن المفحوص إنما يستجيب بحركات غير مرئية ، أو بدوافع لحركات ، أو بردود أفعال

تحدث في أعضاء الجسم الداخلية وتثيرها مؤثرات موجودة بالفعل . وعلى ذلك فالاستجابات السلوكية تنقسم إلى استجابات ظاهرية ، واستجابات باطنية ، استجابات ملاحظة واستجابات غير ملاحظة . ولو أن الأخيرة يمكن بحسبها باستخدام آلات مسجلة دقيقة .

ومن الاستجابات الباطنية : اللغة اللاصوتية ، أو الكلام الباطني ، وهو الذي يفسر به السلوكيون التفكير . وتنقسم الاستجابات السلوكية أيضا إلى متعلمة ، وغير متعلمة ، أو إلى غرائز وعادات ، وذلك سواء أ كانت ظاهرة أم باطنية . وقد كانت خطة المذهب السلوكي أن يعتبر جميع أنواع الاستجابات المتعلمة التي تكون السلوك المكتمل ، مشتقة من استجابات أصلية غير متعلمة . وذلك دون أن تكون هناك حاجة للجوء إلى الشعور . وقد حاول وطسن أن يفعل ذلك أولا باستخدام مبدأ الترابط المؤثر بين الاستجابة . ذلك المبدأ الذي ينقسم إلى فرعين هما مبدأي التكرار والحدائثة . فاذا طبقنا ذلك على القطط مثلا ، نقول حسب رأيه : أن الحركات الناجحة قد تعلمتها القطعة ، لأنها تكررت أكثر من غيرها . كما أنها كانت آخر خطوة في عملية الخروج من الصندوق . وعلى ذلك فالسلوك المتعلم ينشأ عن السلوك غير المتعلم عن طريق الترابط ، وعن طريق إضافة أنواع جديدة من المؤثرات تصير ملائمة لإثارة استجابات طبيعية ، لارتباطها بالمؤثرات التي كانت تثير هذه الاستجابات بطبيعتها . أضف إلى ذلك أن السلوك المتعلم نفسه يتعدل بطرق عدة . فيفسر التفكير مثلا بأنه لغة لاصوتية ، ويقال : إن حركات اللغة الداخلية قد حلت محل الاستخدام اليدوي للأشياء ، وهو الاستجابة الفطرية غير المهدبة .

الفعل المنعكس الشرطي

لم يمض وقت طويل على انتقال فكرة الفعل المنعكس الشرطي من روسيا إلى أمريكا ، حتى استحوذ عليها السلوكيون ، باعتبار أنها من أهم مبادئ التفسير بالنسبة للمذهب السلوكي .

وقد نشأت هذه الفكرة عند العالم الفسيولوجي بافلوف (١) ، من ملاحظته لظاهرة معينة في أثناء دراسته لعملية الهضم . فقد لاحظ بافلوف ، عندما كان يجري تجاربه على الكلاب ، أن إفراز اللعاب وهو فعل منعكس طبيعي لتذوق الطعام ، يحدث بعد مضي وقت قصير نتيجة لرؤية الإغذاء الذي يحتوي الطعام ، أو الحارس الذي يقدم الطعام للحيوان ، وذلك قبل تقديم الطعام نفسه . وقد أوحى ذلك بفكرة إمكان إحلال مؤثر ، لم يكن من شأنه إثارة الفعل المنعكس ، محل المؤثر الذي كان يشيره بطبيعته . وعلى ذلك جرب بافلوف مؤثرات ، ليس من شأنها أن تثير الفعل المنعكس ،

(١) وكذلك بمخترين الذين بحث نفس المشكلة .

وبافلوف Pavlov (١٨٤٩-١٩٣٦) من العلماء الروس وكان له فضل اكتشاف الفعل المنعكس الشرطي .

وأهم مؤلفاته :

الأفعال المنعكسة الشرطية . Conditioned Reflexes

أما بمخترين Bechterew (١٨٥٧ - ١٩٢٧) فقد توصل إلى نفس الحقيقة عن طريق دراسته للجهاز العصبي وأطلق على الفعل المنعكس الشرطي الفعل المنعكس المصاحب

Associated Reflexes

وأهم مؤلفاته :

علم النفس الموضوعي La Psychologie Objective

(الترجمان)

كصوت الجرس ، أو الدق ، فوجد أنه إذا ما سبق أحد هذه الأشياء تقديم الطعام عدة مرات ، فإن اللعب يسيل عند سماعها ، حتى ولو لم يعقب ذلك تقديم الطعام . ومع ذلك فإن هذا الفعل المنعكس الشرطي ، كما كان يدعى ، يزول إذا ما تكرر دق الجرس دون أن يعقبه تقديم الطعام . وقد تمكن بافلوف بتقديم الطعام ، وعدم تقديمه مع إحداث أصوات من شوكت رنانه ذات نغمة غليظة أو رفيعة على التوالي ، تمكن بذلك من أن يسيل اللعب كاستجابة لإحدى هذه الدرجات الصوتية ، دون الأخرى . كما أنه بتقليله من الفروق في الدرجات الصوتية بين الشوكت ، تمكن من إسالة اللعب ، كاستجابة لنغمة تختلف عن نغمة أخرى بما يعادل نصف نغمة من السلم الموسيقي . وقد نسب هذه النتائج إلى وظائف خاصة في المخ ، وهي تكوين ، أو حذف أفعال منعكسة شرطية من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، انتخاب المؤثرات التي تقترن بها الأفعال المنعكسة إقتراناً شرطياً ، من بين مئات من المؤثرات الأخرى . وقد اعتقد بافلوف أن كل تعلم يحدث بهذه الطريقة . وقد اعتبر السلوكيون أن هذه النتائج تتفق تماماً مع طريقة تفسيرهم للسلوك ، دون الرجوع إلى الشعور . وقد سارت تجارب واطسن نفسه في الاستجابات الانفعالية الشرطية عند الأطفال على نفس النهج . فالانفعال عند السلوكيين عبارة عن تغيرات حشوية وغددية تحدث في داخل الجسم إلى جانب حركات ظاهرية تحدث في الجذع والأطراف والرأس ، وما شابهها . ويعبر عن الانفعال فطرياً ، بأشكال قليلة من السلوك يميز منها « واطسن » ثلاثة نازج هي : الخوف ، والغضب ، والحب . فالطفل الصغير جداً يستجيب بسلوك الخوف (أي بالصراخ ، أو الارتعاد ، أو الرعدة أو الفرغ) مثلاً عندما يسمع أصواتاً عالية ، أو يشعر بفقد السند . ولكنه لا يظهر أي

خوف من وجود حيوانات كالفيران . إلا أنه إذا ما حدث صوت عال مفاجئ ، في كل مرة نرى فيها الطفل فأراً ، فلن يمر وقت طويل حتى يصيح ويرتعد فرقا منه ، بدلا من أن يمد إليه يده كما كان يفعل من قبل . وقد يستمر حدوث هذا فيما بعد حتى ولو لم يكن هناك صوت . كما أنه يصيح ويرتعد أيضاً من الأشياء التي تشبه الفيران ، كالحيوانات الصغيرة الأخرى ، أو قطع الفراء ، أو ما يشابهها . والواقع أن هذا ليس فعلاً شرطياً منعكساً بالمعنى الصحيح ، إلا أنه يشبهه إلى حد كبير ، باعتبار أنه استجابة شرطية . وتعتبر عملية ربط الاستجابات الطبيعية بمؤثرات جديدة تفسيراً للتعليم بأجمعه عند السلوكيين . بحيث أن الطفل تمكن تنشئته ، بحيث يكون ذا شخصية معينة إذا ما وفرنا له البيئة والتربية المناسبة . فالطبع بالنسبة للتطبيع لا قيمة له في رأيهم .

ونستطيع أن نلخص النقط البارزة في المذهب السلوكي فيما يأتي : إنكاره للشعور بالمعنى الذي كان يفهمه به الترابطيون والاستبطنيون (وليس في هذا إنكار بأننا نشعر) ، وقصر موضوع علم النفس على دراسة السلوك الظاهري والباطني ، وتفسير التفكير بأنه حركات ، وعلى الأخص بأنه كلام باطني ، وتفسير الانفعال بأنه تغيرات حشوية ونفسية وغددية ، والذاكرة بأنها تجديد لاستجابات تعودية ، سبق أن اكتسبناها ، وكذلك بأنها إثارة الحركات الحشوية من جديد ، وأخيراً إنكار الغرائز وجميع الصفات العقلية الموروثة أيما كان نوعها .

مراجع

- F. Aveling The Consciousness of the Univeresal London 1912
N. Ach, Uber die Willenstatgkeit und das Denken,Gottingen,1905
 Uber den Willensaht und das Temperament Leibsig, 1919
J.B. Watson Behaviour, An Introduction to Comparative
 Psychology, New York 1913
 Psychology from the Stand Point of a Behaviourist,
 Philadelphia,1929

الفصل الثامن

اختلاف الآراء واتفاقها

قد يكون تعدد طرق البحث ، وميادينه ، وتعدد وجهات النظر ، وتعدد المبادئ التي تفسر الظواهر النفسية ، وكذلك الأسس الفلسفية التي تقوم عليها هذه المبادئ ، مما أشرنا إليه جميعه في الفصول السابقة التي تبحث في مدارس علم النفس الرئيسية المعاصرة ، قد يكون ذلك كله مما يؤثر على القارىء فيجعل له يرى علم النفس في حالة يرثى لها ، إن لم ينكره إنكاراً تاماً . ذلك أن مثل هذا الخلط ، ومثل هذا التعارض ، لا يوجدان في أى علم آخر من العلوم الطبيعية . حقاً إنه لا تزال لكل من علوم الكيمياء ، والنبات ، والطبيعة ، ووظائف الأعضاء مشكلاته التي يحاول العلماء حلها ، إلا أن في كل علم من هذه العلوم مادة معترفاً بها إغترافاً صريحاً . ولكل علم من هذه العلوم مبادئه المتفق عليها في تفسير ظواهره . كما أن كل علم منها قد رتبت حقائقه الأولى في كتلة متماسكة من المعلومات ، لا يناقشها أحد . ولكن الأمر يبدو على خلاف هذا فيما يتعلق بعلم النفس ، ذلك أن علماءه لم يتفقوا اتفاقاً تاماً ، حتى على ميدانه ، أو تعريفه ، أو منهجه .

ومع ذلك فاننا إذا ما راجعنا موقف علم النفس في الوقت الحاضر ، يتضح لنا مقدار ضخامة الأبحاث التي أجريت ، والتي لا تزال تجري في ميادينه المختلفة . وبالرغم من التنافس والاستقلال الظاهري لكل مذهب من المذاهب

السيكولوجية ، إلا أن بينها في الواقع اتفاقاً كبيراً قد لا يبدو لمن يدرسها دراسة سطحية . وقد يكون أسوأ مظهر في موقف علم النفس اليوم ، هو عزلة كل مذهب من هذه المذاهب عزلة يصعب أن نعرف السبب الذي أدى بها إلى هذا الحد ، ما دام كل منها يستطيع أن يقوم بشيء ذي قيمة في سبيل إقامة علم كامل موحد . وقد يكون السبب في ذلك هو حداثة هذا العلم وتأخره ، أو أنه لم يتخلص - كما يظن البعض - من ارتباطه بالفلسفات المتعارضة ، ولم يقف بعد على قدميه . وقد يرجع السبب إلى أن حماس كل عالم نفسي لاكتشافه مبدأ يفسر بصورة يقينية بعض الحقائق التي هي في حاجة إلى تفسير ، يعميه عن قيمة غيره من المبادئ التي تفسر حقائق أخرى ، ويؤدي به هذا إلى محاولة تعميم مبدئه ، بحيث يشمل جميع الحقائق . وقد يكون السبب ، على أسوأ الفروض ، راجعاً إلى العداوة التي تثيرها المعارضة ونقد الآراء ، مما كان في الاستنطاعة التغلب عليه ، لو أن النقاش كان أقل حرارة وأقرب إلى الطريقة العلمية . ومهما كان السبب الذي دعى إلى الخلاف ، فإن من المؤسف حقاً أن تكون نقط الخلاف هي التي تؤكّد دائماً في حين تغض العين عن نقط الاتفاق . وسنحاول فيما نأتى به هنا من لمحة عابرة للنظريات الحديثة أن نؤكد مواضع الاتفاق أكثر مما نؤكد مواضع الخلاف .

النواحي الأدبية والنواحي العلمية

يمكن أن نقول أولاً إن من الواجب أن تكون لكل من الناحية الأدبية والناحية العلمية مكانتها في أى مذهب سيكولوجي مقبول . ومعنى هذا أنه يجب أن نعمل حساباً لمجال خبرتنا بأجمعه ، وأن نحاول ملاحظته ووصفه كما فعل أصحاب

مذهب الاستبطان . فاذا فشلنا في أن نكشف بالتفصيل عن « العناصر » الأخيرة التي تتكون منها خبرتنا الشعورية ، فإن في المحاولة نفسها ما يستحق منا عناء التعب . فقد أرشدتنا هذه المحاولة - كما رأينا - إلى الطريقة التي يعمل بها العقل حين يفكر ويشعر ويريد ويفعل . كما أفادتنا أيضا في فهم ديناميكية الاتجاه العقلي ، والتفكير الخالي من الصور ، وأوجه النشاط الأساسية التي يتضمنها التعلم . بل وفضلا عن هذا فإن طريقة التأمل الباطني هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها أن ننفذ إلى الحياة الانفعالية عند الإنسان ، إلى أفراحه ومخاوفه ، وآماله وآلامه ، وأحزانه وأشجانه . فمن المؤكد أن كلاً منا لا يستطيع أن يدرك الحياة النفسية الباطنية لأي شخص سواه إدراكا مباشرا ، في حين أن هذه الحياة الوجدانية ، هي التي تثير اهتمامنا أكثر من غيرها ، كما أننا نعتقد أنها ذات أهمية عظمى بالنسبة للآخرين . حقا أننا إذا ما استبعدنا هذه الناحية الأدبية من علم النفس ، فإنه يصبح علما شبيها بالعلوم الطبيعية ، ولكن كم سيكلفنا هذا ؟ إننا بذلك سنخرج من علم النفس مقدارا كبيرا من الخبرات ، بل سيسقط حقه في أن يُسمّى باسمه .

تفسير السلوك

ومن ناحية أخرى فإنه ينبغي ألا نهمل دراسة السلوك حتى من وجهة نظر أشد السلوكيين تطرفا . ومما لا شك فيه أننا إذا لاحظنا السلوك ملاحظة موضوعية ، نستطيع أن نفسره بأكثر من طريقة واحدة : فنفسره بالرجوع إلى شعور الشخص نفسه ، أو بافتراض أن الموقف الذي يثير السلوك له معنى بيولوجي غير معروف ، أو معنى سيكولوجي معروف للكان الحى الذي يستجيب له . وقد

نفسره أيضا على أساس وجود ارتباط طبيعي بين مؤثر واستجابة ، يمكن أن تحمل محله ارتباطات أخرى ، تأخذ فيها مؤثرات جديدة مكان المؤثرات الطبيعية ، على غرار ما يحدث في الأفعال المنعكسة الشرطية التي تحدث عنها بافلوف . وليس هناك خطأ في اتباع أية طريقة من هذه الطرق في التفسير . والواقع أننا إذا أردنا أن نطبق حقائق علم النفس على جميع أفراد الجنس البشرى (بل وعلى الحيوان أيضا) يجب أن نضمنه المادة العلمية ، التي نستخلصها من ملاحظة السلوك (بما فيه الكلام) . إذ أن هذه المادة هي الشيء الوحيد الذي يتيسر لنا الحصول عليه . ويمكننا أن نكون دقيقين كل الدقة في اختيار المعاني التي نستخدمها في تفسير هذه الحقائق ، وفي وضع القواعد التي تفسر على أساسها . كما يمكننا أن نستبعد الشعور من تفسيراتنا كلما أمكن ذلك . ولكن يجب ألا ننسى حقيقة هامة ، وهي أن السلوكيين أنفسهم يعترفون بأهمية التقرير اللفظي . ويكشف لنا هذا الاعتراف عن صلة لا تزال قائمة بين المذهب السلوكي والمذهب الاستطباتي .

السلوك والخبرة

ومن ناحية ثالثة فإن النظرية الغرضية ، أو الهورمية تربط السلوك بالخبرة ربطا وثيقا . فهي تضع يدها بالضبط على الحياة الباطنية الوجدانية والنزوعية التي تدفع الكائن الحي إلى العمل . والحقائق التي تعتمد عليها هذه النظرية مأخوذة من المصدرين التوأمين ، وهما : الاستبطان ، والملاحظة الخارجية لسلوك الحيوان والإنسان . كما أن المبادئ التي تستخدمها في تفسير هذه الحقائق هي إما مأخوذة من الخبرة مباشرة ، أو مستنتجة منها .

و « الغرض » هو أحد هذه الحقائق . ونحن نشعر به بشكل واضح محدد عند ما نختار اختياراً حراً ، وعند ما نقوم عن وعى بعمل من الأعمال يؤدي بنا إلى الوصول إلى الهدف الذى نرمى إليه . ولكن فى الوقت نفسه فان النشاط الذى نرمى من وراءه إلى الحصول على غرض ، وكذلك السلوك الذى يؤدي فى الواقع إلى أهداف مفيدة ، بل وضرورية من الوجهة البيولوجية ، كل ذلك تمكن ملاحظته فى جميع المملكة الحيوانية . وفيما يتعلق بنا نحن بنى الانسان ، فان الغرض الذى نرمى إليه يكون واضحاً إلى حد ما . فنحن نقصد إليه بارادتنا ونشعر بأننا نجري وراءه . ومن تحليل تجاربنا يتضح أن هذا الغرض المائل أمامنا ليس فى الحقيقة سبباً ، ولكنه مفتاح ، وموجه للفعل الذى يرجع فى الواقع إلى استثارة استعداد نزوعى نتيجة لوجود مؤثر ما . أما فى حالة الكائنات الدنيا ، فقد يكون الفعل ناقصاً وغير محدد لأن المفتاح نفسه ناقص وغير محدد . وقد استنتجنا ذلك مما هو واضح فى سلوكها من إنعدام الدقة والافتقار إلى التوجيه ومع ذلك فإن مثل هذا الاستنتاج لا يستبعد بالضرورة وجود نوع من الغرض البدائى ، شبيه بغرضنا إلى حد ما . وإذن فان ما قدمته النظرية الغرضية فى علم النفس هو فكرتها عن الغرض ، والميول العامة ، والاستعدادات الخاصة ، أو الغرائز التى تنتظم فتصبح عواطف . وهى لا تتعارض مع المذهب الاستبطانى ، لأنها ، فى جزء منها ، مأخوذة منه ، أو قائمة على أساسه . وهى كذلك لا تتضارب مع المذهب السلوكى إذا ما أخذناه بمعناه الواسع ، أى إذا ما اعترفنا بوجود الصلة التى

تحدثنا عنها . ثم إن لها أيضا علاقات تربطها — كما سنرى — بنظرية التحليل النفسى ، التى تسلم بوجود استعدادات لا نشعر بها ، تشبه الغرائز . وهذه الاستعدادات ، هى التى تكون الـ « هى » ، وتسبب العقد الموجودة فى أعماق النفس . وأخيراً فهى ذات صلة محكمة بالنظريات التى تفسر أصل المعرفة ومصيرها كما ظهرت فى مذهب « نشأة المعرفة » فى علم النفس .

مبادئ تفسير الظواهر النفسية

وعلاوة على ذلك ، إذا تذكرنا أن المذهب الغرضى عبارة عن دراسة تهدف إلى اكتشاف مبادئ تقريبية لتفسير الظواهر التى نلاحظها ، شأنه فى ذلك شأن المذهب الاستبطانى ، ومذهب التحليل النفسى ، ومذهب نشأة المعرفة ، والمذهب السلوكى سواء بسواء ، فلن يكون هناك أى تعارض بين هذا المذهب (أى المذهب الغرضى ، أو أى مذهب من هذه المذاهب) ، وبين مذهب الجشتالت ، أو مذهب الأورجанизم . فجميع هذه المذاهب تستخدم المبادئ الفسيولوجية على اختلاف أنواعها فى بناء نظرياتها . كما أن مذهب الجشتالت لا ينكر ظاهرة الخبرة الشعورية بأى شكل ، بل يحاول أن يفسر هذه الظاهرة على أسس أعمق من الأسس التى استخدمتها النظريات الأخرى . ذلك أنه يعتبر العمليات الفسيولوجية ، التى توازى الخبرة فى نظره ، جزءاً من نظام أساسى طبيعى شامل ، ينتظم فيه توزيع الطاقة إنتظاماً ذاتياً .

ثم إن هذا المذهب يؤكّد التشابه الموجود بين السلوك الإرادى والظواهر الطبيعية ، كسقوط جسم مثلاً ، من حيث أنها جميعاً ترمى إلى تحقيق أهداف . بل إن هذا المذهب يصل إلى أبعد مما وصلت إليه النظرية الغرضية فى استخدام فكرة السعى وراء الغرض . وعلاوة على ذلك فإن فكرة « الإغلاق » هى ، بلغة الفسيولوجيا ، تعبير آخر عن اكتشاف الأهداف عن طريق البصيرة ، واكتشاف الوسائل التى توجه إلى هذه الأهداف ، وهى الفكرة التى تلعب دوراً كبيراً فى النظرية الغرضية . كما أن فكرة الإغلاق تعادل أيضاً فكرة الإدراك الشعورى للعلاقات التى توجد فى سلسلة التفكير المنطقى الذى يؤدى إلى نتيجة واضحة ، وهى الفكرة التى تؤكدها نظرية نشأة المعرفة .

علم النفس الهورمى والتحليل النفسى

وقد سبق أن أشرنا إلى أن مذهب التحليل النفسى يشترك مع المذهب الغرضى فى كثير مما يذهب إليه . فهو يسلم بوجود استعدادات لاشعورية تؤثر على كل من الشعور والسلوك . كما أن العقد النفسية توازى تماماً العواطف العادية ، ولو أن الأولى تكوين مرضى . وكذلك فإن الذات العليا تتكون كما يتكون الضمير فى حدود الشعور الإيجابى والشعور السلبى نحو الذات ، وهما الانفعالات الخاصان بغيرة إثبات الذات وغيرة الخضوع . فالذات العليا — فى نظرية التحليل النفسى — تستحق من الغرائز العدوانية عند الطفل عندما ترتد على نفسها . ثم أنه لا يمكن القول بأن التحليل النفسى — عندما يؤكّد أهمية الأحلام والأوهام والاستعدادات اللاشعورية — يتعارض بأى حال مع مذهب الاستبطان أو مع المذهب السلوكى ، ما دام هذان المذهبان يرجعان السلوك إلى دوافع ومثيرات

لا شعورية تظهر في صورة حيل نفسية أو فسيولوجية . وحتى إذا لم تفسر هذه الدوافع على أنها حيل بل على أنها تنظيمات ديناميكية للطاقة كما تفعل مدرسة الجشتالت ، فأننا نكون عندئذ بصدد مشكلة فلسفية وليسنا بصدد مشكلة سيكولوجية ، ذلك أن التفسيرات النهائية من اختصاص الفلسفة وليست من اختصاص العلم .

نظرية نشأة المعرفة والمذهب السلوكي

وأخيراً لما كانت نظرية نشأة المعرفة تهتم بالمعرفة الشعورية . فإنها لا يمكن أن تتعارض مع أى مذهب آخر إلا بقدر معالجة هذا المذهب لعمليات المعرفة أو رفضه لمعالجتها . وهناك مذهبان فقط في حاجة إلى أن نبحثهما في هذا الصدد ، وهما المذهب السلوكي ومذهب الجشتالت مضافاً إليه مذهب الأورجائزم . وقد رأينا أن المذهب السلوكي يهمل الشعور رغم أنه لا ينكر أننا نشعر . وإذن فاكشاف قوانين الفكر والقوانين الكمية قد يصبح في نظر المذهب السلوكي عملاً لا قيمة له من الوجهة السيكلوجية ؛ لأن السلوكي لا يجد له فائدة في تفسير السلوك . ولكن لا يلزم عن هذا أن القوانين ليست قوانين سيكلوجية صحيحة بصرف النظر عن مدى العلاقة التي يمكن أن تكون لها بالسلوك . ومن الناحية الأخرى إذا أمكن لهذه القوانين أن تفسر كيف نتوصل إلى تكوين المثل العليا الاجتماعية والأخلاقية التي تتجه إليها العواطف الهورمية ، فإن هذا يؤدي إلى خير عظيم ، لأن المذهب السلوكي لا يلقى أى ضوء على المؤثرات التي تدفع إلى سلوك اجتماعي أو أخلاقي صحيح .

نشأة المعرفة والجشثالت

ويبدو أن مذهبي الجشثالت ونشأة المعرفة يتفقان إلى حد كبير في المسائل التي عني بها كل منهما ، وذلك رغم ما قد يوجهه أحدهما إلى الآخر من نقد أو اعتراض . فالمذهبان يجهلان عملية الإدراك تبدأ بكليات موحدة (شكل على أرضية) ثم تتضح بعد ذلك التفاصيل التي تنطوي عليها هذه الكليات عن طريق التحليل . ومن الممكن أن نستشهد على ذلك بشيء بسيط كمثلث أحمر مثلاً ، فما لا شك فيه أن هناك شيئاً آخر غير الحمرة والمثلثية في هذا الشكل لأنه ليس مجرد مجموع هاتين الخاصيتين . فكلتا المدرستين تؤكدان أهمية العلاقات ، إلا أن إحداها تعتبر اكتشاف العلاقات عبارة عن مرحلة من مراحل التفكير الابتكاري تؤدي إلى استنباط المتعلقات ^(١) ، في حين أن الأخرى تعتقد أن البصيرة عبارة عن تحديد معين للموقف ^(٢) كما يحدث عندما يمسك القرد بعصا ويستخدمها كأداة لجذب الطعام إلى داخل قفصه . وهي طريقة أخرى للقول بأن إدراك العلاقة يؤدي إلى رؤية العصا كوسيلة لتحقيق غاية ، أي أنها لم تعد مجرد عصا ، بل أصبحت أداة . وهي بهذا الشكل شيء متعلق بشيء آخر .

تقارب واتفاق

ورغم أن عرضنا هذا للمذاهب علم النفس المعاصرة عرض موجز مركز

(١) أنظر ص ٤٢

(٢) أنظر ص ٧٢ وما بعدها

إلا أننا نرجو أن يكون كافياً لأن يوضح على الأقل بعض نواحي التقارب ونقط الاتفاق بينها ، حتى ولو بدت هذه المذاهب متعارضة لأول وهلة . ولكن مما لا شك فيه أيضاً أنه لا يزال هناك بعض التعارض بين هذه المذاهب . كما أن كل مذهب قد وجهت إليه إنتقادات من أصحاب المذاهب الأخرى أو مؤيديها . وهذا على أى حال دليل على صحة العلم الناشئ وقوته ، وليس دليلاً على ضعفه وانحلاله . فلا يمكن أن تكون نتيجة هذا الانتقاد والتعارض سوى الفائدة . ثم إن المبادئ التى استنتجت من جميع هذه المذاهب قد استخدمت كما سبق أن قلنا استخداماً عملياً بنجاح عظيم فى جميع فروع علم النفس التطبيقي . فإذا لم يعتبر هذا سوى دليل على القيمة العملية فقط للمبادئ ، فانه دليل طيب . إذ أنه لا يرينا فقط أن المبادئ المتنافرة فى الظاهر ليست كذلك فى الحقيقة ، بل يرينا أيضاً أن كل مذهب قد بذل جهده فى سبيل إقامة علم نظري واحد عن طريق امتحان مبادئه بصورة تجريبية .

تطبيقات عملية

لقد توسعت التربية العملية — كما سيتضح بصورة أشمل فى الفصول التالية — فى استخدام الإختبارات العقلية توسعاً كبيراً ، مساهمة فى ذلك بنظرية نشأة المعرفة ، ونظرية العاملين تسليماً صريحاً أو ضمناً . كما أنها قد استخدمت — بصورة آخذة فى الاتساع — طرق التعلم والتعليم بالكليات بدلاً من طريقة الجزئيات ، أى أن تترك التفاصيل الموجودة داخل الكل تتضح للطفل كما تقدم فى المعرفة . وهى بذلك تطبق المبادئ الأساسية فى مذهب الجشتالت ومذهب

الأورجانزم تطبيقاً عملياً . ثم ان المدرس الذى يؤمن بقيمة منهج التحليل النفسى فى تشخيص الأمراض وعلاجها يحيل الأطفال المنحرفين أو غير المتكيفين مع البيئة ، أو الأطفال « المشكلين » ، على العيادات السيكولوجية التى تتكون كل منها من إخصائى نفسى وطبيب مختص فى الأمراض العقلية وإخصائى إجتماعى . وبالإضافة إلى ذلك فإن المدرس باعتباره فنانياً ، يأخذ على عاتقه بناء الخلق إلى جانب كونه مثقفاً أو معلماً ، فيحاول أن يكون عواطف مستحبة فى تلاميذه على أساس متين من الاستعدادات الغريزية . وإذن فهو يعتمد اعتماداً صريحاً أو ضمنياً على الأسس التى قال بها أصحاب المذهب الغرضى . ثم إنه يقضى الجزء الأكبر من عمله فى تكوين أفعال منعكسة شرطية عند من يعلمهم . ولكى يحمل الأطفال على القيام بالواجبات المدرسية العادية فإنه يستدعى فيهم الاتجاهات أو الاستعدادات العقلية التى تساعد على القيام بعملهم والسير فيه . وبذلك نجد آثار السلوكيين والإستبطنيين تظهر فى هذه الصورة .

ويمكن أن نتكلم بنفس العبارة إلى حد كبير إذا ما تحدثنا عن تطبيق الطب النفسى للمبادئ التى وصلت إليها المذاهب المختلفة . فلاجدال فى أن الطبيب النفسى يعتمد اعتماداً كبيراً على التحليل فى الوصول إلى الأسباب الدقيقة فى علل مرضاه ، كما أنه يعتمد على نظرية التحليل فى معالجة هذه العلل . ولكنه لا يحلل ولا يعالج الشخصية إلا باعتبار أنها كل لا باعتبار أنها شىء مجزأ . وهو يحل العقد المرضية بفصلها عن الموضوعات التى ارتبطت بها الميول الغريزية ، وبتحويلها إلى عواطف عادية تتجه إلى موضوعات مفيدة . وبهذه الطريقة ينشئ اتجاهات عقلية راسخة مرغوب فيها ، ويحل الثقة والطمأنينة محل الخوف والقلق ، وهذا أيضاً نوع من الربط .

وعلاوة على ذلك فإنه يسمح للمريض أن يكتشف بنفسه أثناء عمليات التحليل النفسى ماهية العقد التى هى السبب فى حالته ، وأن يتحقق بنفسه من معنى التحويل ، وأن يجد منافذ جديدة لحاجاته الإنفعالية عندما تجىء مرحلة التحويل أثناء عملية التحليل . كل هذه الاكتشافات يقوم بها المريض بنفسه وهى عبارة عن إدراك العلاقات ، وإيجاد لمتعلقات تتفق ووجهة نظره هو .

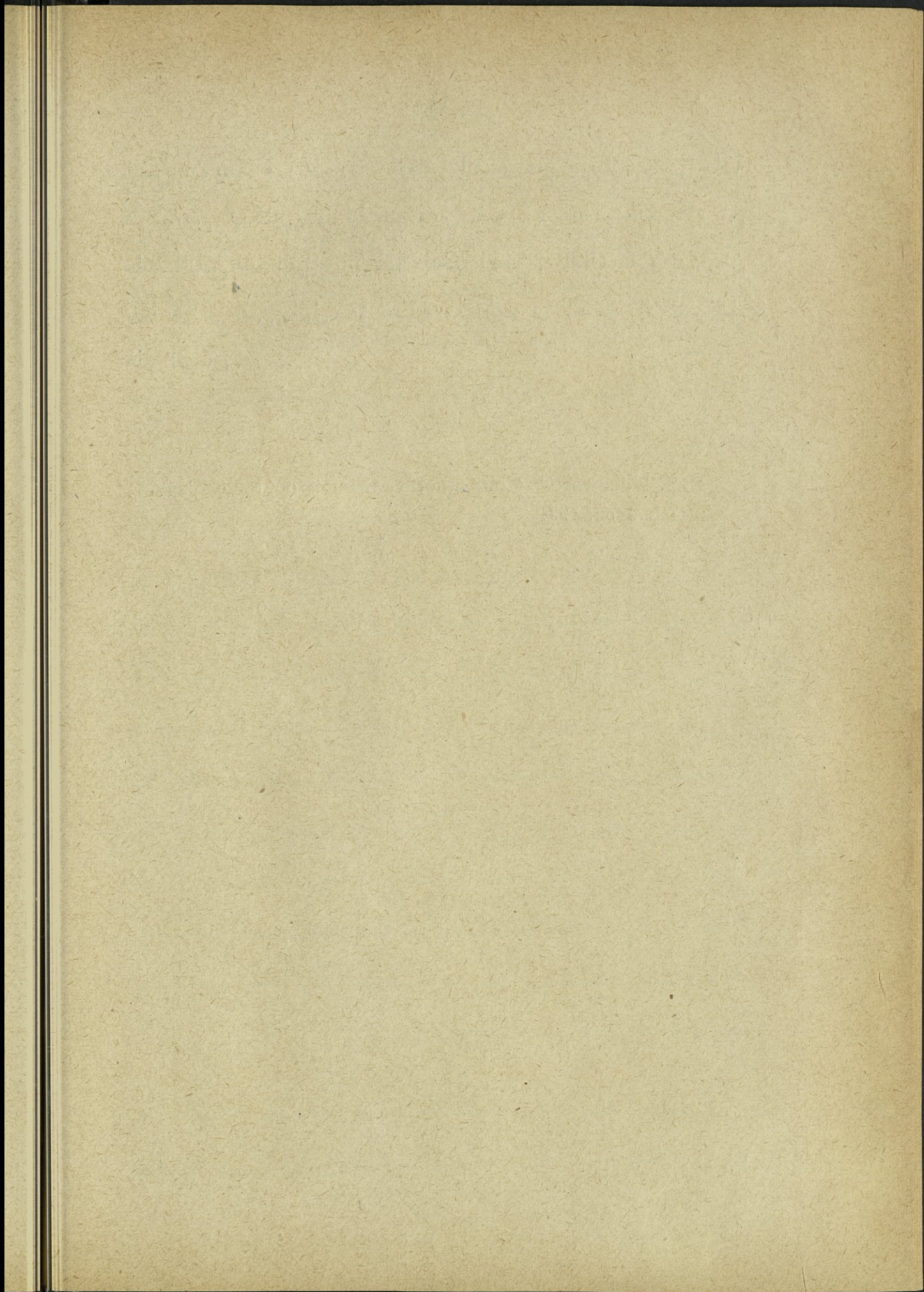
ولسنا فى حاجة هنا إلى أن نحاول القيام بتحليل مماثل للطريقة التى يفيد بها علم النفس الصناعى وعلم الأجرام أو أى فرع آخر من فروع علم النفس التطبيقى من المبادئ التى توصلت إليها المذاهب النظرية المختلفة التى يبدو فى الوقت الحاضر أنها متعارضة كل التعارض . وسيجد القارئ مادة فى الفصول التالية يمكن أن يقوم بتحليلها بنفسه — إذا شاء — حسب المنهج الذى وضعناه فيما سبق ، وإن كان ما قلناه بالفعل كافياً فيما يبدو لى يؤيد وجهة نظرنا فى أن موقف علم النفس اليوم ليس سيئاً كما قد يتبادر إلى الذهن ، وفى أنه من الممكن أن نوفق بين بعض مذاهبه على الأقل . وينبغى ألا يعزب عن بالنا أن الأغلبية العظمى من العلماء الذين يشتغلون بعلم النفس اليوم ، ليسوا أتباع مذهب من هذه المذاهب بالذات ، بل إنهم على أتم استعداد لأن يدخلوا فى علم النفس العام كل ما يمكن قبوله من هذه المذاهب جميعها .

أما مؤسسو هذه المذاهب ، فقد قاموا بعمل ضخم إلى جانب وضعهم للمذاهب ، فقد وضحو لنا عدداً كبيراً من الحقائق التى كانت على علم

النفس أن يجد لها تفسيراً . ووضعوا لتفسير هذه الحقائق قوانين خاصة لا يتعارض الكثير منها فيما بينه وبين نفسه . بل لقد استخدم كثير من علماء النفس هذه القوانين كمكلمة بعضها لبعض . والواقع أنه لا يمكن أن ينشأ أى علم نفس مقبول متفق عليه من الجميع في المستقبل إلا بتكامل هذه القوانين .

مراجع

R.S. Woodworth : Contemporary Schools of Psychology,
London, 1931.



بعض تطبيقات علم النفس

الفصل التاسع

علم النفس التربوى

لقد أفادت التربية فوائد عظيمة من تطبيق علم النفس فى كل ما يتصل بالتواحي العملية منها . وإلى جانب ذلك تغيرت نظرة المعلم ذاته فى السنوات الأخيرة تبعاً لزيادة معرفته بعلم النفس ، فأصبحت بصيرته ، فيما يتعلق بنشاط العقل فى مراحل نموه المختلفة ، أنفذ مما كانت عليه منذ جيل مضى . أى أنه أصبح مَعْدُ الآن ، سواء للتدريس أم للتهذيب ، إعداداً أفضل بكثير من إعداد سلفه . ولقد بدأ الآباء المستنيرون أيضاً يدركون أن فى مقدورهم أن يساعدوا أو يعوقوا تقدم الطفل فى أثناء السنوات المدرسية ، وأن المرحلة التى تسبق المدرسة هى من أهم المراحل فى نمو الطفل العقلى والخلقى ، كما بدءوا يستمدون معلوماتهم عن الأطفال من علم النفس . وكذلك بدأ كل من الأب والمعلم ، يعرف أن العقلية عبارة عن قدرة تنضج تدريجياً ، وأنها تنمو كما ينمو الجسم ، مارة بسلسلة من المراحل ، وأننا لا نستطيع أن نفهم كل مرحلة من هذه المراحل ، إلا فى علاقتها مع الكل . ويعرف كل من الأب والمعلم الآن حق المعرفة أنه فى حاجة إلى ذلك الفهم حتى يساعد طفله على الانتقال من مرحلة إلى أخرى .

ويتجه النشاط عند الفرد منذ بزوغ الحياة اتجاهات عدة ، لا يعتمد ظهورها على أى تجربة سابقة ، بل تنشأ عن الحالات الداخلية للجسم ، وتؤدى إلى إشباع الحاجات الطبيعية كالغذية والراحة والإخراج والتدريب . وإذا تذكر القارئ ما قلناه فى الفصل الذى عالجنا فيه نظرية التحليل النفسى ، فانه سيدرك

أهمية المعاملة الصحيحة للطفل في هذه المرحلة ، حتى ولو لم يكن متفقاً تمام الاتفاق مع رأى المحللين النفسيين . فالتغذية والنظام وتعلم النظافة ، كل هذه حوادث هامة في حياة الطفل . وقد تكون المعاملة الخاطئة فيما يتعلق بهذه المسائل سبباً في تعطيل النمو النفسى الطبيعى له . بل قد تسبب له نتائج خطيرة في حياته المستقبلية .

الغرائز والانفعالات

وتوجد إلى جانب ذلك ، الميول الغريزية التى تثيرها مؤثرات خارجية ، والتى يظهر أغلبها فى الطفولة المبكرة . وتنشأ عن معاملة الطفل معاملة خاطئة فى هذا المجال أيضاً - كأن نهمل شأنه إهمالاً شديداً ، أو نكبث رغباته دون مبرر - نتائج خطيرة . أما إذا أدرك الوالد أن السلوك الغريزى سلوك طبيعى ، وليس ناتجاً عن التمرد أو (الشقاوة) ، فانه سيتمعه عندئذ إلى توجيه طفله وضبطه بشكل معقول . والأخطار الهامة التى يمكن أن تحدث فى هذه الفترة ، هى تلك التى تتعلق بانفعالات الخوف والغضب وتقدير الذات ، وهى انفعالات غرائز الهرب والمقاتلة وإثبات الذات على الترتيب . فقد ترتبط مخاوف الأطفال بأشياء لا تسبب فى العادة أى ضرر ، كما أنها قد تؤدى إلى هلع كبير وقلق نفسى قد يستمر ويظهر بشكل لا تحمد عقباه فى الحياة المستقبلية . والخوف إلى جانب انتقاله عن طريق الاقتران الشرطى ، انفعال معد . وغالباً ما تنتقل عدواه من الآباء أو من غيرهم ممن تظهر عليهم أماراته . كما أنه قد ينشأ عن طريق التهديدات (بالعسكوى أو الفعريت أو العين السحرية) أو عن طريق العقاب الفعلى ، كحبس الطفل فى الظلام ، مما قد يسبب له خوفاً مقبياً . فيجب إذن أن يكون الطفل فى مأمن من مثل هذه (ع — ٩)

المخاوف ، وأن يرشد إلى كيفية ضبط المخاوف التي قد تنشأ عنده من تلقاء نفسها ، وذلك بأن نجعل من أنفسنا قدوة له ، إذا أردنا أن نحافظ على صحته العقلية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل تكوين الشخصية .

وهناك انفعال عنيف آخر يجب أن يعود الطفل ضبطه ، ذلك هو انفعال الغضب الذي ينشأ من معارضة أى دافع فطرى . والغضب في صورته البدائية يؤدى إلى سلوك مضاد للمجتمع ، ولكنه إذا ما ضبط بحزم فانه يدفع حينئذ إلى المناورة ، وهى إحدى دعائم الخلق القوى . ونحن نتعلم ضبط النفس بوجه عام عن طريق تلك التجارب المؤلمة التى تقع فيها عندما نسمح للغضب أن يمر دون أثر . فاذا كانت هناك قيادة حكيمة فان الطفل سيكتشف بسرعة ومن تلقاء نفسه أن إظهار الغضب وسوراته لا يجديه نفعا ، وبذلك يتعود الطفل ضبط النفس . وأهمية تعلم ضبط النفس فى الصغر واضحة ، إذ أن الطفل سيقابل فى حياته بعد ذلك مواقف عديدة تثير غضبه .

وهناك دافع آخر قوى يدفع الطفل إلى محاولة جذب انتباه الآخرين إليه . فاذا نجح فى ذلك ، فانه يشعر بالسرور والثقة بالنفس ، وهما من أهم مكونات عاطفة اعتبار الذات ، كما أنهما ضروريان جداً فى نمو الخلق والارادة والشخصية . ولذلك لا يجب أن نقف بغير داع عائقا فى سبيل هذا الميل الطبيعى عند الأطفال ، أى ميلهم لجذب انتباه الغير بالتعبير عن أنفسهم ، وإلا تزعزعت فيهم الثقة بالنفس ، وغرس فيهم الشعور بالقصور ، وهذا مما يجعلهم عاجزين عن التكيف مع المجتمع فى المستقبل .

أسس الخلق

وفي نفس الوقت الذى يتكون فيه الخلق على أساس تدريب الميول الفطرية وتكوين العواطف الاجتماعية والخلقية بهذه الطريقة ، يأخذ الطفل فى النضوج فى النواحي الأخرى ، فيتعلم بسرعة كيف يعالج الأشياء وكيف يمشى ويتكلم . يفكر ، وغير ذلك من القدرات المكتسبة التى توسع آفاق مداركه . ويخطو تفكيره بوجه خاص خطوات واسعة ، ويتضح ذلك من الطريقة التى تنمو بها قدرته على استخدام اللغة . كما يبدأ الطفل فى تمييز نفسه عن العالم الخارجى ، وتزداد دقة هذا التمييز تدريجياً . وكذلك يبدأ فى تمييز الخيال من الواقع ، وإن كان يظل يخلط بينهما فيروى أوهامه الخاصة على أنها أمور واقعية ، مما يؤدي - بغير حق فى كثير من الأحيان - إلى اعتباره كاذباً . وكذلك فهو يبدأ فى تكوين نواة للقانون الخلقى من فكرته عن الحسن والقبح . ويأخذ فى الاتصال الاجتماعى ، وفى تكييف نفسه مع أعضاء المجموعة الصغيرة التى يعيش فيها ، وذلك بتكوين العواطف نحوهم . فإذا نجح فى هذا التكيف ، وتهذبت حياته الإنفعالية البدائية ، عن طريق نمو خبرته ومعرفته ، فإنه يصبح مستعداً لمواجهة العلاقات الاجتماعية الأكثر اتساعاً ، تلك العلاقات التى تنفتح أمامه عندما يذهب إلى المدرسة لأول مرة (١) .

(١) قد يبدو فى كتاب كهذا أننا أفسدنا فراغاً أكبر من اللازم لهذا الملخص المركز لعلم نفس الطعولة المبكرة ، والسبب فى ذلك هو أهمية هذه السنين الأولى بالنسبة للطفل . وإذا كنا فى السطور السابقة قد أشرنا مجرد إشارة إلى بعض المشكلات ، فإن ذلك قد يساعد القارئ على بحثها بحثاً أعمق فى الكتب المختصة بمعالجة الموضوع .

دخول المدرسة

يبدأ الطفل الحياة المدرسية لأول مرة ، فيجد نفسه مضطراً لأن يكون صلات تعارف جديدة ، وأن يكيف نفسه تبعاً لهذه الحياة ، وأن يشغل نفسه بأشياء لا عهد له بها . ولذا فقد تنشأ عنده في هذه الفترة أيضاً مشكلات تحتاج إلى عناية كبيرة . وهنا يستطيع المدرس أن يستخدم معلوماته السيكولوجية استخداماً مفيداً . وربما كانت مشكلة الخوف أو القلق الذي يثيره ذلك الجو المدرسي الجديد ، وضرورة التكيف معه ، هي أهم المشكلات التي يجب التغلب عليها في هذه المرحلة . وتخفف طريقة اللعب التي تستخدم الآن من حدة هذا الانتقال الفجائي . فتساعد روح الإيهام على اندماج الطفل ، وتكوين علاقات صداقة بينه وبين أقرانه ، كما تسمح له بحرية التعبير عن نفسه . وتتغير طبيعة اللعب تبعاً لسن الطفل . فيتميز من لعب الأطفال في سن الخامسة والسادسة أن لهم قدرة كبيرة على التخيل ، في حين أنهم يميلون بعد ذلك إلى أن يكونوا واقعيين وعمليين بشكل واضح . ويتطابق هذا الحياة النفسية التي يحياها الطفل في هذه الفترة ، حيث تكون الأحلام عنده حقائق لا مرأ فيها ، والحكايات الخرافية وقائع لا تقبل المناقشة . إلا أن الطفل يكون مهتماً في نفس الوقت بالعالم الواقعي ، وهو لا يهرب منه ويلجأ إلى عالم الأوهام أو أحلام اليقظة إلا عندما يقابل في حياته الواقعية صعوبات يستعصى أو يستحيل عليه حلها . وفي هذا « الهروب من الواقع » ، الذي قد يبدأ مبكراً أو متأخراً ، خطر بليغ جداً ، إذ قد لا ينتهي فقط بفشل الطفل في أن يتكيف مع بيئته ، بل قد ينتج عنه أيضاً متاعب نفسية أو مشاكل من أي نوع من الأنواع المختلفة التي نَجدها عند الأحداث . ويستطيع

المدرس هنا أيضاً أن يكون عوناً كبيراً للطفل على فهم طبيعته ومشكلاته ومواجهتها بحزم وثبات . ومع ذلك فإن على المدرس أن يقدر القوى الأخرى التي تؤثر على الطفل في هذا المجال ، كما أنه قد يحتاج إلى معاونة العيادة السيكولوجية في الحالات المستعصية

توجيه الطفل

وقد لا يوجد مثل لتطبيق علم النفس في التربية أروع من تأسيس العيادات السكولوجية . ففي هذه العيادات يدرس الطفل ويعالجه فريق من المختصين ، يتكون من طبيب عقلى ، وإخصائى نفسى ، وإخصائى إجتماعى . ويقوم الأخير بمبحث الحالة المنزلية ، وظروف البيئة المحيطة بالطفل . وقد يصعب علينا أن نستعرض هنا العمل المتشعب الذى تقوم به هذه العيادات بالتفصيل . ولكن يمكننا أن نقول أنها تتناول بالعلاج جميع حالات الشذوذ العقلى والانفعالى ابتداء من الخجل الشديد ، وعدم القدرة على التقدم فى الدراسة ، والتهتة وماشابهها ، إلى الانحرافات الشديدة عند الأحداث ، كالسرقة ، والكذب ، والهروب من المدرسة . ولا تعتبر هذه العيادات أن الطفل المحال إليها مجرماً بأى حال من الأحوال . بل تعتبره مريضاً فى حاجة إلى العلاج والمساعدة كما أن مهمتها إلى جانب العلاج هى أن تحول دون تكوين العادات السيئة . ولا بد فى جميع الحالات العويصة ، من القيام بفحص طبي وفحص نفسى . كما أنه يلزم أن يعمل حساب الظروف المحيطة بتطور الحالة ، وكذلك تاريخ الفرد وتاريخ أسرته . ومع ذلك فقد يكون الفحص النفسى هو ما يهمنا فى هذا المجال أكثر من غيره . إذ فى هذه الناحية يطبق علم النفس تطبيقاً مباشراً فى التربية .

وأول خطوة في هذا السبيل هي إجراء اختبار الذكاء^(١) لتقدير العمر العقلي للطفل (وهو العمر الذى يدل عليه النجاح فى اختبارات سن معينة) ، إذ أن العمر العقلي قد لا يكون متمشياً مع العمر الزمنى سنة بسنة أو شهراً بشهر ، وغالباً ما يكون هذا الافتقار إلى التناسب بين العمر الزمنى والعمر العقلي سبباً فى الاضطراب . وقد أظهرت الاختبارات التى أجريت على مدى واسع أن هناك فروقا هائلة بين الأفراد فى ذكائهم ، ابتداء من العته إلى النبوغ . وبالرغم من أن القدرة العقلية العامة تزداد كما هو معروف بتقدم العمر حتى سن السادسة عشر أو ما إلى ذلك ، فإن النسبة بين العمر الزمنى والعمر العقلي تظل ثابتة . وتسمى هذه النسبة بنسبة الذكاء^(٢) . وهى التى يتدرج بحسبها الأفراد من حيث القدرة العقلية العامة والقابلية للاستفادة من التربية ، وتبين القائمة الآتية مستويات الذكاء كما وضعها ل. م. ترمان^(٣)

(١) انظر ص ٣٢ والصفحات التالية لها .

(٢) Intelligence Quotient وقد رؤى أخيراً أن كلمة نسبة الذكاء كلمة مضللة ، واقترح أن تحل محلها كلمة درجة Index مضافاً إليها اسم صاحب الاختيار المستعمل (بينيه أو ترمان ... إلخ) .

(٣) L. M. Terman عالم من علماء النفس الأمريكان إشتغل بتنقيح مقياس بينيه سيمون ، وأطلق على تعديله مقياس ستانفورد بينيه للذكاء . وهذا المقياس من أحسن مقاييس الذكاء وأكثرها إنتشاراً ، وقد ترجم إلى اللغة العربية واستخدم فى قياس الأطفال المصريين . وقد كان لترمان الفضل فى وضع فكرة نسبة الذكاء .
أهم مؤلفاته :

=

قياس الذكاء The Measurement of Intelligence

نسبة الذكاء	الذكاء
١٤٠	قريب من النابغة أو نابغة
١٢٠ — ١٤٠	ممتاز جداً
١١٠ — ١٢٠	ممتاز
٩٠ — ١١٠	متوسط أو عادى
٨٠ — ٩٠	غبي
٧٠ — ٨٠	الحد الفاصل للضعف العقلى
٥٠ — ٧٠	ضعيف العقل
٢٥ — ٥٠	أبله
٢٥	معتوه

فائدة نسب الذكاء

ولتحديد نسبة الذكاء فائدة واضحة ، فهي تساعدنا على أن نلائم بين نوع ودرجة التربية ، وبين الشخص الذى هو موضوع اعتبارنا . إذ ليست هناك جدوى من إرسال طفل نسبة ذكائه منخفضة إلى إحدى المدارس العادية مثلاً . ولا ينتظر من مثل هذه المدارس أيضاً أن توفر جميع الفرص التى يستطيع تلميذ نسبة ذكائه عالية أن يستفيد منها . ولمواجهة الحالة الأولى ، لابد من إيجاد مدارس خاصة ، أما الحالة الثانية فتواجه بإدخال الطرق الحديثة كطريقة المشروع مثلاً

== ودراسات تتبعية للعبقرة . Genetic Studies of Genius.

(المترجمان)

إلا أن معظم التلاميذ لا ينتمون إلى هاتين النهايتين (العظمى والصغرى) بل يتركزون حول المتوسط أو العادى . وغالباً ما تنشأ هنا أيضاً صعوبات أخرى . فطفل نسبة ذكائه ١١٥ يتفوق بالطبع على طفل آخر نسبة ذكائه ٨٥ ، إلا أنهما قد يكونان ، بل غالباً ما يكونان فى فصل واحد . وفى هذه الحالة يؤدي الطفل الأذكى واجباته بسهولة أكبر ، على عكس زميله الأقل ذكاء ، والذي لا يستطيع أن يجاريه فى الفصل . وينتج عن ذلك أن يتوفر الوقت لأحدهما فيضيعه سدى ، فى حين أن تأخر الثانى يجعله يئأس ويفقد اهتمامه بالعمل .

حقاً إننا لسنا فى حاجة إلى استخدام اختبارات الذكاء لكي نتنبأ عما سيحدث لكلا الطفلين اللذين قد يصبحان منحرفين نتيجة للخلل من ناحية ، ولعدم التشجيع من ناحية أخرى ، إلا أن تلك الاختبارات التى لا تقوم على التعليم المدرسى ، إنما تؤدي إلى الدقة فى الحكم ، ويمكن الاختصاصى النفسى من أن يقول بالضبط ماذا يجب عمله ، وعلى أى حال يجب أن يتلائم التعليم مع العمر العقلى بقدر الامكان .

المشكلات الانفعالية

إلا أن هذا يؤدي إلى مشكلة أخرى . فإذا رتب الأطفال حسب عمرهم العقلى ، وكان هناك أطفال أصغر نسبياً من غيرهم ، فقد يكون ذلك سبباً فى حدوث اضطرابات إنفعالية ، وخاصة إذا كان النمو الجسمى للأطفال الكبار يفوق عمرهم ، وكان نمو الصغار أقل مما يجب . فقد يصبح بعض الأطفال مشاغبين يقودون حركات العصيان فى المدرسة ، بينما يخاف البعض الآخر منهم وينقادون لهم . وإن مجرد تقدير هذين الموقفين ليرينا إلى أى حد

يكون من الصعب ، أن نضع قاعدة عامة لمثل هذه المسائل ، وإلى أى حدّ يصبح من الضروري لعالم النفس ، أن يتناول كل حالة فردية على ما هي عليه ، ويبدى نصيحته تبعاً لذلك .

وقد لا يكون الذكاء العام ، هو القدرة العقلية الوحيدة التي يجب اختبارها لتشخيص الاضطراب ، إذ قد تنشأ اضطرابات أخرى من صعوبات خاصة ، قد يقابلها الطفل في إحدى المواد الدراسية ، كالحساب أو القراءة ، مما يتوقف النجاح فيه على توفر قدرة خاصة ، وهذه الاضطرابات ، إذا لم تكن نتيجة للافتقار الفعلي إلى وجود القدرة الخاصة ، فإنها تحتاج إلى طرق تعليم علاجية . وسنرى أن الأهمية العظمى لنتائج هذه الاختبارات ترجع إلى أنها تكشف لنا عن الأسباب الممكنة للانحرافات الانفعالية ، فإذا ما عرف السبب أمكن معالجته مباشرة بما يعود على الطفل بأعظم الفوائد .

وإلى جانب الفروق في الذكاء العام ، والقدرات الخاصة ، توجد فروق فردية طبيعية في المزاج ، وفي الناحية الانفعالية . وقد توجد كذلك زيادة أو نقص في الاستعدادات الفطرية ، كالمقاتلة ، وإثبات الذات ، والغريزة الجنسية ، مما قد تنشأ عنه انحرافات في السلوك تحت تأثير المنزل ، أو العوامل البيئية الأخرى . وتقوم العيادة السيكولوجية ببحث هذه الناحية أيضاً ، خصوصاً فيما يتعلق بالأسباب البيئية ، وغالباً ما يكون علاج هذه المشكلات ناجعاً إذا ما قضي على أسبابها .

تطبيقات أخرى لعلم النفس في التربية

وإلى جانب هذا التطبيق العام لعلم النفس في علاج الأطفال المعطلين والمشكلين عن طريق العيادات السيكولوجية ، هناك تطبيقات أخرى خاصة بمسائل التربية العملية .

وبعض هذه التطبيقات إيجابية ، والآخر سلبى . ومن هذه التطبيقات إزدياد استعمال اختبارات الذكاء ، إلى جانب الدرجات المدرسية . فهذه الاختبارات ، كما رأينا ، تمكننا من حساب نسبة الذكاء التى تميل إلى أن تبقى ثابتة أثناء نمو الذكاء نفسه ، ولذلك فإنها تساعدنا على أن نتنبأ عن مقدار نجاح الطلاب فى المستقبل ، بصرف النظر عما حصلوه فى المدرسة . ومن جهة أخرى ، فقد استغنى عن عدد كبير من الطرق العتيقة فى التدريس ، وهى الطرق القائمة على أساس فروض غير صحيحة ، كالتدريب الشكلى ^(١) ، أى إفتراض أن التدريب فى إحدى المواد الدراسية

(١) Formal Discipline. وهذا الفرض قائم على أساس أن العقل مكون من ملكات. وأن كل ملكة عبارة عن قوة قائمة بذاتها يمكن تقويتها بالتمرين كما تقوى العضلات . فملكه التفكير مثلا يمكن تقويتها بالعمليات الحسابية أو بدراسة اللغة اللاتينية فيتحسن تفكير المرء عموما وهكذا . وقد ثبت خطأ هذه الفكرة وثبت أن التدريب لا ينتقل أثره إلى مواقف جديدة إلا إذا كان بينها وبين المواد المتعلمة عناصر مشتركة وكان المتعلم مدركا لهذه العناصر إدراكا شعوريا .

• (انظر بحث G. D. Meredith فى مجلة Forum of Education, Vol.5, 1927
Organizing and Memorizing, by Katona, Colombia
(University Press, New York, 1940) وكتاب

(المترجمان)

يساعد على التحصيل في مادة أخرى ، فقد روى أن ذلك لا يحدث ، إلا إذا كانت المواد شديدة الاتصال فيما تتميز به . وكذلك فقد حلت محل طرق الحفظ بالأجزاء ، وبالتكرار في وقت واحد ، طرق الحفظ بالكليات (إلى حد محدود) ، وتوزيع الوقت الذي يصرف في الحفظ على فترات . وقد كان لذلك أثره في توفير الوقت والمجهود اللذين كانا يصرفان في الطرق القديمة . ولقد أدت دراسة علم النفس للطرق المختلفة ، في تعلم وتعليم مواد خاصة كالْحَسَاب ، والمطالعة ، والكتابة ، والهجاء ، إلى نتائج أثمرت كل الإثمار عند ما طبقت . ومن أمثلة ذلك أنه قد روى أن القراءة الصامتة ، لا تؤدي فقط إلى حذف حركات الشفاه ، بل إلى حذف الكلام الداخلي أيضا ، ويساعد هذا على إزدياد السرعة ، دون أن ينتج عنه أى نقص في فهم المعنى . وكذلك ثبتت فائدة تعليم القراءة بالطريقة الكلية (قراءة الكلمة كلها) ، بدلا من أن نجعل الطفل يركب الكلمات من الحروف الهجائية التي سبق أن حفظها عن ظهر قلب . وقد دلت دراسة حركات العين أثناء القراءة ، أن هذه الحركات ليست مستمرة ، إذ أن إدراك الكلمات يحدث بالفعل أثناء وقفات قصيرة ، تتخلل سلسلة من القفزات المتتابعة ، التي تحدث أثناء حركة العين طوال السطر . فإذا كانت هناك وقفات أكثر من اللازم ، فإن معنى ذلك ضياع الوقت ، وغالبا ما يدل ذلك على عدم فهم ما يقرأ . ولما كان علاج ذلك ممكنا ، لذا يعتبر ما أداه لنا علم النفس في هذا المجال ذا أهمية تربوية عظيمة .

وهناك إلى جانب الكثير من التطبيقات ، من أمثال ما ذكرنا ، تطبيقات أخرى ، تتعلق بمشكلات التنظيم المدرسي ، كتوزيع الفصول وسعتها وفترات العطلة ، والفسحة ، واللعب المنظم ، والواجبات المدرسية وما شابه ذلك . وهذه

جميعا ذات أهمية بالغة للمدرس ، أكثر منها لجمهور العامة ، ولا تحتاج منا هنا إلى أكثر من هذه الإشارة . ويستفيد جمهور العامة من ذلك سواء مباشرة ، أو بشكل غير مباشر عن طريق تأثير التربية في أبنائهم ، وعن طريق الإصلاح الاجتماعى الذى ينتج عن ذلك . وأخيرا فإن النظام الحالى للتربية ، ولو أن المدرس هو أقل الناس تحمسا له ، هو بالتأكيد أصح بكثير من النظم السابقة ، أو من عدم وجود نظام بالمرّة ، والفضل الأعظم فى ذلك يرجع إلى علم النفس .

مراجع

- C. L. Burt, The Young Delinquent, London, 1925.
M. Collins and J. Drever, Psychology. and Practical
Life, London, 1936.
J. Piaget, The Language and Thought of the Child, London 1926.
-

الفصل العاشر

علم النفس الصناعي

لم يهمل الجانب الإنساني في أى مجال إهمالا أشنع مما حدث في مجال الصناعة منذ قيام الثورة الصناعية حتى وقت قريب جدا . فقد كان ينظر إلى العمال والعمالات باعتبار أنهم لا يزيدون إلا قليلا عن تلك « التروس » الكثيرة التي توجد في الآلات ؛ فكانوا يساقون مع تلك « التروس » المعدنية الموجودة في آلات الإنتاج ، كما لو كان عليهم أن ينتجوا كل ما يمكن إنتاجه لأصحاب العمل ، وإلا كان جزاؤهم الفصل والطرده . بل وعند ما بدأ تطبيق علم النفس على مشكلات الصناعة ، كان المقصود بذلك التطبيق هو زياده الإنتاج ، وزيادة الربح الناشء عنه أكثر من أن يقصد به راحة العمال وفائدتهم وسعادتهم . وفي الحقيقة لم يكن علماء النفس ، هم الذين بدءوا هذه الحركة ، بل بدأها من يدعون بمهندسى الإنتاج ، ورجال الصناعة ، الذين كان غرضهم سرعة الإنتاج . ومع ذلك فأنهم ألقوا باقبياد إلى علماء النفس الذين لم يتوانوا عن تطبيق طرائقهم لكي يزيدوا من قدرة الإنتاج الصناعي ويفيدوا العمال أنفسهم في الوقت ذاته .

وكانت مشكلة الحركة العضلية من أولى المشكلات التي عالجوها . فقد لوحظ أن هناك طرقا عميقة تستخدم في كثير من الصناعات ، وفي بعض الأحيان ، وأنه لم تكن هناك طرق على الإطلاق . فلم تكن الآلات والمواد الخام منظمة تنظيما ملائما ،

كما أن العمل لم يكن موزعاً توزيعاً مناسباً . وكان الوقت يضيع في البحث عما هو مطلوب عمله ، كما كان يضيع بسبب قيام العمال بأعمال لا تلائمهم . وقد أمكن إصلاح هذه العيوب بوضع خطة لاستخدام المواد الخام ، والآلات إستخداماً منظماً ، وبملاحظة ألا يمهّد إلى العمال المهرة بأعمال لا تحتاج إلا إلى قليل من المهارة ، وألا يمهّد إلى العمال غير المهرة بأعمال تحتاج إلى مهارة كبيرة . وعند ما نفذ ذلك كانت النتيجة أن توفر كثير من الوقت ، وزاد الانتاج زيادة كبيرة ، كما أنه لم يعد في حاجة إلى نفقات باهظة .

دراسة الحركة

وأحدث الدراسات وأهمها هي دراسة الحركة التي يقوم بها أفراد العمال بالفعل في أى عمل يوكل إليهم القيام به . إذ أنه قد لوحظ أن بعض العمال كانوا يقومون بحركات أكثر من البعض الآخر أثناء قيامهم بنفس العملية . ففي « دراسة الحركة » هذه أخذ العلماء يحللون الحركات إلى الأجزاء التي تتكون منها ، بقصد تقليل عدد الحركات المستقلة ، وذلك بإلغاء الحركات غير النافعة وخاصة المتعبة منها ، وربط الحركات الحادة المتعبة ، بحيث تكون حركة واحدة ملساء . وقد تمت طريقه التحليل هذه بعد دراسة كبيرة باستخدام جهاز أمكن بوساطته عمل نموذج من سلك معدني ذي ثلاثة أبعاد ، يبين الطريق الكامل ، الذي تسير فيه الحركة ، كما يبين في نفس الوقت مدى هذه الحركة ، وسرعتها واتجاهها بالتفصيل . ويعرف هذا الجهاز باسم : الكرونوسيكالجراف ^(١) .

ويتحقق هذا بأن نأخذ صورتين فوتوغرافيتين لخطوط الضوء ، وذلك في وقت واحد ومن زاويتين مختلفتين إختلافا بسيطا . وهذه الخطوط يسقطها على لوح حتى آلتى التصوير مصباح كهربائى وهاج مثبت بعضو العامل أو يده التى تتحرك . إذ ينقطع الضوء عدة مرات فى الثانية ، بطريقة تجعل الآثار التى يتركها على اللوحتين ، تبين مدة واتجاه الحركة ، وذلك بتحول الوهج من النصوص إلى العتمة ، فتظهر آثاره على شكل أسهم أو مشيرات . ويسجل المدى بواسطة شبكة من المربعات ذات حجم معروف تظهر على نفس اللوحات . ومن هذه اللوحات يمكن أن نرسم نموذجا تاما للحركة الواقعية ، باستخدام لاستريوسكوب (١) ونحويلها مباشرة إلى مقياس مدرج .

وبمقارنة هذه النتائج يتضح أن الحركات التى يقوم بها مختلف العمال تختلف إختلافا واضحا فى العملية الواحدة . كما أن هذه المقارنة تمكن الباحث من أن يقرر أى الإرتباطات الموجودة بين الحركات الجزئية هى أكثر اقتصادا . وهى لعيننا أيضا على إقتراح تحسينات جديدة . ويستنتج من ذلك أن هناك طريقة يمكن أن نسميها « أفضل طريقة للقيام بعمل ما » . وأن كل عامل يطلب منه القيام بهذا العمل يجب أن يتعلم هذه الطريقة المثلى للقيام به إذا لم يتوصل إليها بنفسه . إلا أن هذا رأى يذهب إلى أبعد مما يجب ، إذ أنه يتجاهل الفروق الكبيرة بين الأفراد ، الأمر الذى ينبغى أن نعمل له حسابا فى هذا الصدد ، كما هو الحال فى جميع المشكلات الإنسانية . ذلك أن الذين تعودوا القيام بعمل ما بطريقة معينة يجدون فى الغالب أن من الصعب جداً تغيير هذه الطريقة ،

« فمن شبَّ على شيء شاب عليه » . لذلك فإن العمل « بأفضل طريقة » لا يتأتى بسهولة كبيرة ، إلا في حالة العمال الجدد الذين نستطيع أن نبين لهم أكثر الطرق إقتصادا ، وأن نعلمهم كيف يتفادون الحركات التي لا فائدة منها ، وإلا تعودوها بالضرورة .

ويمكن أن نطبق طرق التعليم هنا ، كما تطبق في النواحي الأخرى (١) ، فيجب أولا أن تتبع الحركات الصحيحة منذ اللحظة الأولى في التعلم ، وأن تكتشف الأخطاء وتصحح في الحال . ويجب ثانيا أن تكون مدد التمرين قصيرة ، وأن توزع على فترات متباعدة بدلا من أن تكون طويلة ، شديده التقارب .

وهناك على أى حال طرق أخرى كثيرة تساعد على توفير الوقت والمجهود في العمل ، خلاف التخلص من الحركات غير الضرورية . ويمكن أن نذكر من بين هذه الوسائل ، التماثل والإيقاع . فعندما تستخدم كلتا اليدين يكون القيام بالحركات المتشابهة أسهل من القيام بالحركات غير المتشابهة . كما تتطلب الحركات الإيقاعية مجهوداً قليلاً جداً بالنسبة لما تتطلبه الحركات غير الإيقاعية .

ولكن بالرغم من أن هذه الوسائل وغيرها تحقق زيادة الإنتاج وتوفير المجهود ، فإن العالم النفسى لا يهمل الناحية الإنفعالية في حياة العمال ، ما دامت هذه الناحية تتأثر باستخدام هذه الوسائل ، فمن الواضح أنه إذا كان المقصود من هذه الوسائل فائدة صاحب العمل فمن المحتمل أن العامل لن ينظر إليها بكثير من العناية ، بل إن أى محاولة لفرضها على العمال تعتبر مخاطرة تثير السخط

والقلق في نفوسهم . أما إذا استفاد العامل نفسه من زيادة الأجر ، أو من مدة الراحة مع تقليل التعب ، وتحقق من هذه الاستفادة ، فاننا بذلك نحافظ له على سلامة حياته الانفعالية ، بل ونرتقي بها ، فيقبل بارادته على إقتباس الوسائل الجديدة .

دراسة التعب

ولقد درس علماء النفس موضوعا آخر ، يتعلق بالكفاءة في العمل ، كما يتعلق بصحة العمال ، وراحتهم ، ورفاهيتهم ، وهو موضوع التعب . وقد درسوه دراسة دقيقة ، بقصد تطبيقها العملي في حل المشكلات الصناعية . فاستغلوا ما وصل اليه علماء الفسيولوجيا في طبيعة الاجهاد العضلي ، والعقلي ، والعصبي ، في القضاء على هذا الاجهاد أو تقليله على الأقل . فمن المعروف أن الأنسجة العضلية ، تستخدم عند انقباضها ، الوقود المخزون في الجسم ، كما أنها تفرز فضلات سامة . وكلا هذين العاملين يؤدي إلى استحالة القيام بالانقباض العضلي ، فاستخدام الوقود المخزون يؤدي إلى استهلاكه ، وإفراز الفضلات يؤدي إلى تسمم الأنسجة نفسها . ويعمل الجهاز العصبي على تلافي حدوث ذلك . فالأعصاب التي تنقل المثيرات إلى العضلات ، تنتهي « برقائق » تتعب قبل أن تتعب العضلات ، والمثيرات الصادرة من العضلات المنقبضة إلى النخاع الشوكي ، تعمل على إزدياد المقاومة في الوصلات العصبية ، وبذلك تعرقل حركة المثيرات الواردة من النخاع الشوكي ، التي تسبب الانقباضات .

وهذا هو ما يحدث تقريبا فيما يتعلق بالتعب العقلي الذي ينشأ عن العمل الممل . والفرق بينهما هو أن التعب العقلي يتعلق بأعصاب المخ ، وليس بأعصاب النخاع الشوكي . فالقيام بعمل ما يؤدي إلى إبعاد المسائل الأخرى ،

عن تفكيرنا لمدة معينة ، وبعد مضي هذه المدة ، تبدأ هذه المسائل تقحم نفسها في صورة أفكار هائلة . فإذا ما بدأنا في إبعادها ، والاستمرار في عملنا بدأ ينتابنا السأم ، كما يحدث بالضبط عند ما نحاول أن نتغلب على التعب العضلي الموضعي . وأخيراً يصبح مجهودنا في المواظبة على العمل والاستمرار فيه متعباً . وهذا التعب علامة على قرب حدوث إجهاد عصبي خطير . ومن الممكن القضاء على التعب العضلي إذا أمكننا أن نهتم من جديد بالعمل الذي نقوم به ، أو أن نقوم بعمل آخر . أما التعب العقلي وهو عبارة عن ابتداء تعب المراكز العصبية العليا فلا يمكن التخلص منه بهذه الوسائل ، فهو نذير خطر يحذرنا من الاستمرار في العمل .

والتعب مسألة معقدة ، وليس لدينا مقياس له ، أو اختبار صحيح يمكننا استخدامه في معامل علم النفس ، أو في غيرها . ومع ذلك فمن الممكن من الناحية العملية أن نلاحظ آثاره في نقص الانتاج ، وفي سوء العمل ، وفي ضياع الوقت بسبب المرض ، وفي حدوث الحوادث . وهذه الآثار من الممكن أن نقيسها بطريقة مضبوطة .

منحنيات العمل

ويمكننا عمل بيان عن الانتاج ، سواء من ناحية الكيف ، أم من ناحية الكم بواسطة منحنيات العمل ، التي تبين كمية الانتاج في أثناء فترات متساوية من الزمن ، موزعة على فترة العمل اليومي . ودراسة هذه المنحنيات تتطلب تفسيراً دقيقاً ، مبنيًا على خبرة . وهي تبين لنا الطريقة التي يتذبذب بها التعب ويتراكم خلال فترات العمل . ويبين المنحنى النموذجي ارتفاعاً أولياً في

الانتاج يعبر عن فترة يشتد فيها الحماس للعمل ، ويتبع ذلك انخفاض في المستوى يختلف في شدة التدرج حسب طبيعة العمل . ويبين هذا انخفاض أثر التثيت والتمرين . ثم يحدث ارتفاع أخير عند ما يكون العمل على وشك الانتهاء . وقد توجد في المنحنيات إرتفاعات متفرقة عرضية ، ترجع إلى مؤثرات مختلفة ، يجب على عالم النفس أن يلاحظها .

وإذا ما انقطع العمل ، كما يحدث عادة في فترة الغداء ، فإن هذا يؤثر على شكل المنحنيات تبعاً لطبيعة العمل . فالعمل العضلي الصعب ، يظهر فيه أولاً إرتفاع سريع في الانتاج ، يتلوه انخفاض يحدث في فترة الصباح ، ثم يحدث بعد الظهر تعويض لا بأس به ، ولكن يتبعه انخفاض أشد من الانخفاض الأول . أما منحني العمل الذي يحتاج إلى مهارة ، فإنه يرتفع بتدرج أكثر ، كما أنه يميل إلى أن يحافظ على مستواه في أثناء الفترة الأولى من العمل . أما بعد الظهر فإنه يبدأ من مستوى أكثر انخفاضاً من ذي قبل ، وإن كان لا يميل إلى الهبوط بشدة . وقد لوحظت اختلافات أخرى في شكل منحنيات أنواع العمل الأخرى ، كمنحنيات العمل الذي تقوم فيه الآلات بالدور الرئيسي ، وبخاصة الآلات التي تتطلب حركات إيقاعية من الذين يديرونها .

وهناك نتيجة هامة جداً نستطيع أن نصل إليها عن طريق دراستنا لمنحنيات العمل . ذلك أن العالم النفسى الحاذق يستطيع من مقارنة المنحنيات ، التي نحصل عليها في الظروف المختلفة لنوع واحد من العمل ، أن يرى ما إذا كان أى تغيير في طريقة القيام بالعمل ، أو في توزيع العمل نفسه ، يمكن أن يؤثر في الانتاج والتعب ، وأن يعرف طبيعة هذا التغيير إن وجد . فالمنحنيات

غير العادية تنم عن مجهود فوق الطاقة ، وتأخر في التعود والايقاع . كما أن المنحنيات الجيدة يجب ألا تهبط هبوطاً شديداً عند نهاية فترة العمل ، لأن هذا ينم عن وجود تعب لا مبرر له .

ويجب أن نحسب حساب خاصيتين عند مقارنة منحنيات العمل ، وهما : شكل المنحنيات العام ، ومستواها . فإذا تشابه منحنيان في الشكل ، واختلفا في المستوى ، فإن المنحنى الأعلى منهما يعبر عن زيادة في الانتاج ، دون زيادة في المجهود ، أو في التعب . ولكن إذا كان شكل المنحنى ذى المستوى الأعلى رديثاً ، فإن هذا يعنى أن طريقة العمل فيه أسرع منها في الآخر ، ولكنها تسبب تعباً أشد . وقد يكون المنحنيان على مستوى واحد ، ولكن شكل أحدهما أحسن من شكل الآخر . وفي هذه الحالة يبين أحسن المنحنيين أن التعب فيه كان أقل ، وإن كانت كمية الانتاج واحدة . وأخيراً قد نجد منحنى أعلى من الآخر ، وأحسن شكلاً . وهذه الحالة تبين أن طريقة العمل السهلة السريعة التى تسبب تعباً أقل من غيرها توصل إلى نتائج أحسن .

ولعل القارىء قد قدر ضرورة الخبرة في تحليل منحنيات العمل وتفسيرها فهناك عوامل كثيرة تتدخل في المنحنيات ، وخاصة إذا كانت المسألة تتعلق بتقليل التعب دون إضعاف الإنتاج الصناعى .

فترات الراحة

وبقاء الشكل العام للمنحنى كما هو ، يوماً بعد يوم ، معناه أن النشاط يتجدد نتيجة الراحة في أثناء الليل . كما أنه يدلنا على أن الراحة في أثناء الظهيرة أيضاً تؤخر ظهور التعب بعض التأخير وتزيل أسبابه . ويقودنا هذا طبعاً إلى مسألة تقصير ساعات العمل اليومى بصورة عامة ، وإلى إدخال بعض فترات راحة قصيرة أثناء مدة العمل .

إن العلاج الطبيعى للتعب هو الراحة والاسترخاء ، وخاصة أثناء النوم حين يحمل السائل اللعنى والدم ، السموم الناشئة عن التعب من الأنسجة المنهكة إلى خارج الجسم ، كما تتجدد المواد التى استهلكت عن طريق التغذية . ولكن إلى جانب الراحة اليومية التى تفرضها علينا الطبيعة ، والعطلات التى تفرضها علينا التقاليد الاجتماعية أو القوانين ، يمكننا أن نقصر مدة العمل اليومى كى نقلل من التعب ، دون أن تتضاءل كمية الانتاج . كما يمكن أن نقضى على التعب أيضا بواسطة الراحة من وقت لآخر فى أثناء العمل نفسه . وقد أمكن تحقيق ذلك فى كثير من الحالات ، سواء فى الصناعة الخفيفة أو الثقيلة ، أو فى الأعمال الكتابية على اختلاف أنواعها (١) .

ولعل القارىء يقدر مرة أخرى أن تحديد مدة العمل اليومى ، تحديداً يؤدي إلى زيادة الانتاج وتقليل التعب ، وكذلك تحديد مدة الراحة المناسبة وتوزيع فتراتهما ، هى من الأمور التى تحتاج إلى بحث دقيق فى كل حالة فردية . إلا أن التطبيق العملى لنتائج دراسة التعب فى كثير من الصناعات ، والفوائد التى عادت على العمال وأصحاب الأعمال من جراء ذلك ، تعتبر سبباً كافياً لضرورة تطبيقها فى الصناعات الأخرى .

وهناك علاوة على ما قلناه عوامل تؤدي إلى التعب يمكننا أن نتلافها بسهولة . منها القيام والانحناء غير الضروريين ، وكذلك سوء الإضاءة ، وسوء التهوية ، وشدة الرطوبة أو الجفاف أو الحرارة . وعند ما يبحث رجل علم للنفس الصناعى فى موضوع الانتاج فإنه يدخل فى حسابه كل هذه العوامل إلى جانب المسائل

(١) ولا تظهر الفوائد فى الحال طبعا ، بل بعد مضى وقت ما .

الأخرى المتعلقة بالتعب ، واضعاً نصب عينيه الجانب الانساني الذي لا يقل في أهميته - إن لم يزد - عن فائدة أصحاب العمل أو الشركات التي تستخدم العمال .

الاختيار المهني والتوجيه المهني

ومن أهم تطبيقات علم النفس الصناعي هي تطبيقه - سواء فيما يتعلق بمصلحة العمل أو بمصلحة العمال - في اختيار الأشخاص المناسبين للقيام بعمل من الأعمال ، وكذلك اختيار الأعمال المناسبة للذين يطلبون عملاً . وقد قدر عامة الناس الاختيار المهني والتوجيه المهني ، وخاصة الأخير منهما أعظم التقدير . فقد تحقق هؤلاء من فائدة اختيار مهن لأبنائهم يرجح نجاحهم فيها ، بدلاً من أن يترك هذا النجاح لمجرد الصدفة .

ومن الضروري طبعاً في الاختيار المهني ، أي عند ما نختار أنسب المتقدمين لمهنة ما ، معرفة القدرات الجسمية والنفسية التي تحتاج إليها هذه المهنة . حقا إن رئيس العمال يعرف ماذا يريد عندما يأخذ في اختيار عماله ، وهو يختارهم على أساس مقابله لهم والشهادات التي يحملونها من أصحاب العمل السابقين ، ونتائج الامتحانات التي أدوها ، وما شابه ذلك ، ولكنه إذا أراد أن يتبع طريقة علمية ، فعليه أن يستخدم الاختبارات السيكولوجية والجسمية . ولا يبدو ذلك ضرورياً إلا إذا كان يريد أن يستخدم مبتدئين ، ويريد أن يعرف ما إذا كانت لديهم القدرات التي يحتمل أن تكون فيما بعد مصدر الحظ المطلوب . وفي هذه الحالة يكون في حاجة إلى خدمة علماء النفس ، إذا لم يكن هو واحداً منهم .

ويقابل الاختيار المهني ، التوجيه المهني . ففي التوجيه المهني يبحث العالم النفسي عن الأعمال التي تلائم قدرات الشخص الذي يطلب عملاً ، بدلاً من أن

يبحث عن القدرات التي تجعل الشخص ملائماً للعمل . وفي التوجيه المهني يجب أن يعرف العالم النفسى جميع ما يتطلبه العمل بالتفصيل ، ولكن اهتمامه ينصب على التكوين الجسمى والنفسى للشخص الذى يرغب فى إرشاده إلى العمل الذى يستطيع أن ينجح فيه ويحصل منه على السعادة والرضى . ولذلك يستخدم العالم النفسى الاختبارات الجسمية والسيكلوجية التى يستطيع عن طريقها أن يقرر ما يمكن للممتحن أن يصل إليه ، وليس من الضرورى أن يقدر ما وصل إليه بالفعل . ورغم أن الاختبارات الجسمية مثل اختبارات قوة العضلات وتحملها قد تكون هامة بالنسبة لبعض الأعمال ، إلا أن للاختبارات السيكلوجية أهمية أعظم بالنسبة للأسس التى يقوم عليها التوجيه المهني . وتشمل هذه الاختبارات أولاً اختبار القدرة العقلية العامة التى هى ضرورية لبعض الأعمال أكثر من البعض الآخر . ومن الممكن أن نحول بسهولة أى جدول لنسب الذكاء ، كالجدول الموجود فى ص ١٣٥ ، والذى يبين مستويات الذكاء من النبوغ إلى البله ، إلى جدول يبين أنواع العمل التى يحتمل أن تلائم الاشخاص الذين هم على مستوى معين من الذكاء نعرفه من اختبارهم . وقد وضع س . ل . برت الجدول الآتى ليوضح المهن التى يستطيع أن يقوم بها الأشخاص الحاصلون على نسبة ذكاء معينة .

نسبة الذكاء	المهنة	التوزيع
أكثر من ١٥٠	أرقى أنواع التخصص والإدارة	١.٠٩١ /
١٣٠ - ١٥٠	الاعمال التى تتطلب درجة أقل من التخصص والقدرة الفنية	٣. /

نسبة الذكاء	المهنة	التوزيع
١١٥ — ١٣٠	الاعمال الكتابية والاعمال التي تتطلب مهارة كبيرة	١٢٪
١١٥ — ١٠٠	الاعمال التي تتطلب مهارة والاعمال التجارية العادية	٢٦٪
١٠٠ — ٨٥	» » » » بسيطة والاعمال التجارية	
	البسيطة	٣٣٪
٨٥ — ٧٠	الاعمال التي لا تتطلب مهارة والاعمال اليدوية البسيطة	١٩٪
٧٠ — ٥٠	الاعمال المؤقتة	٠٦٪
أقل من ٥٠	الشواذ والمعتمهون والمهمل	٠٢٪

(مأخوذ عن مقالة برت في مجلة علم النفس البريطانية

مجلد ١٤ سنة ١٩٢٤ (١))

الذكاء والقدرة والخلق

ولكن مجرد معرفة الذكاء العام لشخص لا تدلنا على نوع العمل الملائم له ، لأن الفرد ليس مجرد ذكاء عام فقط بل إن لديه أيضا أو هو يفتقر إلى قدرة خاصة يستخدمها في هذا العمل أو ذاك . ثم إنه قد يكون ملائما لعمل ما أو غير ملائم له تبعاً لمزاجه وخلقته . ولذلك تجرى عليه أيضا اختبارات القدرات الخاصة . وقد ذكرنا في ص ٣٧ أن العامل العام ، والعامل الخاص الذي يختلف من عملية إلى أخرى ، يدخل كل منهما في كل عملية عقلية . وباستثناء بعض الحالات القليلة

فإن هذه العوامل الخاصة لا تختبر بالتفصيل في التوجيه المهني ، بل إن ما يختبر هو ما يعرف بالعوامل الطائفية ، أو بمجموعات العوامل الخاصة التي تدخل في عمليات متشابهة كل التشابه . ومن تلك الحالات المستثناة القدرة الموسيقية ، والقدرة الرياضية . أما القدرات الرئيسية الأخرى التي قيست فهي القدرة العملية والقدرة الميكانيكية ، والقدرة اللفظية ، والمهارة اليدوية . أما الذكاء فليس في وضع غريب ، إذ لا يوجد نوع واحد من الاختبار يقيس الذكاء ككل رغم وجود عوامل طائفية فيها .

ولقد قلنا أكثر من مرة أن إجراء الاختبارات السيكولوجية على وجه العموم يجب أن يقوم به أخصائي . وتشتد الحاجة إلى هذا الإخصائي فيما يتعلق بالقدرات الخاصة ، فالاختبارات نفسها ، باعتبارها مقاييس للقدرات ، أقل دقة من اختبارات الذكاء ، كما يتطلب تفسير نتائجها مهارة وعناية عظيمتين . ومع ذلك فقد ثبتت فائدة هذه الاختبارات العملية ، وخاصة إذا ما أضيفت إليها الملاحظات التي يجب أن يقوم بها العالم النفسى عن الطريقة التي يبدأ بها الممتحن عمله في هذه الاختبارات والطريقة التي يستمر بها فيها . فهذه الملاحظات تعينه على فهم مزاج الممتحن وخلقه ، وهما مما يجب أن يدخله العالم النفسى في حسابه بدرجة لا تقل عن درجة القدرات العامة والخاصة عند قيامه بالتوجيه المهني . ولما كانت تعوزنا اختبارات صادقة للخلق والمزاج ، كان على الموجه المهني أن يعتمد في تقريره اعتماداً كبيراً على الفحص التجريبي كما يفعل الطبيب في تشخيصه لمرضاه . ولهذا السبب يحتاج الموجه نفسه إلى تدريب يقوم على أساس نظري سليم .

عوامل أخرى تجب مراعاتها

وقد قام علماء علم النفس الصناعى ببحث عدد كبير من المشكلات الأخرى ، خلاف ما ذكرنا ، مما لا نستطيع أن نشير إليه سوى إشارة عابرة . ومن بينها مشكلة الميول الشخصية للعمال ومشكلة الدوافع التى تدفعهم إلى الانتاج وغيرها . كما قام علماء النفس بمجهود عظيم فى موضوع الإعلان أو التجارة لبيان كيف يستجيب التجار لحاجة المشتريين أو رغبتهم فى سلعة ما أو إنتاج معين ، وكيف يولدون فيهم رغبة فى هذه السلعة أو فى هذا الانتاج ، ويؤثروا على جمهورهم فيجعلونه يعتقد بجودة السلعة ، ويثبتوا هذه السلعة فى الازهان عن طريق ربطها باسم معين أو (ماركة مسجلة) أو نداء خاص . ورغم أن الاستجابة للإعلان أساسها الاستجابة للحاجات والرغبات المرتبطة بفرصة ما ، فإن الحصول عليها لا يكون إلا عن طريق الانتباه ، والقوانين التى يخضع لها . ولما كان علماء النفس قد بحثوا هذه المسألة بحثاً تاماً فقد وصل الإعلان إلى درجة عظيمة من التأثير . وأخيراً بقى أن نقول كلمة عن الميل إلى حدوث الاصابات (لدى بعض الأشخاص) وعن الوقاية منها . إذ أنه إلى جانب العوامل المتعددة التى تؤدي إلى حدوث الاصابات فى الصناعة ، كأن يكون العمل خطراً بطبيعته أو استخدام الآلات الخطرة ، أو التعب ، أو غير ذلك ، هناك أشخاص يبدو أن عندهم ميلاً خاصاً إلى حدوث الاصابات ، إما للمواد التى يصنعونها أو لأشخاصهم . والواقع أن معلوماتنا عن هذا الموضوع محدودة . ولكن من المعروف على أى حال أن بعض أنواع النقص والأمراض الجسمية تؤدي إلى حدوث الاصابات ، ولذلك يجب على الأشخاص الذين يعانونها أن يتجنبوا الأعمال التى تتضمن خطراً بالنسبة لهم . وقد تمكن علم النفس من

أن يستخدم اختبارات التوافق الحسى الحركى بشىء من النجاح للكشف
عن أحد العوامل على الاقل ، التى يرجع إليها الميل إلى حدوث الاصابات
فى العمل .

مراجع

C. S. Myers : Mind and Work, London 1920.

A. Macrae : Talents and Temperaments, London 1932.

الفصل الحادى عشر

علم النفس الطبى

أدى البحث عن قوانين سيكلوجية يمكن استخدامها فى المسائل الطبية وعلى الأخص فى علاج الأمراض العصبية الوظيفية كالهستيريا والأمراض النفسية أى ما يسمى عادة بالأمراض العصبية ، إلى القول — كما رأينا فى الفصل الرابع — بنظرية كاملة قامت على أساس الملاحظة التجريبية للأعراض المرضية ، واكتشاف أسبابها الخفية . تلك هى نظرية التحليل النفسى ، التى استمر فرويد يعمل على الوصول بها إلى مرتبة الكمال لمدة سنوات طويلة . وليست نظرية التحليل النفسى هى النظرية الوحيدة الكاملة فى علم النفس الطبى ، كما أن طرقها الخاصة فى العلاج لم تكن الطريقة الوحيدة التى استخدمت استخداما عمليا . فلكل من « علم النفس التحليلى » الذى وضعه « يونج »^(١) و « علم النفس

(١) كارل يونج Carl Jung (١٨٧٥ -) ولد فى بال وتابع مدرسة فرويد ولكنه انفصل عنها فى سنة ١٩١١ وكون مدرسة جديدة فى علم النفس أطلق عليها مدرسة علم النفس التحليلى ، وهو يختلف عن فرويد فى أنه قلل من الدور الذى تلعبه الناحية الجنسية ، وكدناحية العقد النفسية التى تتكون منذ الطفولة كما أنه أرجع اللاشعور لا إلى خبرات الطفولة فحسب ، بل إلى خبرات موروثه عن الإنسان الاول فى العصور البدائية .

أهم مؤلفاته : =

الفردى « الذى وضعه « الفرد أدلر » ^(١) ، أتباعه ومريدوه . وهما يختلفان من الوجهتين النظرية والعملية إختلافاً كبيراً عن نظرية فرويد ، كما يختلف كل واحد منهما عن الآخر . ولقد كان كل من يونج وأدلر من أتباع فرويد أولاً ، ولكنهما انفصلا عنه فيما بعد ووضع كل منهما نظريته الخاصة .

= مجموعة مقالات فى علم النفس التحليلى Collected Papers on Analytical Psychology.

والأنماط السيكولوجية Psychological Types

وسيكولوجية اللاشعور Psychology of the Unconscious

تكامل الشخصية . Integration of Personality.

المترجمان

Alfred Adler (١) (١٨٧٠ - ١٩٣٧) أحد أتباع فرويد ، انفصل عنه
وكون مدرسة فى فيينا سنة ١٩١٢ ، عارضت آراء مدرسة فرويد ، وكان له أثر عظيم
فى تنظيم العيادات السيكولوجية للأطفال .

أهم مؤلفاته

فهم الطبيعة البشرية Understanding Human Nature

علم النفس الفردى من الناحية العملية والنظرية The Practice and Theory
of Individual Psychology.

والحياة النفسية وهو ترجمة كتابه The Science of Living.

وقد ترجمه إلى اللغة العربية محمد بدران واحمد محمد عبد الحالى (لجنة التأليف
والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢)

ومشكلات المرض النفسى . Problems of Neurosis.

(المترجمان)

علم النفس التحليلي

لقد بدأ « يونج » بوضع نظرية ميثافيزيقية أعمق من نظرية « فرويد » وقد ضمن هذه النظرية آراءه في دفعة الحياة الكلية ، وفي الأصل البدائي والعنصرى لمعظم محتويات اللاشعور وطبيعته ، وكذلك تقسيمه للأفراد إلى الأنماط النفسية (المنبسط والمنطوى بأقسامهما) ، ورأيه في أن الحلم ليس مجرد تعبير رمزي عن رغبة كبتت في عهد الطفولة ، بل إنه يعبر أيضا عن « توجيهات رمزية لنا في حاضرتنا ومستقبلنا » . ولا ينتهي العلاج عنده بالقضاء على انتقال أوهام الطفولة من المريض إلى المحلل ، بل إنه بعد أن يكشف عن جميع العلاقات والرموز التي تؤدي إلى معرفة اللاشعور الشخصي يأخذ في تحليل أعمق من هذا لكي يكشف عن اللاشعور العنصرى العام ، الذي يعتقد أنه موروث . ويدعى « يونج » أن ذلك يوصله إلى اكتشاف المعنى الحقيقي ، للتصور البدائي ، ويضمن له ثبات النتائج التي يصل إليها أثناء العلاج .

علم النفس الفردي

وقد قدم لنا « أدلر » من ناحية أخرى ، نظرية أبسط وأكثر اتصالا بالإنسان من كل من نظريتي فرويد ، ويونج إذ أنه يحل « الرغبة في السيطرة » محل « الدافع الجنسي » (اللبيدو) عند فرويد ، ومحل « الرغبة في الحياة » عند يونج . ومن رأيه أن أى معارضة ، خصوصا أثناء الطفولة ، لهذه « الرغبة في السيطرة » ، سواء أكان ذلك عن طريق معاملة خاطئة ، أو وجود

بيئة غير ملائمة ، أو وجود نقص خلقى حقيقى أو وهمى ، يؤدى إلى تكوين عقدة النقص التى هى أساس الأمراض النفسية ، أو الحالات العصبية . وقد أكد « أدلر » أثر المعاملة الأولى للطفل فى تكوين ما يسميه « أسلوب حياته » . وأدى به ذلك إلى دراسة « أسلوب الأسرة » والطريقة التى ينشأ بها « هدف الحياة » عند الفرد أثناء جهاده فى تكييف نفسه حسب مطالب أسرته . فإذا كان تكييفه غير تام ، فقد يؤدى به « أسلوب حياته » المنحرف الذى يقدر فيه ذاته أكثر مما يجب ، إلى مرض نفسى . وقد تظهر أعراض هذا المرض فى أى عضو من الأعضاء أقل من المستوى العادى ، أو فى وظيفة هذا العضو نفسه .

ومن الممكن أن نصف العلاج الذى قال به « أدلر » بأنه نوع من إعادة التوجيه ، فهو يرمى إلى أن يوضح للمريض كيف كان « أسلوب حياته » متأثراً « بأسلوب أسرته » وكيف أنه أخطأ فى اختيار « هدف حياته » بسبب تقديره الزائد لذاته ، ثم يبصر المريض بأنه إنما يهرب فى الواقع من صعوبات الحياة بدلاً من أن يواجهها . فهو يتفادى منازلة الحياة الاجتماعية ، والمهنية ، والزوجية ، بأن يبحث عن مهرب له فى تخیلاته . ويشجع المريض فى أثناء العلاج على أن يعيد تنظيم قيمه تبعاً لخطة فى الحياة ، ترمى إلى غرض ذى قيمة يقبله هو .

الاختلافات النظرية

من هذه الاشارة الموجزة إلى نظريات العلاج ، ووسائله التى قال بها أساطين المدارس الأساسية فى علم النفس الطبى ، نرى مقدار اختلافهم العظيم

في كل من هاتين الناحيتين . ولكن بالرغم من هذا فان علماء النفس من أنصار فرويد ويونج ، وأدلر ، وكذلك علماء علم النفس الطبي الذي لم يتقيدوا تقييداً تاماً بأي نظرية من هذه النظريات الثلاثة قد نجحوا جميعاً نجاحاً ملحوظاً مما جعلهم ثقاتاً في ميدان العلاج . فالى أى شيء يرجع هذا النجاح إذن ؟ هل من الممكن أن يكون هناك اتفاق مضمّر بين هذه المذاهب النظرية الثلاثة بحيث نقول إنها لا تؤكّد في الواقع إلا مظاهر مختلفة لنفس العوامل المسببة للاضطراب ؟ أو أن هناك - بغض النظر عن الناحية النظرية - عوامل مشتركة في جميع طرق العلاج المختلفة . يذكر «ميلر»^(١) أن الدكتور «برنارد هارت»^(٢) ، والدكتور «ميتشل»^(٣) ، يجيبان عن السؤال الأول بالاثبات ، فرغم أن تفسيرات الظواهر تختلف اختلافاً أساسياً في المذاهب الثلاثة ، فان كل مذهب منها ينجح في توضيح بعض نواحي هذه الظواهر بشكل أكثر إقناعاً مما يفعل المذهبان الآخران . وكما أن علم الطبيعة الحديث (وهذا التشبيه لهارت) قد نجح في ربط نظريتي الانبعاث والتموج في انتشار الضوء « في فكرة واحدة » ، كذلك قد تتوحد في النهاية هذه النظريات المتباينة التي قال بها علماء علم النفس الطبي . ولو أن هناك - كما سنرى - صعوبات لا يمكن التغلب عليها في سبيل هذا التوحيد .

الاتفاق في الناحية العملية

ومهما كان الأمر فمن المؤكّد أن هناك عاملاً مشتركاً ، أو أكثر من عامل ، تتدخل في جميع طرق العلاج النفسي . فهناك مثلاً ميل للبحث عن سبب

الإضطرابات العصبية ، في خبرات الفرد الأولى ، أى في خبراته الطفلية . أى أن هناك ميل للبحث عن أسباب المرض الحاضر في الماضى البعيد . وقد رأينا يونج يذهب إلى أبعد من هذا ، فيبحث عن أسباب المرض في «اللا شعور الجمعى» . إلا أن طريقته في التحليل تتضمن بالتأكيـد خبرات الشخص المبكرة أيضاً . ويمكن أن يقال أن من الحقائق الثابتة أن إدراك المريض للمواقف القديمة إدراكاً عميقاً أى أن يحياها مرة أخرى (وهو ما يسمى بالتنفيس أو التفريغ النفسى أو الفهم . . . الخ) يؤدى إلى الشفاء .

وعلاوة على ذلك فإن المريض يتخذ من الطبيب باستمرار موقفاً إنفعالياً خاصاً أثناء سير العلاج ، سواء أكان ذلك بقصد من الطبيب ، على اعتباره أنه مجرد مقياس لدرجة الشفاء (وهو ما يسمى بالتحويل) ، أو أن الطبيب يسمح به على اعتبار أنه مجرد مرحلة من مراحل تطور العلاج لا بد من حدوثها . وهذه العلاقة الوجدانية بين المريض والطبيب تسمح بالإحياء بفرصة عظيمة ، وهذا الإحياء وإن كان لا يصل إلى درجة التنويم المغناطيسى ، إلا أنه على أى حال إحياء قوى جداً مبنى على التقدير العظيم . ولقد أنكر أتباع فرويد في وقت ما أن الإحياء يدخل في طريقته في العلاج ، ولكن فرويد نفسه كتب مرة يقول « لقد حذفنا التنويم المغناطيسى من طريقتنا في العلاج ، فوجدنا الإحياء يظهر بدلاً منه في صورة التحويل » .

والعامل الثالث الذى يبدو أنه يلعب دوره في جميع طرق العلاج ، هو الاسترخاء الجسمى الذى هو في ذاته مفيد إلى حد كبير بصرف النظر عما يؤدى إليه من قابلية للاستهواء أو كشف عن العقد اللا شعورية^(١) . ويتصل بهذا الاسترخاء

(١) انظر E. Jacobson, Progressive Relaxation, Chicago, 1929.

العضلى مسألة التنفس . فكثير من علماء علم النفس الطبي يطلبون من مرضاهم أن يتنفسوا تنفسا بطيئا عميقا إيقاعيا فى الوقت الذى يتركون فيه عضلاتهم التى يتحكمون فيها فى حالة استرخاء . ولكن حتى إذا لم يطلب الطبيب ذلك، من مريضه ، فإن الاسترخاء العضلى نفسه يؤدى إلى التنفس البطيء المنتظم الذى يمتاز بقيمة علاجية فى حد ذاته . ولقد بين العلماء (١) أن عملية التنفس هى الوظيفة الحيوية الوحيدة التى لإرادتنا عليها سيطرة مباشرة ، والتى نجد فيها وسيلة غير مباشرة للتأثير على وظائف الجسم الحيوية الأخرى بما فيها وظائف الجهاز العصبى اللاإرادى ، ووظائف الغدد الصماء . ومن المعروف أن إفرازات هذه الغدد الصماء ، وكذلك التوتر والاسترخاء العضليين ترتبط ارتباطا وثيقا بظهور الانفعالات كالغضب أو الخوف . ويرتبط الخوف فى الغالب بالشعور بالخطيئة ، وهو لا يساعد فقط على استمرار ظروف المرض سواء أكان جسميا أم نفسيا ، بل قد يكون سببا فى حدوث أمراض عصبية وظيفية . وإذا أمكن أن تقلل الخوف أو أن نقضى عليه بطريقة ما فإن ذلك يساعد على استرجاع الغدد لنشاطها . ومن المؤكد أن استرجاع الغدد لنشاطها العادى يؤدى إلى الشفاء . ولكن ليس من السهل الوصول إلى هذه النتيجة عن طريق مباشر . بل من الأوفق عمليا أن نقضى على القلق بطريق غير مباشر ، بأن نؤثر على الغدد بوساطة تمارين التنفس التى يقوم بها المريض أثناء استرخائه استرخاء جسميا .

وأذن يبدو أن هناك أربعة عوامل على الأقل تتدخل فى وسائل العلاج التى يتبعها المختصون الذين ينتمون إلى مذاهب مختلفة ، كما تتدخل فى الوسائل التى

G. R. Heyer, The Organism of the Mind,
(Translated by E. and C. Paul), London 1933.

(١) انظر

يتبعها من هم أكثر استقلالاً عن هذه المذاهب . وهذه العوامل مع وجود الاختلافات النظرية ، بل وبالرغم منها ، تكفى لأن تفسر لنا على الأقل بعض النجاح الذى تصيبه أنواع العلاج النفسى المختلفة .

طرق أخرى للعلاج

وقد يعترض على آراء علماء علم النفس الطبى — كما حدث فعلاً — بأن من الممكن أن نحصل على نتائج ناجحة كهذه بطرق أخرى كالطرق التى تدعو إليها التعاليم الدينية ، مثل الحج إلى الأماكن المقدسة ، أو إلى المعابد ، أو المعتقدات المختلفة التى تستخدم فى علاج السذج من المرضى . والحق أن لهذا الاعتراض قيمته ، إذ من الواجب أن نعترف بأن الشفاء قد يحدث أحياناً نتيجة لهذه الوسائل . وإذن يجدر بنا أن نبحث فى سبب ذلك . فقد نجد عاملاً آخر يتدخل فى جميع أنواع العلاج النفسى . وهذا هو الواقع ، فقد وجد أن هناك عاملاً هاماً هو عامل الاعتقاد فى الشفاء ، وتوقعه ، وما ينشأ عن ذلك من ثقة . ويعرف كل طبيب تماماً أهمية الحالة النفسية ، أى أهمية موقف المريض من المرض والصحة بوجه عام ، بصرف النظر عن نوع المرض نفسه ، باعتبار أن هذا الموقف عامل مساعد فعال يؤثر فى أى طريقة من طرق العلاج . فالطبيب النفسى الذى له خبرة بالنشاط النفسى الشعورى واللاشعورى تفوق خبرات غيره من الأطباء الذين لم يدرسوا علم النفس ، يعرف أكثر من غيره ما يجب أن يعمل به ، وما يجب أن يتلافاه لى يؤثر على مريضه . فهو يدرك مقدار ضرورة اكتشاف السبب النفسى الحقيقى للمرض ، والظروف التى تزيد من وطأته فى معالجة المرض علاجاً ناجحاً . وهو يعرف أيضاً أن الثقة لا يمكن بعثها فى نفس المريض إلا

إذا انتزع منه ذلك الشعور بالخطيئة ، أو الخوف الراسخ في أعماق النفس . وإن جهل الطبيب بهذه الحقائق ، وعدم قدرته على مساعدة المريض أن يستفيد منها ، هي التي تجعل تلك الطرق الأخرى التي ذكرناها آنفا غير مجدية في معظم الحالات ، ولو انطوت سريرة المعالج على خير النوايا .

ومع ذلك فإن الطب بمعناه الواسع ، ليس علما فقط ولكنه فن أيضا يستخدم كثيراً من العلوم الطبيعية والبيولوجية ، لكي يحقق غايته . ولا يشذ عن ذلك فرع علم النفس الطبي إلا في أنه يعتمد اعتماداً خاصاً على علم واحد . وبالرغم من أن هذا العلم — أي علم النفس — قد تقدم منذ أواخر القرن الماضي بخطى حثيثة ، إلا أنه لا يزال في بداية شوط طويل من الواجب عليه أن يقطعه . ولا يجب أن ندهش من وجود فروض متضاربة في تفسير الحالات المرضية إلى الآن ، بل يجب أن نهنيء علم النفس الطبي ، لوصوله إلى ذلك الحد من الكمال .

علم النفس العام وعلم النفس الطبي

وزيادة على تضارب النظريات في هذه الدائرة فهناك نقداً آخر نستطيع أن نوجهه إلى أصحاب علم النفس الطبي ؛ ذلك أنهم قد عزلوا أنفسهم عزلاً تاماً داخل الحدود التي رسموها هم أنفسهم لتلك الناحية التي تهمهم من علم النفس بوجه خاص . ولقد كان بعض دارسي هذا العلم ولا يزالون ، على استعداد تام لأن يستفيدوا من الحقائق الهامة التي توصل إليها هؤلاء العلماء ، في سبيل وضع نظرية عامة منظمة . أما هم فيظهر أنهم كانوا أقل استعداداً لأن يضمنوا نظرياتهم الخاصة تلك التفسيرات التي توصلت إليها فروع علم النفس الأخرى .

حقا إن ذلك قد لا يكون ضروريا في التطبيق العملي وهو غرضهم المباشر ،
إلا أن أى علم نفس متكامل يوجد في المستقبل يجب أن يدخل في حسابه
جميع الحقائق التي تقع تحت الملاحظة . وليس هناك مجال للرد بأن أصحاب
علم النفس الطبي قد بدؤوا دراستهم في الأمراض العصبية ، إذ يجب أن نلاحظ
أن الظواهر التي اهتموا بها بشكل أساسي ليست إلا مبالغات في الفروق
الفردية التي توجد بدرجة أقل في الأشخاص الذين نطلق عليهم كلمة
« العاديين » . ولهذا السبب أيضا يصح أن نستخدم تفسيراتهم في علم النفس
العام . وذلك كما نستخدم بالضبط الحقائق التي نلاحظها في علم النفس المقارن
كعلم نفس الحيوان ، وعلم نفس الطفل ، وعلم نفس الشعوب البدائية ، في دراسة
الناحية الذشوائية العادية . فمثل هذه الحقائق جميعا ، يجب أن تدخل في أى
نظرية عامة ، بشرط أن لا تكون هذه الحقائق متعارضة فيما بينها . فإذا لم نوفق
مثلا بين الجبرية التامة ، وبين الغرض أو الهدف إلى غاية ، فإن النظريات
السيكلوجية التي قال بها فرويد ، ويونج ، وأدلر لا يمكن أن تدخل بالصورة
التي هي عليها الآن ، في نظرية عامة تضم نظريات واطسون ومكدوجل
أيضا .

وهناك على أى حال — بصرف النظر عما ذكرنا — عدد من نتائج
أبحاث علم النفس العام يمكن أن يدخل في النظريات العلاجية ، فيفيدها .
فيمكن أن تفيد هذه النظريات مثلا مما عرف عن القدرة العقلية العامة ،
وتوزيعها بين السكان ، وما عرف عن القصور الذاتي ، والتذبذب ، والطلاقة ،
والإرادة ، أى استمرار الدوافع ، وغير ذلك . ولئن تعاون عالم النفس

التجريبى مع عالم الفسيولوجيا وعالم النفس الطبى على البحث ، بقصد توحيد النتائج التى يتوصلون إليها ، لكان لذلك فوائد عظيمة جدا . وقد قامت محاولات كهذه بالفعل ، ولكن يجب أن نعترف بأنه — حتى فى هذه الحالات — ظلت نواحي الاهتمام المختلفة منفصلة تمام الانفصال ، وربما كان فيلسوف العلوم النفسية ، هو أقدر على وضع نظرية تركيبية فى علم النفس . غير أن متابعة هذا التيار الفكرى يخرج بنا عن مجال هذا الكتاب .

علم النفس والأمراض

قد يلذ للقارىء بعد الكلام فى هذه الأمور العامة المجردة أن يحصل على بعض المعلومات فى الأمور العملية ، كأن يعرف مثلا أى نوع من الأمراض يمكن يشفى بالعلاج النفسى . ولكن من الصعب جدا أن نضع هنا قائمة بهذه الأمراض ، إذ أن أى مرض ، كما قلنا آنفا ، قد تدخل فيه عوامل نفسية كالقلق والخوف . ولذلك فإن علم النفس قد يكون مفيدا فى علاج جميع الأمراض (١) . فالحالات التى يتضح من تشخيصها أن أمثال هذه العوامل هى السبب فى مضاعفة المرض ، تتبع فى علاجها الطرق النفسية بالطبع . إذ أن استخدام هذه الطرق يسد الفراغ الموجود بين الحالة الجسمية ، والاستجابة النفسية لهذه الحالة ، وبذلك يصبح المريض أقدر على استعادة صحته ، كما هى الحال فى مرض التهاب البروستاتا ، ذلك المرض الخطير

الذى يشفى فى بعض الحالات بهذه الطرق دون حاجة إلى إجراء عملية جراحية . فعندما تنشأ العلل الجسمية عن مثل هذه العوامل ينصح للمريض بالعلاج النفسى . والأمثلة لهذه العلل - كما وضع ذلك فى أثناء الحرب الأوروبية متعددة ، ويمكن أن نذكر منها : الشلل الوظيفى ، واضطرابات الإحساس (كالعمى ، والصمم ، وضعف الأعصاب ، عل اختلاف أنواعه) ، وفقدان القدرة على الكلام ، وفقدان الذكاء ، والتشنجات ، وتقلصات العضلات ، وما شابه ذلك . ومن الواضح كذلك أن الأمراض النفسية ، كالقلق النفسى ، والإلزام ، وما ينشأ عنها من مخاوف مرضية (كالخوف دون مبرر من الأماكن المتسعة ، والأماكن المغلقة ، والأماكن المرتفعة ، ومن تسمم الطعام) ، وكذلك الهوس ، أو الحصار (كاللمس الجبرى ، والخطو ، وغسل الأيدي ، والإحراق ، والسرققة ، والشعور بالاضطهاد) ، كل هذه تستدعى علاجاً طبياً نفسياً . ويدخل فى عداد هذه الأمراض الهستيريا ، والانقسام الهستيرى للنفس ، وضعف الوعى ، وما يسمى بالشخصية المزدوجة ، أو الشخصية المتغيرة . وحالات الشعور بالقصور والاكتئاب ، أو فقدان الاهتمام بالأشياء أو بالناس ، وعدد كبير من الأمراض العصبية الأخرى . ويضاف إلى هذه الأمراض العادات المرضية ، مثل ادمان المسكرات ، وتعود الأدوية وغيرها من الاضطرابات الكثيرة التى يمكن أن تشفى مباشرة بالعلاج النفسى . وإذا ما تذكرنا أن هذه الحالات قد تحدث بدرجة ما من الشدة ، وأن عدد من يشكو هذه الأمراض وفى حاجة إلى العلاج ، قد قدر فى الجزائر البريطانية وحدها بما لا يقل عن ثلاثة ملايين نسمة ، فسوف نقدر الأهمية العظمى لما يمكن أن يؤديه علم النفس فى ميدان الطب .

مراجع (١)

S. Freud, The Psychopathology of Everyday Life (Translated by J. Riviere) London, 1922.

S. Freud, Introductory Lectures on Psychoanalysis (Translated by A. A. Brill) London, 1914.

H. Crichton-Miller, Psychoanalysis and its Derivatives, London, 1933

(١) وبالإضافة إلى ما ذكرنا في الفصل الرابع يمكن أن نضيف أيضا المراجع الآتية :

S. Freud, New Introductory Lectures on Psychoanalysis
(Translated by W. J. H. Sprott.) London. 1933.

وعلم النفس الفردي تأليف الأستاذ اسحق رمزي ، مطبعة المعارف سنة ١٩
ومشكلة السلوك السيكوپاتي تأليف الدكتور صبري جرجس ، مطبعة المعارف

سنة ١٩

الفصل الثاني عشر

علم الاجرام والقانون

بدأ علماء النفس ينظرون إلى إجرام الكبار نظرتهم إلى انحراف الأحداث :
أى باعتبار أنه نتيجة لعدم التكيف مع الظروف الاجتماعية ، بدلا من اعتباره
إنما وخطيئة . وكذلك بدأ إصلاح المجرم عن طريق العلاج يصبح الغرض الأساسى
من « العقاب » . ولقد كان العقاب قديما يعتبر انتقاما شخصيا . فكان المعتدى
عليه ينظر فيه إلى مصلحته الخاصة ، ويرضى عن طريقه شهوته فى الانتقام بالحقه
الضرر بشخص المعتدى أو بممتلكاته . ثم بدأ العقاب بعد ذلك يتخذ مظهرا
اجتماعيا ، ولكن دون أن يفقد فى بادىء الأمر صفته الانتقامية . كما أنه اتخذ مظهر العدالة
والانصاف ، إذ أصبح يتكافأ والجريمة ، ولم يعد متروكا لشهوة الأفراد . هذا ، وإن
كان العقاب قد استمر مع ذلك خاضعا لمبدأ « العين بالعين ، والسن بالسن » .
ولكن العقاب القائم على الانتقام لا يتمشى فى الواقع مع حاجات المجتمع إلا إذا
حقق لنا عدم تكرر وقوع الجريمة سواء من ناحية المجرم نفسه أو من ناحية غيره
من قدير تكون نفس الجرم ، فإذا كانت غايتنا هى مصلحة المجتمع وجب أن
يكون الغرض من العقاب إذن هو الوقاية . وأى وسيلة تحقق هذا الغرض يجب أن
تعتبر صالحة من الوجهة الاجتماعية . فإذا كان فى إمكاننا أن نستبعد أسباب
الاجرام وظروفه سواء أ كانت هذه الأسباب ترجع إلى البيئة أو إلى الشخص
نفسه ، لكانت هذه هى الوسيلة المثالية التى يجب علينا أن نتخذها . ولقد
قامت بالفعل عدة محاولات فى هذا السبيل عن طريق الخدمات الاجتماعية ،

وإن كان لا يزال علينا القيام بمجهودات أخرى كثيرة . فإزالة الأحياء الفقيرة وإعادة بناء منازلها ، والتأمين الصحى ، والتأمين ضد البطالة ، والخدمات الطبية وإعداد ميادين اللعب ، وملاجئ العجزة ، وأمثالها ، كل هذه ولوائها حركات مؤسسة على مبادئ إنسانية عامة ، وليس الدافع إليها هو القضاء على الاجرام بوجه خاص ، إلا أنها تساعد فى الواقع على القضاء على بعض الظروف التى تهيء للاجرام .

ولكن حتى لو فرضنا أن جميع الظروف المتعلقة بالبيئة قد أصبحت مهيئة على خير وجه ، يبقى علينا أن نفكر فى الأسباب النفسية التى تؤدى إلى ارتكاب المخالفات . وهذه الأسباب كثيرة ، كاسباب انحراف الأحداث ، ومنها : نمو بعض الميول الغريزية نمواً غير عادى ، وعدم الاستقرار الانفعالى العام ، والضعف العقلى وما شابه ذلك ، أو بعض هذه الاسباب مجتمعة . ولما كان من المعروف أن بعض هذه الاسباب وراثى ، لذا كان من الممكن أن نعالج الموضوع بأكمله عن طريق تحسين النسل ، إلا أن مشكلات تحسين النسل مشكلات متضاربة وفى غاية التعقيد ، وليس هنا مجال مناقشتها بالتفصيل .

الأسباب المرضية للجريمة

وعلى أى حال فإن هناك حقيقة هامة يجب ألا تغيب عن بالنا ، وهى أن العقلية الاجرامية ، وما ينشأ عنها من سلوك مضاد للمجتمع فى كثير من الحالات ، هى نتيجة لأسباب مرضية . وأن من الواجب أن نعالج هذه الأسباب بدلاً من توقيع العقوبات . وقد عرف علماء النفس هذه الحقيقة منذ مدة طويلة ، كما اعترف بها أيضاً

في محاكمنا^(١)، وإن كان عدد المخالفات التي قد يضمها العالم النفسى قائمة الجرائم التي تنشأ عن دوافع مرضية يزيد على العدد الذي يعترف به رجل القانون زيادة عظيمة. فالى جانب الكثير من ضروب الانحرافات الجنسية التي غالباً ما يشير القضاء فيها بالعلاج النفسى الطبى أكثر مما يحكمون بالسجن، توجد حالات الاحراق المقصود التي قد تكون في الحقيقة من حالات جنون الاحراق القهرى (البيرومانيا)، وكذلك السرقة التي قد تكون من حالات جنون السرقة القهرى أو نتيجة لحالة (فيتيشية)^(٢) لا يمكن التغلب عليها، وهناك كذلك قذف الخبز وتقطيع الملابس بالمشارط مما قد يرجع إلى دوافع شبقية غامضة الخ. وقد تكون قائمة العالم النفسى طويلة حقاً، ولكن مع ذلك فقد توجد في مقابل كل جريمة تنشأ عن سبب مرضى جريمة أخرى لا يمكن أن نملأها بمثل هذا السبب. وبعبارة أخرى، قد يكون السلوك المضاد للمجتمع جريمة، أو نتيجة انحراف نفسى غامض لا سيطرة للمذنب عليه. والتمييز بين السلوك الناشئ عن سبب مرضى والسلوك الناشئ عن سبب إجرامى ليس بالأمر الهين دائماً حتى بالنسبة للمختص. ولهذا فأننا محتاجون في هذا المجال - كما هو الحال في توجيه الأطفال، والتوجيه المهنى والعلاج النفسى - إلى أساس متين من علم النفس وخبرة عملية طويلة. وينبغى أن نعترف هنا بأن التقدم الذى حدث في هذا المجال ليس من الواضح

(١) يقصد المؤلف المحاكم الانجليزية. وقد بدأت المحاكم المصرية أيضاً تأخذ بوجهة النظر هذه. (المترجمان)

(٢) الفيتيشية Feticism هي الحالة التي يحصل فيها شخص ما على لذة جنسية من تأمله رمزاً محبوبه أو ملامسة شيء له أو من مجرد الاستحواذ على ذلك الشيء (المترجمان)

بحيث يقارن بالتقدم الذى رأيناه فى الفصول التى تناولنا فيها علم النفس التربوى وعلم النفس الصناعى ، وعلم النفس الطبى .

إختبارات الاجرام

ومن الوسائل التى اكتشفت للتمييز بين المجرمين وغير المجرمين ممن يرتكبون المخالفات بعض الاختبارات المعروفة . وقد استخدمت بالفعل فى اكتشاف الجرائم ، كما استخدمت كذلك فى اكتشاف الصراع اللاشعورى ، والعقد النفسية عند المرضى المصابين بالهستيريا والأمراض النفسية . وهناك تجربة يمكن إجراؤها فى معمل علم النفس لا يصعب معها معرفة أحد اثنين قد ارتكب جريمة مفتعلة من جرائم السرقة أو السطو أو القتل . فتكتب قصة هذه الجريمة الخيالية وتوضع فى ظرف مغلق ، كما توضع ورقة بيضاء فى ظرف آخر ويأخذ كل من الاثنين «المشتبه فيهما» ظرفا ويطلب منهما أن يذهبا إلى غرفة أخرى وأن يقرأ بعناية ما قد يكون فيهما ، وأن يعودا فى وقت معين إلى المعمل . وفى نفس الوقت تكون قد هيئت قائمة كلمات بحيث لا تكون لها أى صلة تذكر بالجريمة ، ثم يدخل فى القائمة بعد ذلك فى أما كن متفرقة منها كلمات لها صلة وثيقة بها . وعندما يعود «المشتبه فيهما» إلى المعمل يجلسان ويطلب منهما ذكر الكلمة التى تخطر لهما بعد سماع كل كلمة من كلمات القائمة بأسرع ما يمكن ، وتسجل أزمنة الرجوع بواسطة المؤقت (الكرونومتر) . وبفحص الكلمات التى يذكرونها ، وكذلك بفحص مقدار أزمنة الرجوع للكلمات ذات المعنى الخاص فى القائمة ومقارنتها بمتوسط زمن الرجوع بوجه عام ، يسهل علينا جدا اكتشاف «المجرم» . فالمجرم فى هذه الحالة يكشف عن نفسه بتردده إزاء الكلمات التى تتصل بالجريمة أو بإجابته إجابات تشير إليها بوضوح .

ورغم أن هذه التجربة كما قلنا تجربة تجري في المعمل ، إلا أن من الممكن جداً تطبيقها في الحياة العادية ، ويدكر المؤلف أن أحد زملائه استفاد من اختبار الكلمات هذا ليكتشف أى الخادمتين المشتبه فيهما هى التى سرقت بعض المجوهرات من خزانة فى غرفة نومة . فقد أجرى عليهما التجربة بأن جهز لهما قائمة من كلمات عادية أدخل بينها بعض هذه الكلمات مثل «خاتم» ، «ذهب» ، «غرفة نوم» ، «خزانة» ، «سرقة» ، وكانت نتيجة أنها أن كشفت السارقة نفسها واستردت منها المجوهرات .

ومن الممكن أن نكمل هذا الاختبار باختبارات أخرى يقال إنها أدق وأضبط . فمثلا يرى «مارستون» ^(١) ضرورة حدوث تغيرات فى ضغط الدم نتيجة تقلصات القلب والأوعية الدموية عندما يحاول الإنسان أن يخدع الآخرين بالكذب . ويدلنا استخدام الجهاز المسمى بالسيكوجلفانومتر على وجود اضطرابات جسمية تسببها الانفعالات التى يحتمل جداً أن تظهر على المجرم عندما نحاول أن نكشف عن جرم ينوء به ضميره . وهذا الجهاز فى أكثر صورته شيوعاً يتكون من جسر هويستون ^(٢) ، وفيه مقاومتان محددتان بنسبة ثابتة ، ومقاومة ثالثة متغيرة . وتدخل يد المفحوص فى الدائرة الكهر بائية باعتبارها مقاومة رابعة . ويوضع القضيبان على ظهر و بطن اليد ، ثم تمدل المقاومة المتغيرة حتى يتوازن الجسر وتصبح اليد والمقاومة المتغيرة متناسبتين مع المقاومتين الثابتتين حتى لا يسير التيار خلال دائرة الجلفانومتر . وفى هذه الحالة إذا تبددت إبرة الجلفانومتر يكون السبب فى

W. M. Marston, Systolic Blood Pressure Symptoms of (١)

Deception; J. Exp. Psy., 1971

Wheatstone Bridge (١)

ذلك هو تغير مقاومة اليد . ومن المعروف أن المقاومة تقل عندما يوضع المفحوص تحت مؤثرات ضارة ، أو يهدد على الأقل بوجودها ، فيستثار فيه انفعال الخوف مثلاً . وتقل المقاومة كذلك في حالة الانفعالات الشبقية ، أو عندما تستثار انفعالات أخرى بشكل شعورى أو لاشعورى . ويمكن ملاحظة مقدار هذا التغير في الحالة النفسية وقياسه أو تسجيله تسجيلًا فوتوغرافيًا بأن نعكس قلماً ضوئياً من مرآة تتصل بالإبرة (المغناطيسية) على لوحة أو فيلم متحرك . ويمكن بعد ذلك أن نستخلص حقائق تتعلق بطبيعة الانفعالات المستثارة .

وتستخدم مثل هذه الوسائل ، لا في التمييز بين الخطئء المسئول والخطئء غير المسئول فحسب ، بل في التمييز أيضاً بين الخطئء من أى النوعين ، والبرىء الذى لم يرتكب خطأ بالمرّة . وهذا ممكن نظرياً إذا تساوت جميع الظروف ماعدا وجود الخطأ أو عدم وجوده . ولكن الواقع أن عدداً كبيراً من العوامل الأخرى قد يتدخل في الموقف ، بحيث يصبح من الخطر الشديد أن نعتمد على هذه الوسائل وحدها . وكذلك يجب أن نقيم وزناً كبيراً للاختلافات الفردية في الحالة الانفعالية العامة أو الخاصة . فالشخص الخجول أو الشديد الحياء قد يقوم بردود أفعال يمكن أن تؤول بسهولة كدليل على أنه مذنب ، في حين أن الشخص ذا المزاج البليغى أو الشخص البليد الآثم حقاً قد لا يقوم بأى رد فعل على الإطلاق . ولذا فإن أمثال هذه الاختبارات في صورتها الحالية لا تصلح إلا ك موضوع لبحث يجرى في المعمل فقط ، ومن الصعب ان نوصى باستخدامها في المحاكم . ولكن قد يأتى الوقت الذى تهذب فيه هذه الاختبارات وتكمل فتصبح ذات قيمة عملية في علم الإجرام ، ولو أنه لا يمكن حتى الآن لا كبير مختص في علم النفس أن يوصى بقيام الاتهام والتبرئة على أساس نتائجها وحدها . وغاية ما

يمكن أن يفعله هو أن يستنتج من هذه النتائج احتمالاً قوياً أو ضعيفاً في حاجة إلى زيادة في البحث .

قيمة الشهادة

وسرعان ما يؤدي بنا ذلك إلى مسألة أخرى يستطيع علماء النفس أن يدلوا عنها بمعلومات كثيرة ، فينبغي بذلك السبيل لحل إحدى المشاكل القانونية ، وهي مشكلة صحة الشهادة . فصحة الشهادة تتوقف على عدد من العوامل ، كثيراً ما تغفل عند تقدير قيمة الشهادة . فمن النادر أن تطابق ذكرياتنا الحوادث الأصلية ، في حين أنه يمكن إسترجاع هذه الحوادث في صورتها الأصلية بدون تغيير إذا قمنا بتسجيلها . وعلى ذلك فالشهادة المبنية على السماع لا يجوز أن تقرها المحاكم . والواقع أن التجارب التي أجريت على التذكر المتسلسل قد بينت لنا كيف تشوه القصة التي تنتقل من فم إلى آخر ، وتصبح غير مطابقة للواقع بعد فترة وجيزة . « فتنقلب الصفات إلى عكسها ، ويتغير ترتيب الوقائع والحوادث ، وكذلك تعكس الآراء والنتائج . أما الأسماء والأرقام ، فقلما تظل على حقيقة بعد مرات قليلة من التكرار ، أي أن كل تغيير ممكن تقريباً ، يجوز أن يحدث حتى في سلسلة قصيرة من الروايات »^(١) بل إذا قرأ شخص قصة ، وحاول أن يتذكرها بعد فترة قصيرة ثم بعد فترات أطول فأطول فأننا نجد أنه يغير فيها بطرق مختلفة ، بالحذف والاختراع وتغيير الترتيب ونقل الحوادث . ويقودنا هذا إلى مسألة ذات أهمية عظمى هي مسألة التبرير ووضع الخبرة في صورة نقبلها ونرضى عنها . فالإنسان في الغالب لا يتذكر

F. C. Bartlett, Remembering, Cambridge. 1932. (١)

الحادثة كما حدثت بالفعل ، بل كما يود أن تكون ، وهذه الحقائق تجعلنا نشك تماماً في إمكان الاعتماد على شهود العيان في القضايا ، حتى ولو لم تكن لهم رغبة أو نية في الخداع ، ولم يكن لهم من غرض سوى قول « الحق » ، والحق كله ، ولا شيء غير الحق » .

وقد بحث شترن في إمكان الاعتماد على الشهود بحثاً تجريبياً فكانت تجاربه تؤدي إلى نفس النتائج باستمرار . وفي هذه التجارب كان يعرض على المفحوص عدة صور مع التنبيه عليهم بأن يلاحظوها ملاحظة دقيقة بقدر الامكان ، حتى يستطيعوا وصف ما رأوه وصفاً دقيقاً فيما بعد ، كما كانوا يذهبون أيضاً إلى أنهم سوف يجيبون عن أسئلة تتعلق بهذه الصور . وبعد أن يسمح لهم بدراسة الصور المعروضة ، كان يطلب منهم أن يكتبوا أوصافها كاملة بقدر الامكان . وقد وجد أن ما كانوا يسجلونه في تقاريرهم كان قليلاً جداً بالنسبة للتفاصيل العديدة الموجودة في الصور . ثم إن ما يعادل ١٥ في المائة من مجموع أوصافهم كانت إما خطأ أو غير دقيقة . وعلاوة على ذلك فإن المفحوصين عندما كان يطلب منهم القسم على وجود هذه الأوصاف كانوا يمدون مستعدين كل الاستعداد لأن يفعلوا ذلك . وسواء أكانت التجارب تتضمن القسم أو لا تتضمنه فإن إنعدام الدقة كان يزداد يوماً بعد يوم .

الايحاء

وقد هذبت هذه التجارب بعد ذلك فوضعت أسئلة عن الصور تسأل بعد عرضها . فكانت الأسئلة المباشرة مثل ، « هل رأيت كذا في الصورة ؟ » ، تشير جواباً مباشراً ، بالرغم من وجود خداع إيحائي يجعل الشخص يعتقد بعد سماع السؤال ،

ان مثل هذا الشيء أو ذاك يوجد حقاً ، فيقرره . وقد يؤدي هذا إلى أخطاء غير مقصودة عند الأشخاص الذين لديهم قابلية شديدة للاستهواء . ويدخل مقدار كبير من الإيحاء في بعض الأسئلة الإيحائية مثل : « ماذا يوجد فوق المائدة ؟ » فهذا السؤال يتضمن وجود شيء فوق المائدة بالفعل . أو « ما هي ألوان الأزهار الموجودة في الزهرية ؟ » ، في حين أنه لا توجد زهرية ولا أزهار في الصورة . والواقع أنه يمكن من الوجهة العملية أن نصوغ أى سؤال بحيث يدخل فيه عامل الإيحاء بنسبة قليلة أو كثيرة . ويجب ألا ننسى أن هذا الإيحاء ، إذا نظرنا إليه من ناحية الشخص الذى يسأل والشخص الذى يجيب ، يكون فى الغالب إيحاء صيت قوى جداً ، كما هو الحال بالنسبة للأطفال عندما يسألهم أشخاص أكبر منهم سناً . فالأطفال ليسوا قائلين للاستهواء فحسب (وتزداد هذه القابلية كلما كانوا أصغر سناً) ، بل إنهم ، كما رأينا ، يمزجون الأوهام بالحقيقة ، حتى إنه يصعب عليهم أن يميزوا بين ما هو حقيقى وما هو غير حقيقى . وبذلك يكون من السهل جداً أن يحيبوا إجابات خاطئة عن أسئلة من النوع الإيحائى .

ولا يمكن أن ننكر أن هذا يؤدي إلى خطر حقيقى عند تنفيذ القانون ، وذلك إذا كانت أحكامه معتمدة على الشهادة . وهناك حالات حديثة مسجلة تبين فشل العدالة فشلاً ذريعاً بسبب اعتمادها على شهادة كاذبة أداها أصحابها بنية حسنة . وان عدم معرفة التفسير السيكولوجى للمسائل التى نحن بصدددها ، أيام السحرة والعرافين ، مع ميل الجهلاء والسذج إلى الاستهواء ، وخاصة استهواء الجماهير أو استهواء الجماعة ، وكذلك إمتحان المتهمين بالاحتكام إلى أشياء كالنار والماء ، كل هذا يفسر لنا إلى حد كبير ما كان يحدث حينئذ من مبالغات . ولكن المعرفة قد إزدادت اليوم زيادة كبيرة وأصبح الناس أقل سذاجة وأقل

(ع — ١٢)

اعتقاداً في الخرافات عن ذى قبل ، كما أصبحت العقلية الإنسانية أكثر مرونة
وأكثر تسامحاً . ومع ذلك فإن العوامل التي كانت تسبب مخالفة الشهادة للواقع
عن غير قصد لا تزال هي هي ، كما أنها لم تعد غريبة على أوثك الذين يقومون
بفحص قيمة الشهادة الإنسانية وتقديرها في دور العدالة .

محاكم الأحداث

ولنشر هنا إلى مسألة أخرى تنبئ إليها علم النفس فيما يتعلق بالجرام وتطبيق
القانون ، ما دما قد أثرنا موضوع الفرق بين الأطفال والكبار من حيث قابليتهم
للأستهواء . تلك هي مسألة انشاء محاكم للأحداث ترمى إلى دراسة وعلاج
الأحداث المنحرفين في المراحل الأولى قبل أن تثبت فيهم العادات الإجرامية .
وقد أسست العيادات السيكلوجية للأطفال^(١) على أساس العمل الذي قام به
أولادكتور «وليم هيلي» في شيكاغو . والغرض من هذه العيادات هو الوقاية من
لانحراف أكثر منه تقويم المنحرف بالفعل . ولما كان من الممكن أن نميز مراحل
مختلفة في أثناء التطور النفسى^(٢) للأفراد من الطفولة إلى البلوغ ، لذا كان من
الواضح أن توجد طرق مختلفة في علاج السلوك المضاد للمجتمع عن طرق الوقاية
أو الإصلاح أو المنع في هذه المراحل المختلفة . وإنه لمن الخير العميم أن اعترف
بهذا العلاج باعتبار أنه مبدأ موجه في أثناء الإجراءات القانونية ، وهذا مما يبعث
على الثقة مرة أخرى بعلم النفس التطبيقي .

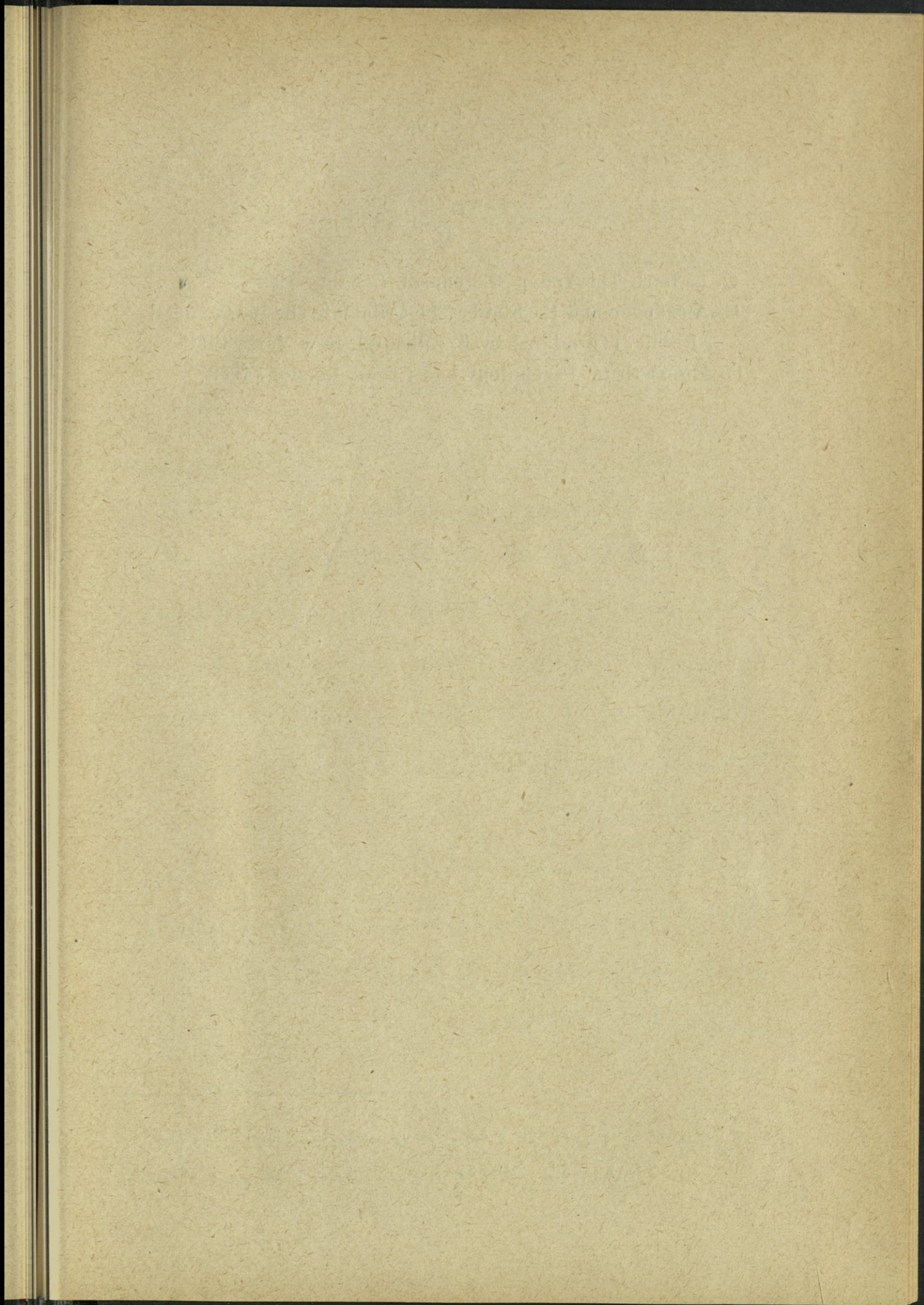
(١) انظر ص ١٣٣ والصفحات التالية لها

(٢) انظر ص ١٣٨ والصفحات التالية لها

مراجع^(١)

- C. L. Burt, The Young Delinquent, London, 1925.
F. Alexander and H. Staub, The Criminal, The Judge and the Public. (Translated by E. Zilboorg), New York, 1931.
H. Munsterberg, Psychology and Crime, London, 1909

(١) ويمكن أن نضيف إلى هذه المراجع كتاب « علم النفس الجنائي علما وعملا »
تأليف محمد فتحي بك (لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٣)



نظرة الى المستقبل

الفصل الثالث عشر

مستقبل علم النفس

من المحتمل جداً أن يكون بعض قراء هذا الكتاب قد وجدوا صعوبة مزدوجة فيما يتعلق بالمصطلحات التي اضطررنا إلى استخدامها فيه . ذلك أن بعض الكلمات قد يكون غامضاً غير مألوف لديهم ، في حين أن البعض الآخر ، رغم أنه يستخدم باستمرار في الحياة العادية ، قد جاء استخدامه في هذا الكتاب استخداماً فنياً وفي معانٍ محددة . وهذا من سوء حظ علم كعلم النفس ، موضوعه الأساسي السلوك والخبرة ، اللذان يعرفهما كل إنسان معرفة تامة ، ولكن التعبير عنهما كان منذ قديم الزمان باللغة العادية . إن الدقة والتحديد العلميين يقتضيان أن نستحدث مصطلحات فنية أو أن نحدد معاني الألفاظ العادية تحديداً دقيقاً إذا أردنا أن نبقى عليها . والواقع أن كلتا هاتين الطريقتين قد اتبعنا ، فأصبح علم النفس اليوم يستخدم في بعض الموضوعات الفاظاً مستحدثة ، وفي موضوعات أخرى يبقى على الألفاظ الشائعة مع تحديد معناها تحديداً يتفق وأغراضه الخاصة . ولذا افتيت على علم النفس ، بغير حق ، أنه « يعلمنا ما يعرفه كل إنسان معرفة تامة بعبارات لا ييسر لأحد فهمها » .

وليس الرجل العادي وحده هو الذي يشكو هذه الصعوبة اللغوية ، وخاصة صعوبة الألفاظ المستعارة من اللغة العادية ، بل الواقع أن كثيراً من هذه الألفاظ من الغموض بحيث يتعذر على مبتدئ أن يعتمد عليها . ولا يحاول علماء النفس الذين

يستخدمون هذه الألفاظ أن يوضحوها في كل الأوقات . ومن أمثلة ذلك كلمة «انفعال»^(١) وكلمة «احساس»^(٢) ، وكلمة «شعور»^(٣) . وإن ما ينتظر لعلم النفس من تقدم عظيم في المستقبل ليعتمد إلى حد كبير على ما يتحقق لمصطلحاته من دقة وتحديد تمكن مقارنتها بدقة وتحديد مصطلحات العلوم الأخرى وخصوصاً العلوم الطبيعية . وتستطيع أن نقول واثقين إن القسط الأكبر من التعارض الظاهري بين ممثلي مذاهب علم النفس الحديثة ، التي عرضناها في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، يرجع إلى حد كبير إلى مثل هذا الغموض في الألفاظ ، وأنه إذا ماتخلص العلماء من هذا الغموض ، فسيجدون أن بينهم اتفاقاً حقيقياً ، أكثر مما قد يبدو لنا الآن .

وترجع المصطلحات المستحدثة في الغالب إلى مؤسسي مذاهب علم النفس ، الذين يرمون عند عرضهم لنظرياتهم الحديثة إلى التوضيح والتحديد بقدر الإمكان . ومن الكلمات المستحدثة التي جاء بها هؤلاء العلماء كلمة Noegenesis^(٤) وكلمة Isomorphism^(٥) وكلمة Catharsis^(٦) وغيرها . ورغم أن هذه الألفاظ قد وضعت لكي يتحاشى بها أصحابها كل غموض وإبهام ، إلا أن فهم المقصود منها ، وكذلك فهم المذاهب التي تشير إليها في عرض الحديث ، لا يزال صعباً .

(١) Emotion (٢) Sensation (٣) Consciousness

(٤) ترجمناها بنشأة المعرفة (٥) ترجمناها بالتطهير أو التنفيس

(٦) كلمة مأخوذة من كلمتين يونانيتين الأولى بمعنى مساو أو مشابه والثانية بمعنى شكل . ومعناها التشابه من حيث الشكل أو التكوين . وقد أستخدم علماء الجسثالت هذه الكلمة ليعبروا عن التشابه في التكوين بين مجالات المخ ومحتويات الشعور في لحظة ما .

الترجمان

أصحاب المذاهب وعلماء النفس

ومع ذلك فإن الأغلبية العظمى من علماء النفس ليسوا من أصحاب المذاهب الخاصة ، بل ولا يدعون أنهم كذلك . وهم قانعون بانتقاد المذاهب النظرية التي قال بها زعماء علم النفس الحديث ، وبتقبل ما تؤيده الأدلة ، مع متابعة البحث وجمع الحقائق الأولى من مختلف ميادين البحث التي انقسم إليها علم النفس عن طريق التخصص . ولا يختلف علم النفس في ذلك عن غيره من العلوم إلا قليلاً ، بل قد لا يختلف بالمرّة . فمعظم المشتغلين بالفروع الخاصة في العلوم الأخرى أيضاً ، يعملون على تنمية الحقائق المتعلقة بفرعهم ، وربطها بعضها ببعض ، وإدخالها في الهيكل العام للعلم الذي تنتمي إليه . وكلما تجمع عدد كبير من الأدلة على مجموعة من الحقائق المكتشفة حديثاً ، كان ذلك مدعاة لافتراض قوانين خاصة تفسر هذه الحقائق ، وإن لم تنطبق هذه القوانين دائماً على جميع الحقائق التي تتعلق بها . ولكن من النادر جداً أن يحاول رجال عظام من أصحاب المذاهب أن يتوصلوا إلى مبادئ أعم ، تضم تلك القوانين الخاصة ، وتربط مجموعات الحقائق بعضها ببعض وحدات أكبر ، كما فعل جاليليو ونيوتن وايدشتين . فقد وسع هؤلاء الهيكل العام لعلم الطبيعة بأن قللوا من عدد المبادئ الخاصة وما إليها مما يفسر الظواهر الطبيعية ، ووضعوا عدداً قليلاً من المبادئ العامة ، التي يمكن أن تشمل بالتفسير معظم الظواهر الملاحظة ، إن لم تشملها جميعاً .

ويبدو أن هناك حركة شبيهة بهذه قد بدأت فعلاً في علم النفس . فبمعالجة ظواهر الإدراك الحسي والإدراك الكلّي والحكم والتفكير بشكل جزئي ، ظهر أنها يمكن أن تندمج في مجموعات . وأصبحت كل مجموعة منها في حاجة إلى مبادئ تفسرها بشكل تقريبي . ثم تطورت هذه المبادئ التفسيرية التقريرية في صورة ملكات

مختلفة أو قوى منفصلة تفسر كل منها مجموعة من الظواهر التي نحن بصدددها. ولكن كما وجد أن جميع أشكال الحركة الطبيعية وأنواعها يمكن أن تفسر بالرجوع إلى مالا يزيد عن ثلاثة مبادئ بسيطة عامة، كذلك وجد أن جميع ظواهر الإدراك الحسى والتصور والحكم والتفكير، أو باختصار جميع ما يقوم به العقل من عمليات ادراكية، يمكن أن يفسر بالرجوع إلى مالا يزيد عن ثلاثة قوانين أساسية هي قوانين نشأة المعرفة. وهناك حركة أخرى تشبه تلك التي تحولت بها الطبيعة إلى علم واحد متماسك، فكما أن الفكرة القديمة التي كانت تذهب إلى القول بقوى خاصة تحدث عنها ظواهر خاصة قد حلت محلها فكرة طاقة واحدة يمكن أن تخرج إلى حيز الفعل في صور مختلفة، وتؤدي «أعمالا» إن تسكن مختلفة إلا أنها متعادلة، كذلك فإن فكرة طاقة عقلية واحدة واحدة تفتج عنها نتائج مختلفة بخروجها في «آلات» مختلفة، قد أدت إلى توحيد علم النفس وجعله علما متماسكا في مجال العمليات الإدراكية. ولقد سبق أن أشرنا إلى أن التوسع في تطبيق المنهج الذى أدى إلى اكتشاف قدرة عقلية (إدراكية) عامة تعمل إلى جانب القدرات الخاصة، يبشر بالأمل فى أن تدخل مظاهر النفس الأخرى وهى النزوع أو الميل والانفعال أو الوجدان ضمن دائرة أكثر عموما. إذ نتوقع فى هذه الحالة أن تضم المبادئ التفسيرية القرينية التى لاتزال تفسر هذه الظواهر مبادئ أخرى أكثر شمولا، ثم تنطوى هذه وتلك فى النهاية تحت مبادئ تفسيرية نهائية.

وهناك اكتشاف آخر عظيم القيمة، وإن كنا لانتطيع أن نقدر بعد كل ما يمكن أن يقوم به فى سبيل تكوين علم نفس موحد، ذلك هو اكتشاف اللاشعور كمستودع ديناميكى للطاقة النفسية. ولا نكون مغاليين إذا قارنا ذلك باكتشاف النشاط الإشعاعى فى الطبيعة. وعلى أى حال فإن تصور الفرد باعتبار أنه مخلوق

له حاجاته وزعاته البيولوجية التي تظهر في الشعور في صورة دوافع ورغبات ، هذا التصور قد غير بشكل أساسي تلك النظرة الفكرية القديمة التي تعتبر النفس لوحاً أملس من الشمع أو صحيفة بيضاء من الورق تنطبع عليها الخبرات بالتدريج في صورة عناصر معرفية . فقد أكد هذا التصور طبيعة النفس النازعة أو الفعالة ووضع قوى المعرفة أوقوى الإدراك في مكانها الصحيح باعتبار أنها وسائل تستخدم للوصول إلى غرض ما .

الوجدان والارادة والنزوع

ولكن الواقع أننا إذا ما أخرجنا من حسابنا النظريات التي قال بها علماء التحليل النفسي وعلماء المذهب الغرضي ، لوجدنا أن البحوث التجريبية التي أجريت على العمليات الشوقية^(١) من وجدان ونزوع قليلة جداً . فإذا ما قارنا البحوث الهزيلة التي أجريت على مشاكل الارادة ، بل وعلى مشاكل الوجدان والانفعال ، وكذلك النتائج التافهة التي استخلصت منها ، بالبحوث الضخمة التي أجريت في السنوات الأخيرة على الإدراك والنتائج القيمة التي توصل إليها العلماء في هذا المجال ، لكان ذلك مثاراً للدهشة ومبعثاً على الأسف . فليست لدينا اختبارات للارادة كاختبارات الذكاء ، ولا مقاييس دقيقة للانفعال والوجدان . أي أن نصف الشخصية وربما كان أهم نصفها ، لا زال بالنسبة لنا

(١) الشوق Orexis ويشمل النواحي الوجدانية والنزوعية من الخبرات النفسية وهي التي تقابل النواحي الإدراكية Cognitive . وهذه الترجمة مأخوذة عن الأستاذ محمد خلف الله .

كتاباً مخلقاً ، بمعنى أنه ليست لدينا عنه معرفة علمية دقيقة . ومع ذلك يستطيع علماء النفس أن يعزوا أنفسهم بأن نفس هذا النقد كان يمكن أن يقال منذ أقل من أربعين سنة عن نفس الموضوعات التي تقدم فيها علم النفس الآن أعظم التقدم . وبذلك يستطيع علماء النفس أن يأملوا بحق في تقدم مماثل في مجال النواحي الشوقية .

ونعمة نقطة أخيرة نذكرها باعتبار أنها علامة يمكن أن تدلنا على الطريق التي يهدف علم النفس العلمى باتجاهه فيها إلى أن يصبح أكثر كمالاً وأكثر تماسكاً ، تلك هي فكرة « الكل » عند الجشتالتين ، باعتبار أنها مبدأ في تفسير الظواهر النفسية . وقد يكون من سبق القول أن نتنبأ بما سيتمخض عنه التطبيق الشامل لهذه الفكرة على جميع مشكلات علم النفس ، ولكن من الممكن أن نقرر بشكل قاطع أن ما تتضمنه هذه الفكرة من الوجهة السيكلوجية لا يتقيد قطعاً بالفروض الفسيولوجية التي وضعت لتأييدها . أما تناول هذا المبدأ في الوقت الحاضر بالنقد الدقيق والمعارضة الشديدة فهو في صالحه إلى حد كبير ، باعتبار أن ذلك دليل على تحديه القوى للآراء الحديثة . وقد بدأت نتيجة هذا التحدى تظهر بالفعل عندما قيل إن قوانين « الكل » ، التي اعتبر أنها قوانين موضوعية تخضع لها عملية الإدراك الحسى ، ثم شملت بعد ذلك جميع العمليات العقلية الأخرى ، هذه القوانين يجب أن تتسع دائرتها حتى تشمل على الأقل مبدأ واحداً من المبادئ التي تعتبر مبادئ ذاتية . فأننا حتى إذا ما اقتصرنا على مجال الإدراك الحسى وحده ، فأننا نستطيع أن نتحكم في طريقة إدراكنا . أما كيف سيتم التوفيق بين القوانين التي تبدو متعارضة كل التعارض في الوقت الحاضر فهذا مالا يمكن معرفته . إلا أن أى علم نفس كامل يجب أن تقبل فيه

جميع الحقائق المتصلة به . وسنصل بعد ذلك إلى البناء النهائي عن طريق هذا
الاثبات ، والانكار والتوفيق . وإن من المحتمل أن تكون الابحاث القادمة
في الناحية الشوقية من النفس ، أى فى الوجدان والنزوع ، وفى وظيفة الارادة
الإنسانية بوجه خاص ، هى النقطة المركزية التى تتبلور حولها جميع الابحاث
بطريقة مفهومة .

ثبت بالمصطلحات الواردة في الكتاب

Ability	القدرة
General Mental Ability	القدرة العقلية العامة
Special Ability	القدرة الخاصة
Abnormal Psychology	علم النفس الشواذ
Action	الفعل
Ideo - motor Action	الفعل الناشئ عن فكرة محركة
Mechanical Action	الفعل الآلي .
Voluntary Action	الفعل الإرادي
Age	العمر - السن
Chronological Age	العمر الزمني
Mental Age	العمر العقلي
Analysis	التحليل
Psycho - Analysis	التحليل النفسي
Factor Analysis	التحليل العائلي
Anxiety	القلق
Association	الترباط - التداعي
Association, Laws, or Principles of	قوانين الترباط (التداعي)
Associationists	الترباطيون
Associationism	المذهب الترباطي
Attention	الانتباه
Attitude, Mental	الاتجاه العقلي

Backward Child	الطفل المتأخر
Behaviour	سلوك
Behaviourism	المذهب السلوكي
Behaviourists	السلوكيون
Mind	العقل - النفس
Catharsis	التنقيس - التطهير (العقلي)
Censor	الرقيب
Character	الحلق
Childrene's Courts	محاكم الأحداث
Closure	إغلاق - حصر
Complex	عقدة
Castration Complex	عقدة الإخصاء
Inferiority Complex	عقدة النقص
Oedipus Complex	عقدة أوديب
Conation	النزوع
Conception	الادراك الكلي
Conduct	السلوك
Configurationism	مذهب الشكل العام
Conflict	الصراع
Conscience	الضمير
Consciousness	الشعور
Control	الضبط
Principle of Voluntary Control	قانون الضبط الأراذي
Correlates	المتعلقات
Eduction of Correlates	إدراك المتعلقات
oCrrelation	الارتباط

Crimonology	علم الأجرام
Curiosity	حب الاستطلاع
Curve, Normal Distribution	منحنى التوزيع العياري
Time - curve	منحنى الزمن
Work - curve	منحنى العمل
Delinquency, Juvenile	انحراف الأحداث
Desire	الرغبة .
Differentiation	التمييز
Difficult Child	الطفل المشكل
Function	الوظيفة
Disease, Functional Nervous	الأمراض العصبية الوظيفية
Dream	الحلم
Dream - analysis	تحليل الأحلام
Dream - symbols	الرموز التي تظهر في الأحلام
Day - dream	أحلام اليقظة
Dualism	المذهب الثنائي
Ego	الأنا
Effect	النتيجة - الأثر
Effect, Law of	قانون النتيجة - قانون الأثر
motionE	الانفعال
Energy, Mental	الطاقة العقلية .
Epiphenomenalism	مذهب الظواهر العرضية
Experience	الخبرة
Infantile Experiences	خبرات الطفولة
Principle of Experience	قانون إدراك الخبرة الذاتية
Extravert	المنبسط

Factor	عامل
General Factor	العامل العام
Group Factor	العامل الطائفي
Specific Factor	العامل الخاص
Fatigue	التعب
Principle of Fatigue	قانون التعب
Fear	الخوف
Feeling	الوجدان
Feeling Tone	الصبغة الوجدانية
Figure and Ground	الشكل والأرضية
Fore - conscious	شبه الشعور
Form	الصورة - الشكل
Form Quality	صفة الشكل
Formalism	مذهب الصورة. مذهب الشكل
Genius	النايعة
Gestalt Psychology	علم نفس الجشتالت
Goal	المهدف
Gradient	التدرج
Grouping	التجمع
Guidance, Vocational	التوجيه المهني
Guilt	الذنب
Sense of Guilt	الشعور بالذنب
Habit	العادة .
Hatred	الكراهية .
Hormic (Purposive) Psychology	علم النفس الهورمي (الغرضي)

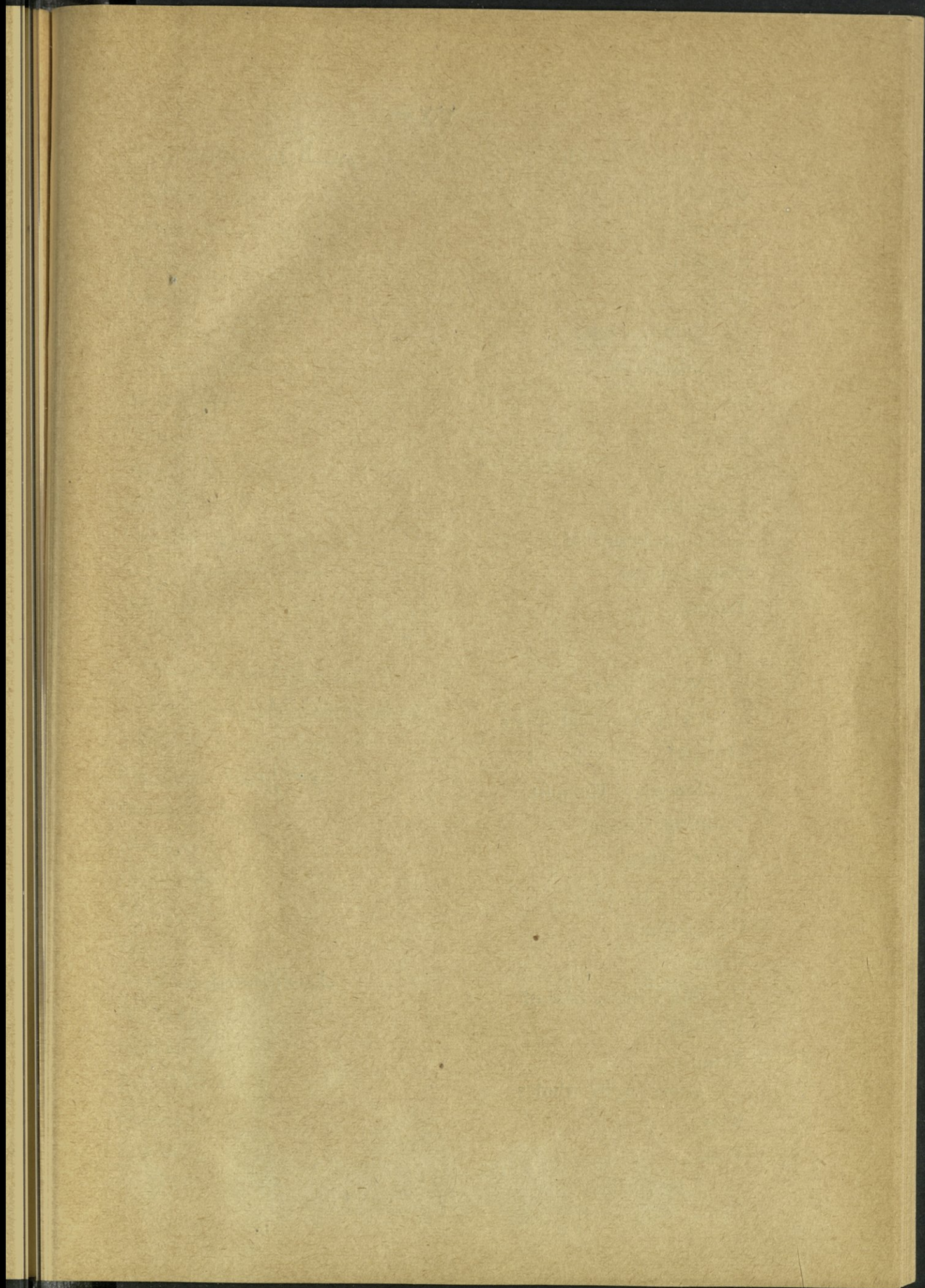
Hypnosis	التنويم المغناطيسى
Hysteria	الهستيريا
Id	الهى
Idea	الفكرة
Ideal	المثل الأعلى
Idiot	المعتوه
Idiocy	العتة
Image	الصورة (العقلية)
Imagery	التصور
Imagination	التخيل
Imitation	التقليد
Impressions	الآثار (الذهنية)
Impulse	الدافع أو المثير
Erotic Im pulse	الدافع الشيقى
Instinctive Im pulse	الدافع الغريزى
Nervous Im pulse	المثير العصي
Individual Psychology	علم النفس الفردى
Inferiority	النقص
Sense of Inferiority	الشعور بالنقص
Inferiority Complex	عقدة النقص
Insight	البصيرة
Instinct	الغريزة
Intellect	العقل
Intellectualism	المذهب العقلى

Intelligence	الذكاء
Measurement of Intelligence	قياس الذكاء
Nature of Intelligence	طبيعة الذكاء
Principles of Intelligence	قوانين الذكاء
Intelligence Quotient	نسبة الذكاء
Introspection	التأمل الباطن - الاستبطان
Introspectionism	المذهب الاستبطاني
Introvert	المنطوي
Isomorphism	التشابه في الشكل أو في التكوين
Language, Subvocal	اللغة اللاصوتية
Learning	التعلم
Libido	الدافع الجنسي (الليبيدو)
Maladaptation	انعدام التكيف
Memory	الذاكرة
Loss of Memory	فقدان الذاكرة
Mental energy, Law of	قانون الطاقة العقلية
Motives	الدوافع
Motivations, Unconscious	الدوافع اللاشعورية
Neuroses	الأمراض النفسية
Noegenesis	نشأة المعرفة
Noegenetic Laws, Principles	القوانين الابتكارية
Observation	الملاحظة
Obsession	الحصار
Orexis	الشوق
Organicism	مذهب الأورجанизم
Organismal Psychology	مذهب الأورجанизم
Organisation	تنظيم
Oscillation	تذبذب

Pattern	النموذج
Perception	الادراك الحسى
Personality	الشخصية
Phantasies	الأوهام - التخیلات
Phobia	الخوف (المرضى)
Pleasure	اللذة
Pleasure, Principle of	مبدأ اللذة
Anal - pleasure	اللذة الأستية
Mouth - pleasure	اللذة الفمية
Potential	الجهد
Power, Will to	الرغبة فى السيطرة
Problem Child	الطفل المعضل (المشكل)
Processes, Anoegetic	العمليات غير الابتكارية
Processes, Mental	العمليات العقلية
Processes, Noegenetic	العمليات الابتكارية
Psychiatry	علم الطب العقلى
Psychoanalysis	التحليل النفسى
Psychoneuroses	الأمراض النفسية
Pugnacity	المقاتلة
Purpose	الغرض
Purposivism	المذهب الغرضى
Purposive (Hormic Psychology)	علم النفس الغرضى (المهورى)
Rationalism	المذهب العقلى
Reaction	الاستجابة - الرجوع - رد الفعل
Speed of Reaction	سرعة الرجوع
Conditioned Reaction	الاستجابة الشرطية
Reaction - time	زمن الرجوع
Reality, Principle of	مبدأ الواقع
Reason	العقل
Reasoning	التفكير

Recall	الاسترجاع
Recapitulation Theory	النظرية التلخيصية
Reflex, Conditioned	الفعل المنعكس الشرطي
Relations	العلاقات
Relaxation	الاسترخاء
Repression	الكبت
Resistance	المقاومة
Response	الاستجابة
Rhythm	الإيقاع
Selection, Vocational	الاختيار المهني
Self	ذات
Self - assertion	اثبات الذات - السيطرة
Self - confidence	الثقة بالنفس
Self - consciousness	ضبط النفس
Self - control	الشعور بالذات
Self - expression	التعبير عن الذات
Self - regard, Sentiment of	عاطفة اعتبار الذات
Self - submission	الخضوع
Sensation	الاحساس
Sense	الحس
Sensism	المذهب الحسي
Sentiment	العاطفة
Set, Mental	الاتجاه العقلي
Sex	الجنس
Shape, Psychology of	علم نفس الشكل
Similarity, Law of	قانون التشابه
Skill	مهارة
Soul	النفس
Specialization	التخصص
Speech	الكلام
Inner Speech	الكلام الباطني

Loss of Speech	فقدان القدرة على الكلام
Stammering	التهتة
Stimulus	المؤثر
Structure	التركيب
Style	أسلوب
Family Style	أسلوب الأسرة
Life Style	أسلوب الحياة
Suggestibility	القابلية للاستهواء
Suggestion	الاستهواء
Super - ego	الذات العليا
Sympathy	المشاركة الوجدانية
Teaching, Remedial	التعليم العلاجي
Temperament	المزاج
Tendency	الميل
Test	الاختبار
Mental Tests	الاختبارات العقلية
Crimonological, Tests	اختبارات الأجرام
Thought	التفكير
Imageless Thought	التفكير الخالي من الصور
Training, Formal	التدريب الشكلي
Transference	التحويل
Trial and Error	المحاولة والخطأ
Unconscious	اللاشعور
Urge	الدافع
Use and Disuse, Law of	قانون الاستعمال وعدم الاستعمال
Volition	الإرادة
Wholes	الكليات
Learning by wholes	التعلم بالكليات
Will	الإرادة
Wish	الرغبة



المحتويات

تقديم
المدخل

١ - ٢

نظرة إلى الماضي

الفصل الأول : الدراسات النفسية القديمة — ١ ١٤-٥

الأصول الأولى لعلم النفس . أرسطو . المادة والصورة .
الحياة والنفس . توما الأكويني . مراجع .

الفصل الثاني : الدراسات النفسية القديمة — ٢ ٢٥-١٥

ديكارت والمذهب العقلي . الجسم والنفس . جون لوك
والمذهب التجريبي . دافيد هيوم والمذهب الحسي
والمذهب الترابطي . علم النفس التجريبي . ثونت . مراجع

نظرة إلى الحاضر

الفصل الثالث : نشأة المعرفة . ٤٧-٢٩

المشكلات العملية . قياس الذكاء . طبيعة الذكاء .
قوانين الذكاء . القوانين الكمية . مراجع

الفصل الرابع : التحليل النفسي ٦٢-٤٩

تحليل الأحلام . المقاومة والكبت . تركيب النفس
خبرات الطفولة . عقدة أوديب . الدوافع اللاشعورية .

مراجع

٨٣—٦٤ الفصل الخامس : مذهب الجشتالت ومذهب الأورجائزم

الإدراك الحسى والمنح . السكليات الموحدة .
مبادئ الجشتالت . التجارب التى أجريت على
القرود . الإدراك والتفكير والسلوك . علم الطبيعة
وعلم الحياة وعلم النفس . توضيح ظاهرة النمو
بالجاذبية . النمو والسلوك . التعلم والنمو .
الذاكرة . مراجع

٩٧—٨٤ الفصل السادس : المذهب الهورمى أو المذهب الغرضى

خصائص السلوك . الغرض . الغرائز . عدد
الغرائز . قابلية السلوك للتنوع . الانفعالات
والعواطف . اتساع دائرة العواطف . مراجع

١١٢—٩٨ الفصل السابع : المذهب الاستبطانى والمذهب السلوكى .

الاستبطان باعتباره منهجاً علمياً . الاتجاهات
العقلية . التفكير الخالى من الصور ، والنشاط
العقلى . ملاحظة السلوك . المؤثرات والاستجابة
الفعل المنعكس الشرطى . مراجع

١٢٥—١١٣ الفصل الثامن : اختلاف الآراء واتفاقها

النواحى الأدبية والنواحى العلمية . تفسير السلوك
السلوك والخبرة . مبادئ تفسير الظواهر النفسية .
علم النفس الهورمى والتحليل النفسى . نظرية
نشأة المعرفة والمذهب السلوكى . نشأة المعرفة
والجشتالت . تقارب واتفاق . تطبيقات
عملية . مراجع

بعض تطبيقات علم النفس

١٢٨-١٤٠

الفصل التاسع : علم النفس التربوي

الغرائز والانفعالات . أسس الخلق . دخول المدرسة
توجيه الطفل . فائدة نسب الذكاء . المشكلات الانفعالية
تطبيقات أخرى لعلم النفس في التربية . مراجع

١٤١-١٥٥

الفصل العاشر : علم النفس الصناعي

دراسة الحركة . دراسة التعب . منحنيات العمل .
فترات الراحة . الاختيار المهني والتوجيه المهني . الذكاء
والقدرة والخلق . عوامل أخرى يجب مراعاتها . مراجع

١٥٦-١٦٨

الفصل الحادي عشر : علم النفس الطبي

علم النفس التحليلي . علم النفس الفردي . الاختلافات
النظرية . الاتفاق في الناحية العملية . طرق أخرى
للعلاج . علم النفس العام وعلم النفس الطبي . علم
النفس والأمراض . مراجع

١٦٩-١٧٩

الفصل الثاني عشر : علم الإجرام والقانون

الأسباب المرضية للجريمة . اختبارات الاجرام .
قيمة الشهادة . الإيحاء . محاكم الأحداث . مراجع

نظرة الى المستقبل

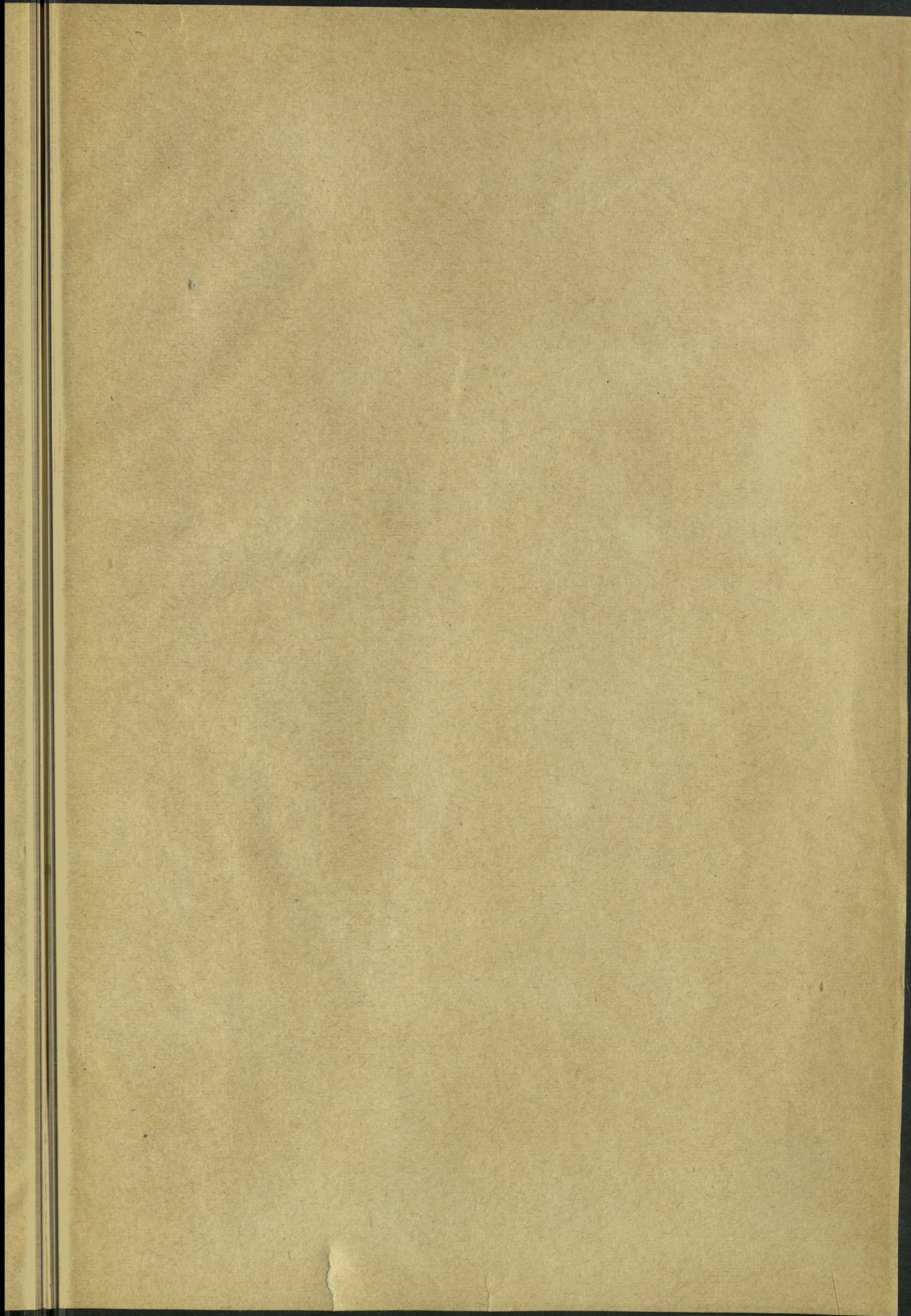
١٨٢-١٨٨

الفصل الثالث عشر : مستقبل علم النفس

أصحاب المذاهب وعلماء النفس . الوجدان والارادة
والنزوع .

١٨٩-١٩٧

ثبت بالمصطلحات الواردة بالكتاب



مطبوعات

الجمعية المصرية للدراسات النفسية

١ - الذكاء ومقاييسه

تأليف : ركس نايت وترجمة الأستاذ عطية محمود هنا

٢ - مبادئ علم النفس التعليمي

تأليف : الأستاذ أحمد زكي محمد

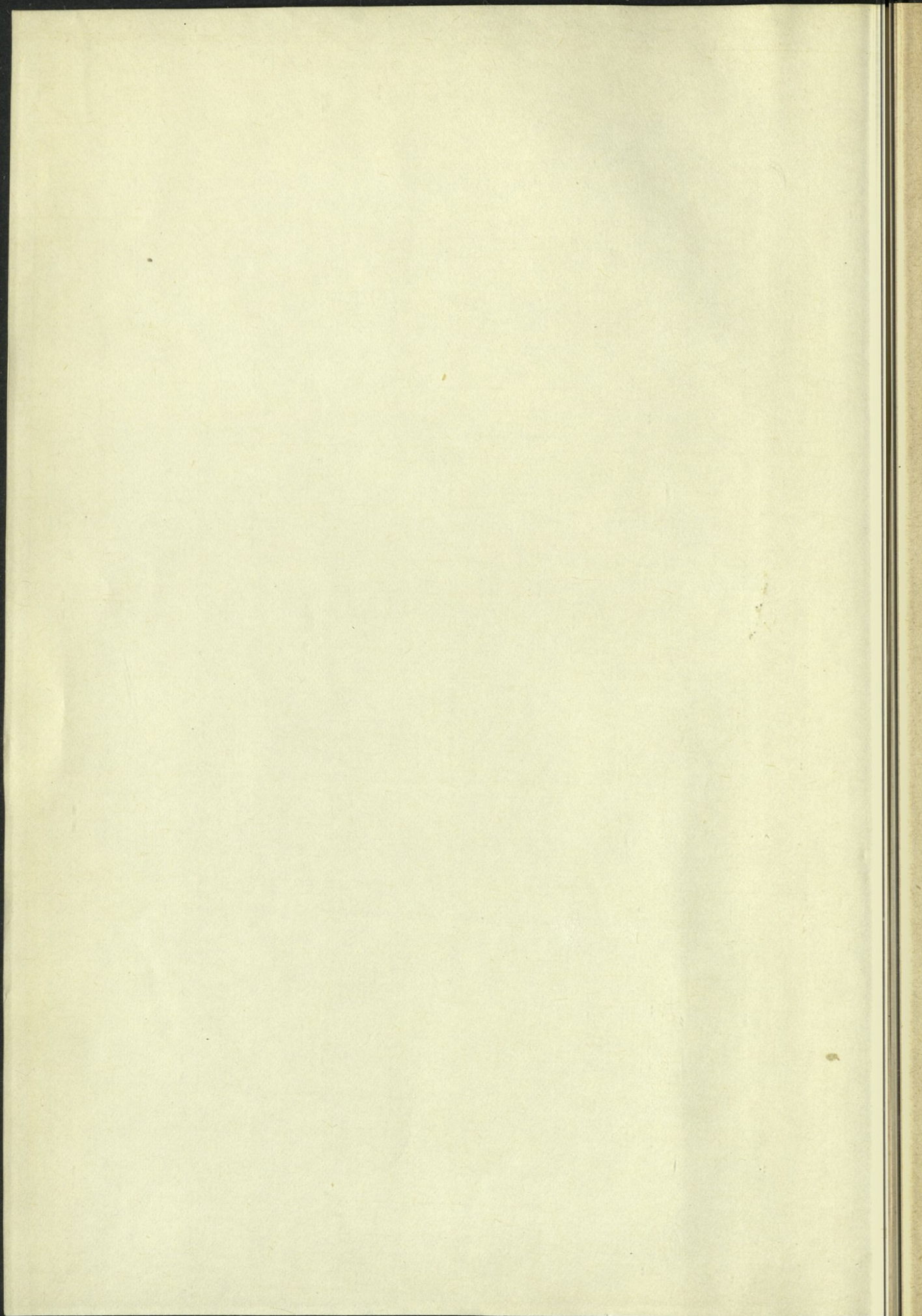
للمترجمين

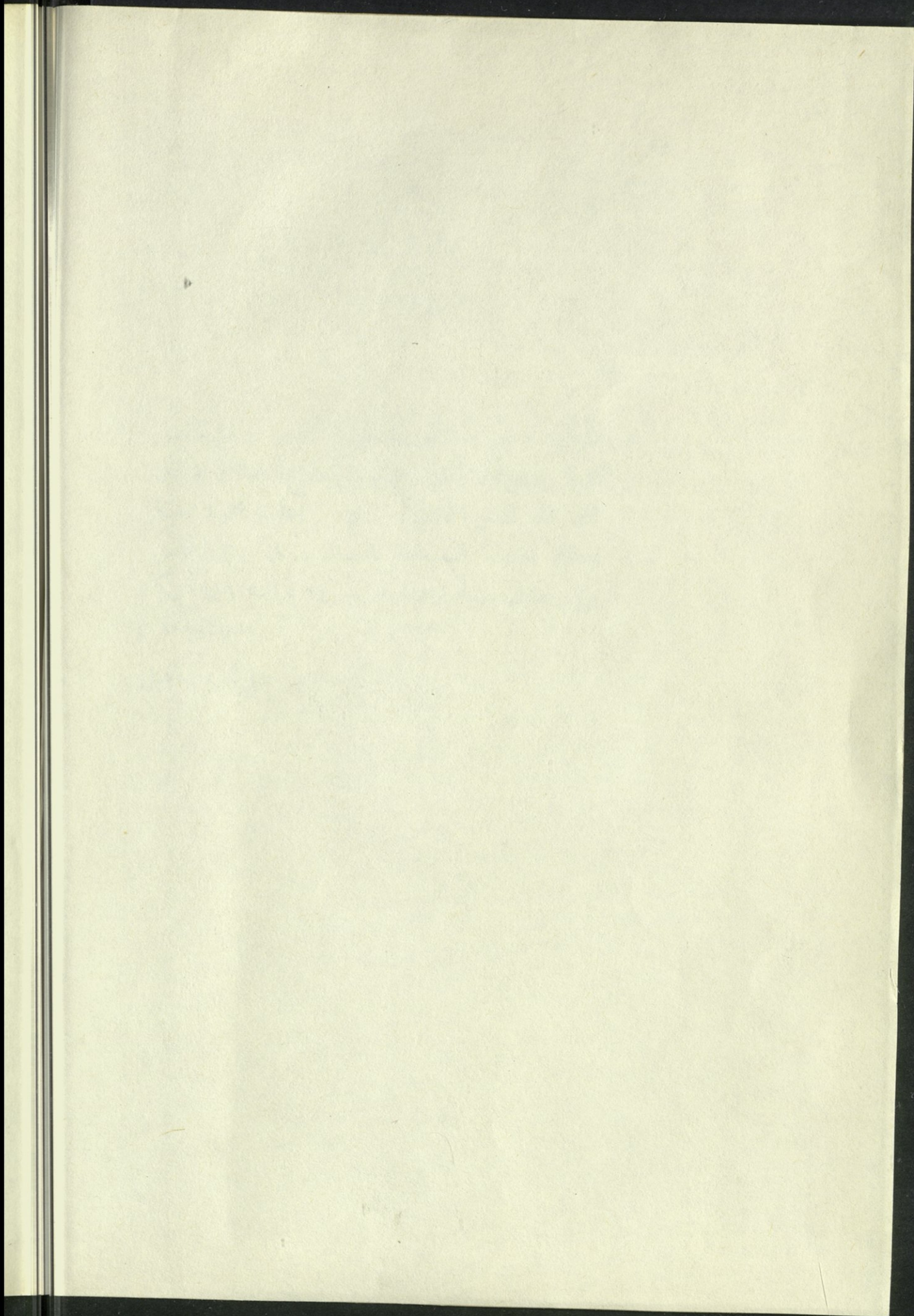
مشاكل الفلسفة

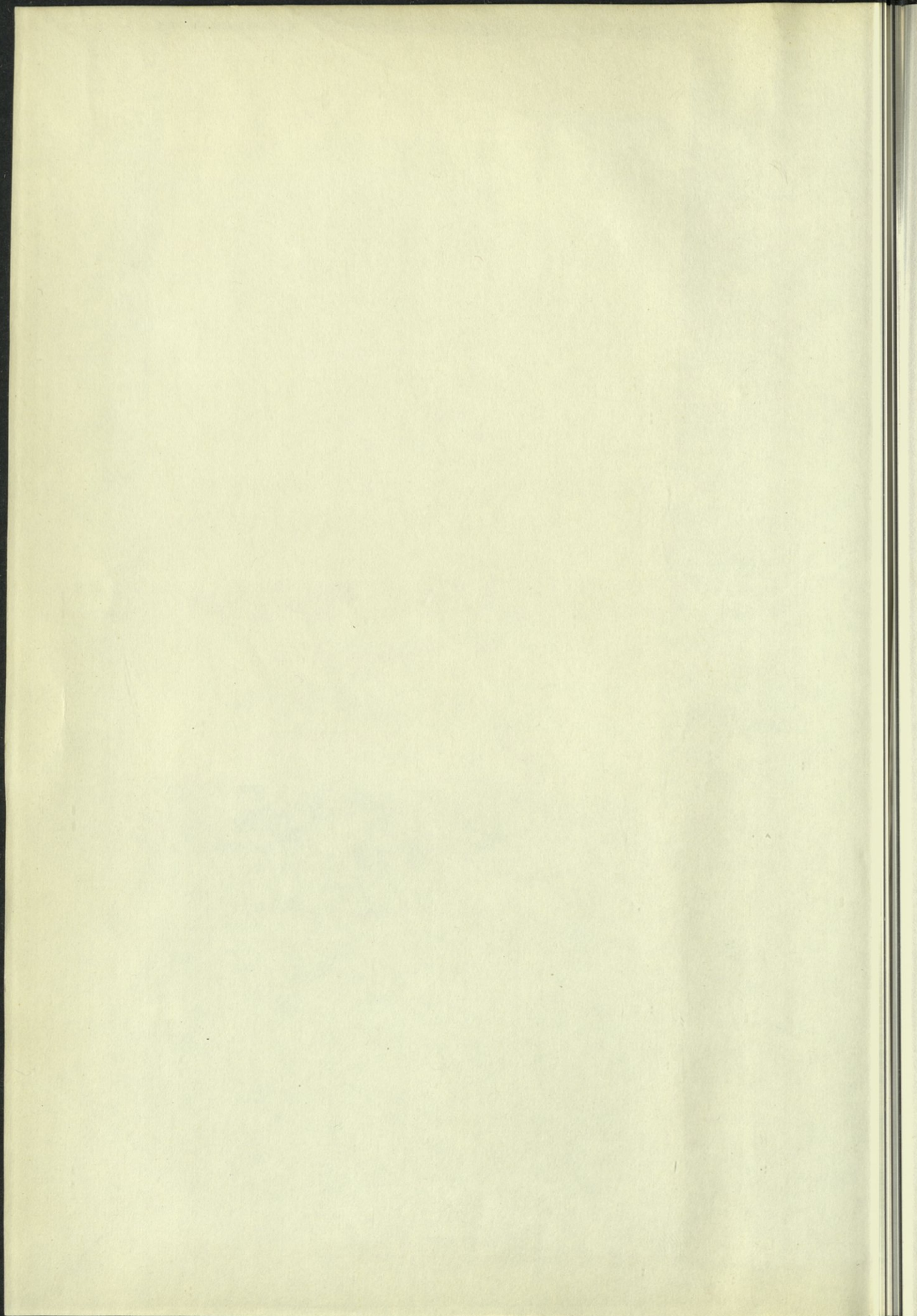
تأليف : الفيلسوف الانجليزي برتراند رسل

قد تم - بعونه تعالى - طبع كتاب « علم النفس
قديمًا وحديثًا » تأليف فرنسيس ايفلنج ترجمة الأستاذين
محمد عماد الدين اسماعيل 6 عطية محمود هنا
وذلك بمطبعة السعادة بالقاهرة في يوم الخميس
١٨ رمضان سنة ١٣٦٨ هـ - ١٤ يولية ١٩٤٩ م
مدير المطبعة

على محمد ا. اعيل







DATE DUE

~~1. LIB.~~

~~28 APR 1987~~

JAFET LIB.

~~12 APR 1988~~

JAFET LIB.

~~1 MAR 1983~~

JAFET LIB.

~~5 MAR 1983~~

~~15 MAR 1987~~



150:A941A1c.1

هنا، عظمة محمود

علم النفس قديما و حديثا

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01001784

